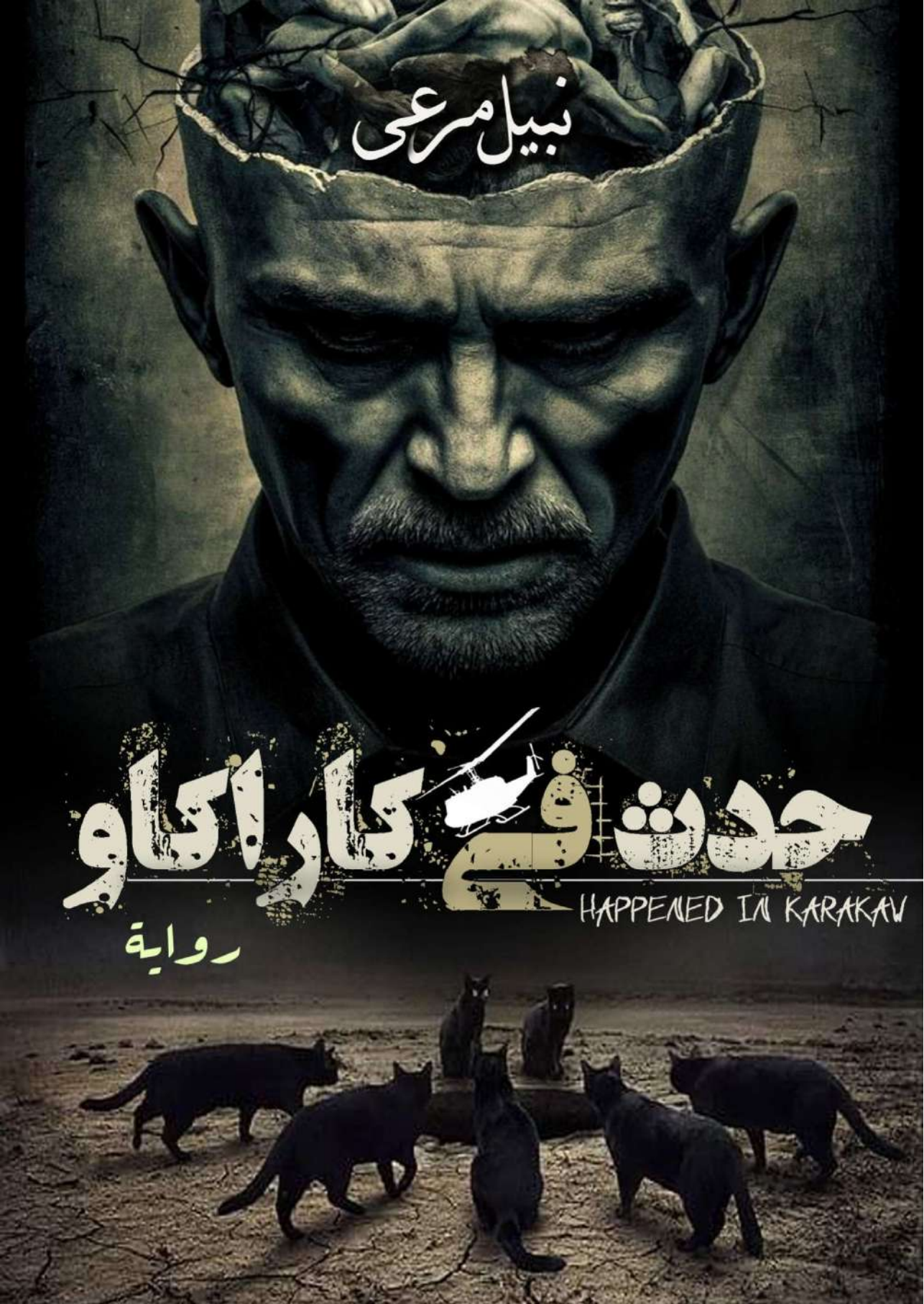

نبيل مرعي
حدث في كاراكاو
HAPPENED IN KARAKAV
رواية

حكايا الزمر المسحور في واحة الراصود

تنبيه
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أى جزء منه ، أو تقليده ، أو تخزينه فى نطاق إعادة المعلومات ، أو نقله بأى شكل من الأشكال دون إذن مسبق موقع من المؤلف .
تصميم الغلاف والتنسيقات الداخلية : المؤلف

للتواصل مع المؤلف :
- عبر البريد الإلكترونى
NabilGamalMaree@Gmail.Com

حدث في كاراكاو

HAPPENED IN KARAKAV

حكايا الزمر المسحور في واحة الراصود

نبيل مرعي

إهداء

إلى هؤلاء الذين تمنوا أن يقرأوا رواية رعب
أعتذر ..
هذه الرواية بكل ما فيها من رهبة ..
لا تمت للرعب بصلة !

فما يحدث بعالمنا اليوم .. هو الرعب بعينه

إلى من أرادوا الإستمتاع ، وفقط

أهدى هذه المروية

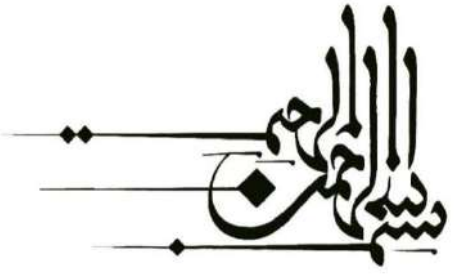

تمهيد

كحال كل شيئ ، وكما ينتهى كل شيئ .. إنتهت حياتى ، بعدما تغيرت ، إمتلأت ، وأنا السائر وحدى دوماً .. كذئب جبلى ينفره الناس ، أنا هنا لأنى خائن وكثير الكذب ، وأحمل على عاتقى ديوناً وأوزاراً فادحة فات أوان إستدراكها ، ولأنه ليس من حرب بمقدورها إنهاء جميع الحروب ، إذ تنمو الحرب من حرب أخرى تسبقها ، وفيما أدركت أنه لم يعد من اللائق أن أحمِّل الشيطان وحده جوائح أوزارى ، وأنا الشريك معه ، تيقنت أنى الكائن الأخطر فى هذه الحياة ! ..

إنجلترا / الحادى عشر من سبتمبر (الأغر) .

لم تكن صدفة حين تنامى إلى سمعى ذلك الهمس الخليس إبان مرورى المباغت على الدرج ، فيما كانت ثلة من طلبة الجامعة منزوية ما بين قاعد ومضجع ، **" بربك ، من هو دكتور يوسف غازى هذا ! ، محض عقل أعرج ، لقد أفحمته طالبة بالدور الثانى بمعضلة كحد السيف .. قطعت حبل أفكاره "** قالها أحدهم بلهجة سافرة .

كنت قد إعتدت ثرثرتهم عن هذا العربى الذى قفز إلى مقعد الأستاذية دون سبق علمى يذكر ، ولا حتى مقال من سطرين فى دورية منكورة بأخر بقاع الدنيا ، حتى شعوب الغاب بمجاهل أفريقيا ، تلك أكلها الضياع ومحقها الوهم قبل أن تتبلغ بلحم البشر ، لتستحى أن تُقره قيماً عليها ، لطالما طرقت أذنى هذه الأحاديث وغيرها من أحقر عمال الخدمات وحتى مكتب رئيس الجامعة ، حتى أنا لم أكن لأصدق يوماً أن الحياة ستدور دورتها وتحط بى إلى هذه المنصة المرموقة ، أستاذ بكلية الأثار جامعة هارفارد ، شيئ للساعة لازت أعتبره حلماً .

لكن لم تكن معضلة الفتاة ، ولا حتى سفور طلبة الجامعة ، ما أوقفنى عاجزاً وألجمنى عن الرد ، إنما هى الفرضية التى أُثيرت فى مكمنها دون

قصد ، (الرصد والخداع البصرى) ، تلك الأطروحة التى حكأت غزلها بنات أفكارى ، وعانيت كثيراً نوبات من التصلب فى محاولة هضمها ورؤية وجهها الغامض ، إذ كانت من الإلتفاف والخطورة أنها فى كل مرة كانت تكرّ بذاكرتى ، فتثير أشباح عشرين عام مضت ، زاحفة من واحة (كركاو) إلى رأسى قصداً بعد أن وأدتها الأيام وأكلها النسيان ، إنه الماضى العنيد حين يطوى السنين طياً ليظهر أمامك بغتة ! .

كراكاو ! ..تلك الأرض الأقرب إلى خرافة بائدة .. التى تحولت بين يوم وليلة إلى حقيقة واقعة ، فكانت سبباً فى كشف بقعة نائية من صحرائنا ، لا تقرأها الخرائط ولا تعترف بها البوصلة ، تعج بالجن والمسوخ والمتشيطنة ، فى زمن لم يعد فيه سنتيمتر مربع لم ترصده الأقمار الصناعية والأجهزة فائقة الدقة ، والتى بفضلها الباذخ ، بما لا يخطر لإبليس على بال ، إلتصقت بهذا المقعد العتيد بحرم جامعة عريقة ، ربما دون وجه حق ! .

لقد كانت أحداث (كركاو) من الرهبة أنها رسخت فرضيتى عن الرصد والخداع البصرى ، ومدت لها جذور بعد أن كانت لعدة سنوات محض أثر لا أصل له ، إذ كان الأمر فى بدايته محض إمتداد لخاطرة قديمة لطالما داعبت رأسى وخامرتها بأفكار مشرذمة إلى أن أثبتت وجودها على نحو يُعتد به ، فمنذ أن كنت صغيراً وأنا أواجه أقداراً أشعر أنها تقصدنى ، وأذكر أن جدى لأبى كان يعانى شيئاً من هذا القبيل ، فالحظ العاثر كان يتبعه أينما حل ، وكلما واجه خوفاً وجد بإنتظاره خوفاً أروع منه ، وفيما ورثت عنه حمضه النووى ، وحاجبيه الكثين وتلك الخطوط العميقة بينهما .. ورثت أيضاً طالعه متقلب المزاج ، لأكتشف فيما بعد ، وبمرور الزمن ، أنها ظاهرة عامة ، فجميعنا مرصودون بشكل ما .. ونحارب عدواً خفياً إلى أن تقوم الساعة ، فالمتتبع لأحداث يومه العادى سيجد أننا محاطون بأقدارنا ومحاصرون بذكرياتنا على أقل تقدير ، وكل شيئ فى هذا الكون يسعى لملاقاتنا ، بدءاً من المصادفات التى تترقبنا وتتحين فرصة للإصطدام بنا عند مفترق أو حتى فى منتصف الطريق .. وصولاً إلى الخوف الذى يترصد فينا نقاط الضعف واللحظات الحرجة ليقوم بعمله ، فيؤلب علينا الأحداث

المؤرقة لتصطك بنا على أسوأ ما يكون ، وجهاً لوجه .
لنجد أن الرصد فى حد ذاته هو فكرة مثيرة للوجل والرهبة ، فبرغم أن الليل جُنة .. لكنه مخيف فقط لشعورنا بأن فيه من يترصدنا ، كونه مفعم بتصورات تهيئ لنا أشياء ربما لا وجود لها ، ناهيك فى ذلك عما يبتدعه العقل لتعزيز هذا الشعور ، وبذلك يتجاوز الليل مفهوم السترة ليصبح كاشفاً لضعفنا ورُهابنا من أشياء كثيرة ، نظن أنها تترصدنا بشكل أو بأخر ، لتصبح الأفكار الكبرى ، مثل نزعة البقاء وهاجس الموت ، مثاراً لخوف أكبر .

وبمرور الوقت بدأت هذه الفرضية تنحسر عن نوع أخر من الرصد .. وهو (الوهم !) ، فلقد تأكد لى بعد وقت طويل من الإنسحاق بضلالات (كراكاو) وخوافيها أننا جميعاً مغترقون فى لجج أبدية من الوهم البصرى (**optical illusion**) ، أو بالأحرى الوهم الذهنى ، فما من شيئ نعيشه أو نباشره فى هذه الحياة إلا وهماً بشكل ما ، وبخاصة إذا ما وجد الأمر لدينا الإستعداد التام لقبول تقلبات الصور الذهنية أيٍ ما كانت ، وقياساً على فكرة الليل .. فإن الناس لا يفكرون فى الظلام كما أفكر به ، ولا أحد يراه مثل الأخر ، وذاك أن عقولنا تختزن فى خلاياها خواص كل شيئ منذ بداية الخليقة وإلى اليوم ، فكل فرد يحمل تاريخ نسله الموروث عبر مئات الأجيال منذ الجد الأول بما يختلف عن موروثات الأنسال الأخرى ، وكذا عن موروث كل فرد منحدر من نفس الجذر .. برغم أن المخزون الأصلى واحد ، ويعزى الأمر فى الأخير إلى أن هذا المخزون يكون بعضه خاملاً وبعضه الأخر نشطاً .. حسب كل الفرد ، الأمر الذى ينفى بشكل قطعى أكذوبة أن أدمغتنا لحظة الولادة تكون صفحة بيضاء ، بل ويعلل إختلاف أمزجة الصغار حديثى الولادة سواء كانوا من نسل واحد أو أنسال متفرقة ، ولا أدل على ذلك من توأم الرحم الواحدة ذوى الصفات المتباينة .

وعلى هذه المخزونات الأبدية .. تعول طريقة رؤيتنا للأشياء وتعاطينا معها ، مما يعنى أن سبعة مليار من البشر يرون الليل بسبعة مليار طريقة ، الأمر الذى يشير بصراحة صارخة إلى أن رؤيتنا له إنما هى فى إجمالها (خداع

ذهنى) عن حقيقة الليل نفسه ، وأن الرواصيد التى تترقبنا فيه من الكثرة الفجة بحيث أنها تخضع لأعداد لا حصر لها من الرؤى الخادعة ، وهنا تكمن خطورة (الرصد) و (الخداع البصرى) بما يُسفر حقيقتهما على نحو مخيف ، وهذا ما جسرته وحدى ، وبقلب راجف ، فى واحة الرعب ، واحة الجن والمتشيطنة .. بما يصعب على الزمن ذاته طمس أثره ! .

لذا لم يكن جفولى ، حين داهمتنى الفتاة بسؤالها المباغت ، وليد اللحظة .. إنما هو إمتداد لمرات كثيرة من الإنسحاق والقلق ، فلقد هوت كلماتها إلى رأسى مثل رخمة ضارية حطمت نوافذها ، وحركت برفيفها ونقرها الأرعن الزمن الراكد ، فكانت دفعة واحدة منها كافية لإيقاظ أفكارى المهجورة ، التى كانت طوال سنوات منصرمة فى حالة تأهب وإنتظار ، رهن إشارة من فتاة متعجرفة ، ربما لم تقصد سؤالها حين قالت باللفظ " **كيف لإنسان العصر الحجرى أن يتجمد حتى الموت ويُحتجز بالكهوف حتى تأكله العثاث إذا كان فى ذاكرته تاريخ الخلق من المهد إلى البعث ؟!** " ، رداً على فرضيتى الآبدة بأن أسراب الماموث كانت تتجمد فى برك الجليد لأن عقولها ضحلة لا تمتلك ذاكرة الإنسان الأبدية ، الواعية بتاريخ الأرض ومجاهلها ، وهو الأمر الذى مكنه من تفادى أخطارها ، والبقاء حياً إلى يومنا هذا ، فى حين إنقرضت هى وأمثالها .

حينها ، ودون علاقة ، حطأ بى سؤالها الأرعن إلى هذا اليوم البعيد من صيف العام ١٩٨٤ م .. حين إضطررت على إثر نكبة مفجعة ، عصفت بحياتى وقلبتها رأساً على عقب ، إلى الهروب من مصر إلى فرنسا ، لأتذكر بجلاء تفاصيل الساعات الأخيرة التى كللت عشر سنوات من إقامتى بـ (موناكو) على أسوأ ما يكون ، إستغرقتها مشتتاً بين خرائبها وأزقتها ، وفنادقها سيئة السمعة ، مُشرداً فى مدينة الفن والنور .. حيث لم أجد لا فناً ولا نور ! ، ليلة عصيبة من ليالى أكتوبر القائظة من العام ١٩٩٤ م ، حيث كانت بداية كل شيئ .. أذوناً بدخول أرض التيه بواحة (كاراكاو) ! ..

(١)

السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٩٤ م - فرنسا / موناكو
قبل أن يُشيعوا جثمانه بليلة ..

حدثت له أمور غريبة ، كان من الجائز التغاضى عنها لولا أنها كانت مهاداً لما جرى فيما بعد ، على نحو قد يصيب الرائى بخبال محقق ، فبحلول الثامنة مساءاً كان يوسف غازى قد أنهي دوامى الليلى بمستودع الوقود ، فتأهب للرحيل ، حينها كان التلفاز بغرفة الإدارة المطلة على الساحة ، وكبائن تزويد الوقود ، يذيع نبأ مكرور ، منذ عدة ساعات وآذان العمال تتلقاه دون إلتفات .. " **أيها السادة ، هذا أخر بث تليفزيونى** ، ... "

إبتسم بسخرية ملل ثم تحرك فى عجل ، ودع رفاقه فى أبهى حُلة له ، بدلة سوداء رغم تواضعها كانت أثمن ما له ، لا يشوبها سوى حقيبة ظهر منهكة ينوء بها كتفه ، آنها قرأ فى أعينهم بهرة من يعاين شخصاً يتأهب للقاء غرامى ، " **بالأخير خرج الرجل غريب الأطوار عن صمته وإنطوائه ، إنهدم جداره الذى لا يسمح لأحد بتجاوزه** " ساوره أنه حتماً كانوا يقولونها فى هذه اللحظة عنه ، خاصة وأن نهاره إنقضى وهو يمازحهم ويجاذبهم الحديث للمرة الأولى منذ أن رأوه ، يحصى الساعات كما يحصى المتضرع حبات مسبحة ، ولا أكثر دليلاً على صحة تخمينهم من هذا المبلغ الذى إقترضه فى بداية دوامه ، فعلى الأرجح أنه لزوم هدية فاخرة تليق بهذا اللقاء ، حتى أنه لم ينس حين لوح له أحدهم " **ليلة سعيدة جوزيف** " ببلاهة أثارت ضحكه ، لكنه أبطل كل ظنونهم .. فمسعاه الليلة يختلف .

توجه رأساً إلى السوق المحلى حيث يمكن للمغتربين إبتياع أغراض زهيدة الثمن ، وحيث يمكنه أن يجد تلك المحلات التى تعمل لدوام مستمر ، أربع وعشرين ساعة ، مر بمتاجر الهدايا والحلوى المخصصة للمناسبات ، فى البدايا إقتني باقة زهور صفراء ، فهو اللون المفضل لمن لأجله قرر يوسف للمرة الأولى تصفح واجهات السوق ، وفى متجر الحلوى أوصى العاملين بإنتقاء تورتة شيكولاتة مميزة ، ثم توجه بالأخير إلى متجر للهدايا

الشعبية بأخر الساحة ، لم تكن لديه الكثير من الخيارات ، فجلب قلم حبر ماركة (ووترمان) ، مُقلدة ، تم تنميقه فى علبة مخملية سوداء ومبطنة بقطعة من الحرير الزهرى ، كلها أشياء يحبها صاحب الهدية المزعوم ويروق له إقتنائها ، وقد إعتنى يوسف كثيراً بإنتخابها من بين صنوف عدة ، كان موقناً بأنها ستدخل السرور إلى صدره المهجور فى عامه الجديد الذى سقط ، وبعد قرابة ساعة من التجول ، كان يوسف عند حافة الرصيف ينتظر حافلة تقله إلى طرف الحى الشرقى .

مرت ساعة أخرى على الطريق المؤدية لتخوم المدينة ، نزل من الحافلة فى ثلاثة أرباع الرحلة ثم رفأ إلى جوار بناية مهجورة تحد مصنع قديم كان قد أنهى خدمته منذ عدة سنوات ، إلتفت خلفه بنظرة حذرة يستوثق من سلامة الطريق ، لا أحد يتبعه ، وقف لعدة دقائق ، ثم دار حول السور الشاهق فيما يشبه أسوار سجن مشدد ، حتى ناهز الطرف الأخر المطل على بقعة مزروعة تمتد إلى حيث ينتهى البصر ، وحيث النقطة المتهدمة من السور ، وكأنها ثغرة تخترق مجاهل هذا السجن ، تسلل عبر الحجارة المنتثرة إلى الداخل .

وما بين رمقة وأخرى ظل بصره مُعلقاً بالطريق خلفه فى حذر ، وفيما مر بعدة صوامع هالكة ، وأكوام من الحصى والركام وقواطع الحديد ، ومواد أخرى غريبة ، كان يوسف أمام غرفة ملحقة بمستودع من الفولاذ ، أشبه بكوخ من الصفيح ، بدى أنه القطعة الأخيرة الباقية على حالها من المصنع البائد ، دفع الباب المحشور فى حلقه الخشبى بصعوبه ، كأنه قد عزم فيما سبق ألا يفرج دفته لأحد ، شغّل مقبس النور ، ثم دخل وأوصد الباب بحرص ، وعززه بمزلاجين غليظين عند حافته .

غير آبهٍ ، ألقى الحقيبة إلى سرير منصوب بقوالب الحجر ومغطى بخيش وورق مقوى ، تنهض عند طرفه وسادة محشوة بمزع القماش ، ثم وضع باقة الزهور وعلبة التورتة على منضدة حديدية صغيرة , إلى جانبه الأيسر ، لا تمل من الأزيز ، لدقيقة زمن جلس عند حافة السرير يحدق إلى الأغراض بشرود ، ثم إلتقط كوباً بحجم فازة ونسق أفرع الزهور داخلها بعناية ، وبالأخير فتح علبة التورتة ، وغرس بمتنها شمعة واحدة ثم أشعلها ،

فبدت كصارى سفينة يُرفرف فى أعلاه علم لا ينتمى إلى هوية .
أخرج العلبة المخملية من جيبه ، ثم أطبق يده عليها فى توتر وإرتعاش راكناً راحته إلى جانب قالب التورتة ، لدقيقة أخرى علقت عينه بلهب الشمعة المتراقص رقصة طائر منحور ، يرمقها بذهول .. كأنما يستدعى حديثاً يأبى أن يهجر مخبأه ، يهس فى ظلماته ، بأى العبارات يبدأ عامه الجديد .. " **عام أخر دون عائلة ولا رفقة ، عام أخر من العزلة والوحدة ، كل عام وأنت بـ** ... **بخير** " ، تهدج الهمس فى حلقه مختنقاً ، متماهياً مع رقصة اللهب المبهوتة ، ثم توقف حين ترقرقت عينه بغتة ، وندت عبرة سقطت سقوط فتاة قررت الإنتحار من أعلى بناية ، إذ كان لابد لها أن تنتحر ! .

فى هذه اللحظة أحسست أن البؤس الحقيقى أن تصبح بلا أب وبلا إبن ، بلا عائلة ولا نسل ، كشجرة بلا جذر وبلا فرع ، حيث لامعنى لشيئ ، كانت فكرة أن أجلد ذاتى بالحديث عنها بضمير الغائب ، وأن أجلب لها هدية لأن لا أحد عاد يتذكرنى .. من السخف أنى لم أعد أستسيغها حتى ، تذكرنى بأنى محض شجرة ضائعة فى الفراغ ، قلت لنفسى لا أحد ينكر ذاته على هذا النحو سوى مختل ، ويوسف غازى ، ذاك الشخص الذى أستحى أن أحكى عنه حتى معلناً أنه ذاته أنا .. لن يمضى ما بقى من عمره يُحاسب جراء لحظة وعىّ غائبة قرر فيها أن يهجر كل شيئ ، ويرحل ، فوحدى بذلت فاتورة هروبى الباهظة ، ووحدى ، عشت وحدى ، منكوراً بأخر بلاد الدنيا ، منغلقاً على حالى .. كمسخ دميم يخشاه الناس ! .

لحظة سكون ، ثم صمت طويل ما قطعه سوى العلبة الأنيقة حين أفرجتها وإلتقطت القلم ، أفردت بعض الأوراق المطبوعة بوجه واحد ، تعود لإدارة المستودع ، وعلى الوجه الفارغ حاولت أن أكتب ، قبل ساعتين كان جوفى مفعم بحديث طويل ، لساعات خلال دوامى وأنا أعد جملاً مختصرة لأنطلق منها ، لكن يبدو أن معين رأسى الليلة قد نضب ، نسيت كل شيئ ، لهنيهة ، حدقت فى الورقة الخاوية أمامى ببلادة قارئ نهم يفر من ذاكرته الكثير مما قرأ ، وكثيراً ما باع كتبه التى أهدر ماله وثمرة عمره لإقتناءها ، بالأخير تلفت جانبى والتقطت كتاب منزوع الغلاف ، مجهول الكاتب ، لا

أملك غيره ، طالعته مرات عدة دون ملل ، أفردت الصفحة المطوية عند منتصفه ، وعند الفقرة الثانية تنهدت لمرة ، ثم قرأت .. " **لو شاء الله أن يهبنى شيئا من حياة أخرى سأستثمرها بكل قواى ، ربما لم أقول كل ما أفكر به ، سأمنح الأشياء قيمتها ، سأنام قليلاً وأحلم كثيراً ، مُدرك أن كل لحظة نغلق فيها أعيننا تعنى خسارة الستين ثانية من النور ، سوف أسير فيما يتوقف الأخرون ، وسأصحو فيما الكل نيام ، سأعطى للطفل أجنحة ، ولكنى سأدعه يتعلم التحليق وحده ، تعلمت أشياء كثيرة ، لكن قِلة منها ستُفيدنى ، لأنها حين ستُوَضب فى حقيبتى ، أكون أودع الحياة ، لو كنتـ ...** "

وإذا بى ، فيما كنت أقرأ ، ألتقط صوت ضجيج دائر بالخارج .. فإلتفت بغتة ، لا ينبغى لأحد أن يرانى ! ، لا ينبغى لأحد قط ، تحركت بخطو رهيف ثم أفرجت النافذة بوربة طفيفة .. كان الحـراك فى الجهـة الأخرى من الغرفة ، فترجلت جهـة الباب ، ثم رفعـت ضلفته بهـدوء ، وسحبته .. حتى لا ينبو صريره المعتاد فيفشى أمرى ، فلمحت عند ثغـرة السور تحت أضوية العمـود الواهـنة شبحـين لشاب وفتاه ، يتناوشـان كأنما يتحـرون عن شيئ ما .

فى البداية لم أميز وجهيهما .. حتى إستدارت الفتاة فبانت ملامحها ، لكزت هذا الواقف أمامها ، ثم صرخت " **قطتى ، أين رميتها** ؟ " ، آنها أخذنى ذهول جم ، إنها هى ! ، حدقت فى وجهها بدهشة وخوف شديد ، لو حدثنى أحدهم بأنها هنا ، بموناكو ، تبحث عنى لتقتلنى .. ما صدقته ، الشبه الصارخ بين الفتاة وغادة يشى للرائى بأنها لا محال هى ، ربما تكون توأمها ، ما هذا العبث ؟! ، أنى لها أن تكون غادة .. وغادة بالأساس قد ماتت ! ، أمعنت طويلاً ، شعرت بوكزة حادة تروغ فى صدرى ، شبهها المذهل كرّ بى لأيام هانئة قد خلت ، وقت أن كانت خلوات العمارة الدافئة ، بمصر ، ترخى أياديها لحبيبين تعاهدا ألا يفترقا ، لكن الموت فعلها ! .

لبرهة طفقت أراقبهما ، ظلت الفتاة تزج رفيقها وتنهره بنبرة حادة " **لا تقترب منى** " ، حينها شعرت بقلبى ينوء بوكزة أخرى فلم أدر بحالى وأنا أسقط عند عتبة الغرفة ، وفيما كنت أنظرها بقهر شديد تسربلت دمعة سقطت رغماً عنى ، فمسحتها سريعاً بكم القمص ، مرت عدة دقائق

عاينت فيها براءة الصغر ورعونة المراهقة بأثر رجعى ، فتداركت واقفاً قبل أن يتفاقم الأمر ثم حملت حالى ودخلت محزوناً ، مثقلاً بأتراح عشر سنين ضائعة ، آنها كان صوتيهما لايزال يقرع ظهرى ، فأوصدت الباب خلفى .. لأتلقى صوتاً أخر بالداخل ، كأنه صراخ رضيع ! ..

بدى الأمر كأنه محض سراب حمله الأثير من عمق المدينة البعيد .. لكن الصوت تكرر من جهة الطرقة المفضية إلى دورة المياه فإنتفضت مذعوراً ، ترجلت بخطو حذر ، الصراخ كأنه عواء جرو صغير ، كلما علا تمدد الشوط إلى دورة المياه لعشرات الأسئلة ومئات الإجابات ، وأمام الباب المغلق تأكد لى أنه هتاف رضيع ، ولكن أى رضيع هذا ؟! .

لم أطق صبراً ، دفعت الباب بحرص حتى لا يتأذى ، وإذا بجرو فى حجم كف اليد يزحف بجوار بالوعة الصرف ، إقتربت غير عابئ بما يجوس فى صدرى ، ثم أزحته بقدمى حتى لا يسقط .. لأجدها هِـرة بريّة من سلالـة (كراكاو) تجر فى ذيلها حبلها السرى ، كفيفة يبدو أنها للتو وُلدت ، فخرجت سريعاً أبحث عن تلك التى كانت تتحرى عن قطتها المفقودة ، فوجدتها ورفيقها قد إنصرفا ، تلفت يمبناً ويساراً بأرجاء المصنع علّى أجدهما ، لا أثر لرجْلٍ ولا صوت ، فدخلت أتفقد ذلك الزائر المنفور الذى أتى على غير موعد .

وفيما دنوت من باب الحمام كان إستصراخ الهرة الحثيث يختصر عن حالها كل شيئ ، ما إن شعرت بقدمىّ حتى ظلت تدور بروح وثابة غريبة تفتقدها سلالتها الكبيرة ، كانت تلوى رأسها من جانب إلى جانب متطلعة بفضول مشتعل لا يخالطه خوف ، كأنما تتبع بأنفها رائحة تعرفها .

تأملتها للحظات ، لكن سرعان ما ضقت ذرعاً بنعيبها الحاد المكرور ، لازالت تبحث .. كأنما تتحرى عن كنف تلوذ به ، فلم أملك سوى النزول عند رغبتها ، جلبت شريحة من البلاستيك المقوى وبواسطة مكنسة اليد أزحتها إلي سطح الشريحة ، فى هذه اللحظة لم يثن صراخها عزمى عن إلقاءها فـى الصباح خارج الغرفـة ، ألم تعلم هذه الرحم اللعينة التى زجت بها إلىّ أننى أكره القطط ، يضربنى أزيزها بقشعريرة لا أطيق نفسى بعدها .

وضعتها إلى جوار السرير ، لازالت تعوى حتى أن صراخها كان يرتد بالخارج من حائط السور البعيد ، حدثتنى نفسى بأنها على الأرجح جائعة ، لم يكن عندى ما أطعمها به .. فجلبت لها قطعة من سفح قالب التورتة ووضعتها أمامها ، فلم تقربها ، ظلت تردد عوائها بلا إنقطاع ، لكنها لوهلة إستدارت فإنغرس أنفها داخل القطعة ، فنظفتها بمزقة قماش ثم ألقيت المزقة من النافذة باشمئزاز شديد ، كأنها تحمل عدوى خطيرة ، ثم خليت سبيلها فى ضيق .. تدور وتصرخ كما تشاء ، زحفت إلى الفراش بوهن بادى ، ثم إنطرحت لأنام .

ما حييت ليلة أرقتنى وقضت مضجعى مثل هذه الليلة ، عويل وصراخ ربما لا تجيده النساء ، أيقنت حينها أن صغارنا أرحم بكثير من هذه الجروة الرعونة ، وما إن دقت الساعة مُعلنة الثانية صباحاً حتى نفذ صبرى فما عاد في معينه ما يتحمل ، فإنتفضت ضائقاً ، كدت أركلها إلى الحائط لكنى آثرت أن أشغل التلفاز .. علّ صوته يغشى عواءها المنكور ، ضغطت الزر إلى أقصى درجة ، لايزال التلفاز ينعق بنبأه الممل **" أيها السادة ، إنتبهوا ، هذا أخر بث تليفزيونى تشاهدونه ، من اليوم ... "** ، قلت لنفسى **" هذا أكثر أرقاً من هوس الهرة "** ، لم أجد حينها بداً ، أقمت القالب المنزوى عند سفح السرير حيث وضعت ورقة مطوية بها أقراص الطوارئ ، أرجأتها لمثل هذه الظروف ، إلتقطت قرصاً وألقمته إلى جوفى دون ماء ، ثم إستسلمت ، وما كاد النوم حتى طرق أبوابى ، فنمت بعمق .

فى تمام السادسة صباحاً ، قمت مفتزعاً إثر كابوس راونى كانت الهرة بطلته الوحيدة ، إلتقطت كوب الماء وجرعته فى سكبة واحدة ، وإذ بى أعاين قطاً أسوداً من السلالة ذاتها ، كركاو ، بعين ممسوحة وأخرى زرقاء عند حافة السرير ، فى نصف حجم نمر بالغ ، فسقط كوب الماء وإنكمشت مرتداً للخلف ، ليقرع أذنى عويل الهرة الصغيرة عند الجانب الأخر ، فإلتفت منتفضاً لأجدها تدور فى سعار حول قائم المنضدة ، حينها نكصت عينى فى ذعر جهة القط الأسود ، فلم أجده ، إلا أنى إلتقطت ظله الضخم وهو يقفز مُنسلاً من هوة النافذة إلى الخارج ! ..

غشيتنى لحظة صمت وشده قطعها صوت التلفاز حين علا فجأة " **أيها السادة ، هذا أخر بث تليفزيونى ... "** ، فوثبت فى محطى هاتفاً بأهة إنفلتت عن حلقى بغتة ، فإلتطقت كوب الماء وقذفته إلى الشاشة ، لكن التلفاز ظل ينعق بهراءه ، وقتئذٍ لم يكن لدى دافع واحد يضاهى دوافعى اللحوحة لإلقاء هذه الصغيرة جالبة النحس ، خارج الغرفة ، إرتديت ملابسى سريعاً ، ثم جلبت كيس قمامة فارغ وزججت الهرة داخله ثم خرجت ، ناسياً التلفاز فى غمرة لهاثى يردد نبأه المشئوم ..

" أيها السادة ، إنتبهوا ، هذا أخر بث تليفزيونى ، لحظة صادمة وبعث مباغت ! ، إستعدوا لخدعة الزمن المسحور ، الزمن اللاهث بلا بوصلة ولا وجهة ، من اليوم .. لا مزيد من الأطباق الطائرة والفضائيين وأكذوبة بوابات النجوم ، لا مزيد من الهولوجرام والشرائح الذكية والحديث عن العالم الموازى ، فبعد أن سقطت أكبر أباطيل الكهانة والعلم الحديث .. إختل نظام العد والقياس ، وإنمحت القواعد والنظريات ، فى أوبة ضارية نحو إنفجار كونى وعقائدى مفجع ! ..

من اليوم فصاعداً ، وفيما تحقق جنون الصفوة وهوس اللوبيات إستعدوا لزحف الحقيقة المخفية ، ذروة الهرم ، ستحل علينا قريباً ثمار سنوات لاهثة من التكهن وتصور نهاية العالم ، السيناريو الأخير للحياة على هذا الكوكب ، أيها السادة .. إقتربت محطة الفصل ، كل ما مضى ليس بشيئ حيال الهول القادم ! ..

أيها السادة نكرر .. هذا أخر بث تليفزيــ ... "

ثم راح الصوت يخفت حتى زال أثره على بعد خطوات من البناية المهجورة المتاخمة لسور المصنع الأمامى ، حينها ، وعلى بعد خطوات أخرى ألقيت الكيس بحذر إلى جوار مطعم لوجبات الدجاج السريعة ، لا ريب أن كثير من القطط تتجمع هنا ، علّ هذه الأم اللعينة أن تجد هرتها المفقودة ، أو تعثر عليها تلك الفتاة التى لا تقل جنوناً عن الصغيرة وأمها ، ثم إبتعدت بحذر قبل أن يلمحنى أحدهم فيقاضينى ، فهم لا يجيزون أفعال كهذه مثل بلادنا ، عدت إلى غرفتى لأعوض ما إنتهبته الضيفة الثقيلة من أقساط النوم بعويلها وأشباحها .. إستعداداً للمناوبة الليلية .

فى تمام الثامنة والنصف ليلاً كنت أمام كابينة تزويد الوقد أرتدى زى العمل ، مكروباً ، تأخرت نصف ساعة حظيت على إثرها بعدة لكزات من رفيق المناوبة النهارية ، لم يقبل إعتذارى ، ألقى إلىّ طرف المزود لأُمون سيارة واقفة وركض إلى غرفة العمال يتوعد ، ويرمى بسُباب محلى لم أفهمه .

لم أكترث لكل هذا قدر روعى لما حدث البارحة مما إستغرقنى كثيراً أفكر به ، إلا أنه حين ناهزت الساعة الحادية عشر ، وفيما كنت منشغل فى قراءة كتابى منزوع الغلاف تحت أضوية المستودع الباهرة داهمتنى سيارة تقل فردين ، كان بادياً من إصطفافها الموتور أن أحدهما يعانى مشكلة ما ، رجل أربعينى يقبض بيد متشنجة على مقود السيارة ، والأخر يكبره ربما بعشر سنوات يضغط براحته على صدره فيما يبدو أنه يعانى نوبة قلبية مباغتة ، يتحدث إلى هاتف خلوى بصوت واهن ، يوشك على الإختفاء .

كانت عادتى ألا أقحم نفسى فى ورطات من هذا النوع .. إلا أنه حين إقتربت من النافذة القريبة لجار السائق ، خاصة حين ألفيت إستصراخه بى ، كان الأخر يستعجلنى أن أزود خزان الوقود ليتمكن من إيصال رفيقه لأقرب مشفى ، فأشرت له بأن يرجع أدراجه ويُعدِّل وضع السيارة جهة مزود الكابينة ، غير أن رفيقه ضغط على صدره متأوهاً قبل أن يُلقمنى هاتفه الخلوى هامساً بصوت مخنوق .. " **طَمْئِنها** " ، فقلت فى عجب " **أطمْئِن من ؟!** " ، برغم ذلك إلتقط الهاتف ثم وضعته على أذنى فى بلاهة بادية ، فجاءنى الرد من الطرف الأخر " **أبى ، أجبنى ، ماذا دهاك ؟!** " .

كان الصوت لصغيرة ربما لا تتعدى العاشرة ، نظرت للرجل مبهوتاً ، لا أجد ما أقوله ، فنطق بنبرة خافتة " **قل لها بأنى ذاهب إلى أمها** " ، فأجبت كالألة عبر الهاتف " **إن أباكى ذاهب إلى أمك** " ، وإذا برأس الرجل تتوسد كتفه الأيمن فى سكون مرعب ، فأخذنى تلعثم وتأتأة حادة ، ليعلن لى السائق مزعوجاً بعد أن جسَّ أوردة الرجل بأنه قد مات ، وقتئذٍ أتانى صوت الفتاة مبهوتاً بعد هنيهة صمت " **ليته أخذنى معه لأزورها فى الجنة ، يعلم أنى إشتقت إليها كثيراً** " .

آنها ، تندت عينى بغتة ، أخـر ما جال بخلـدى أن أُسقط فى ظـرف كهـذا ،

همست للسائق " **ألا تعرف الرجل** ؟ " ، فأجابنى فى توتر " **لا صلة لى به ، فقط أشار لى على الطريق .. فأخذته** " ، لم تعطنى الفتاة هنيهة صبر قبل أن يأتنى صوتها مخنوقاً مرة أخرى " **أعطنى أبى ..** " ، فتداركت تلك القشعريرة التى غمرتنى " **ما إسمك يا صغيرتى** " ، فأجابت " **مريم** " ، " **أين أنتى الأن** ؟ " ، " **فى البيت** " ، " **وحدك** ؟ " ، " **نعم وحدى ، أنتظر أبى** " ، فما زادنى ردها إلا حيرة " **حسناً حبيبتى ، سأبلغه بما قلتى ، فلتمكثى مكانك ريثما يعود** " .

ثم أغلقت الهاتف ، لدقيقة زمن قلّبنى الذهول ناظراً للرجل برمقة تموج بين الشده والحدة ، حينها وفى بادرة لم تُعرف عنى ، أخذتنى الحماسة فقلت " **لن أتركها وحدها ، لابد أن أجلب الفتاه** " لم أكن لأدع صغيرة فى مثل عمرها منزوعة الأب والأم فى منتصف الطريق ، لم يعلق الرجل ، لكنه بادرنى " **وماذا عن هذا الجثمان ، هل ستحمله معك** " ، توقعت منه رداً أخر ، لكنه هالنى حين خاض فى صلب الحدث دون مواراة ، ترددت " **لا أعرف** " ، فبادرنى " **لا يليق أن تدخل إلى الفتاة بجثمان أبيها ، وهى تنتظره** " فإنعقد لسانى ، رمقته فى صمت .. لا أجد فى جوفى ما يُقال ، فأردف " **دع الجثمان هنا ، ولتذهب أنت وتحضر الفتاه** " .

زادنى رده ريبة فيه ، ربما الرجل متورط بشكل ما ، لكنى آثرت ألا أفصح عما يجوس بصدرى ، فقلت " **تحدثنى وكأنك مُنزه عن الأمر** " ، فرد ببرود " **قلت لك لا صلة لى بالرجل** " ، " **لكنه فى سيارتك ، وأنت من جلبته لى ليلقى حتفه هنا ، إن لم تُعيننى فى الأمر .. فلتأخذه وترحل ، الأن** " ، فداركنى الرجل " **على هونك ، لن تكون أكثر رأفة منى .. فلننقل الجثمان لإحدى هذه الغرف ، لن أقل فى سيارتى جثة رجل مجهول على طريق لا آمن بوائقه** " .

برغم أن الأمر لم يرق لى برمته ، وبرغم أنها مخاطرة مجهولة المصير ، ربما لا تناسب ظرفى .. خضت فيه لأذنى ، لم يكن لدى الجثمان ما يثبت هوية صاحبه أو محل إقامته ، فإستخبرت من مريم عن العنوان عبر مكالمة أخرى ، ومن ثم أقنعتها بصعوبة بالغة بأنا مجرد رفقاء لأبيها ، وأننا سنأتى لنأخذها ريثما ينتهى من بعض الأشغال العاجلة ، ثم نقلنا الجثمان إلى غرفة ملحقة

بغرفة الإدارة ، وأيقظت أحد العمال المغتربين ليناوب مكانى ريثما أعود .

على الطريق ، وأثناء حديث عابر مع الرجل لم يكن بوقته ، إستخبر بما لا يليق عن عملى بالمستودع ، وعن شرعية إقامتى بموناكو ، وعن أشياء أخرى أبدى لى أن أهمها أنى أجيد الكتابة والتحرير ، لم أستخلص كثيراً مما وراء أسئلته سوى أنه فاقم حيرتى حين أخبرنى أنه سيكون بيننا تعاون عما قريب ، بالأخير لم أعن بثرثرته ، فقد ناهضته حين إنعطفت السيارة عند ناصية أحد شوارع المدينة قائلاً .. " **أليس بالشارع الذى أخبرتنا به ؟** " ، فرد " **بعينه ، ويبدو أن المنزل هو ذلك القابع هناك بأخره** " .

حين ناهزت السيارة أخر الشارع توقفت مباشرة أمام المنزل ، فترجلنا عبر الرصيف المقابل إلى سياج يحد حديقة صغيرة ، إجتزنا الممر ثم طرقنا الباب برهف ، هنيهة وإذا بعجوز قاربت السبعين تفتح الباب ، فى البداية خايلنى أننا أخطأنا الوجهة .. لولا أنها بادرت بسؤالها عن الرجل المتوفى ، فكان علينا أن نُعيد عليها حديثنا لمريم عبر الهاتف ، أخبرناها بأننا رفقاؤه وقد أرسلنا لنصطحب إبنته إليه ، ولكن " **من أنتى ؟!** " هست بها نفسى ، وقبل أن ينبو الهاجس سؤالاً على لسانى .. دعتنا برفق للمرور عبر ردهة صغيرة ، فمررنا .

فى الداخل ، سارت بنا السيدة عبر طرقة ضيقة إلى الصالة ، لأجد بإنتظارى أخر ما كنت أتوقع ، فتاة المصنع التى كانت تبحث عن قطتها المفقودة ، تلك التى تشبه غادة ، وبرفقتها شاب طويل أحمر البشرة ، لحظة ذهول ، ثم لم أدر بحالى وأنا أنطق مرتبكاً " **أين مريم** ؟ " ، فأجابت الفتاة بأنها هى ، حملقت غير مستوعب " **كيف** ؟ ، **ومريم** ... " وأوطأت يدى إشارة إلى أن التى حادثتنى لم تكن سوى طفلة صغيرة ، ثم ذاب الكلام على لسانى ، فبادرتنى الفتاة بتهكم " **تسأل عن مريم .. وها أنا ذا ، وأنا التى حدثتك بالهاتف** " ، فشردت لبرهة قطعها الشاب الأحمر بعنترية وكبر ، مُرخياً يده إلى كتفها " **نعلم أن أباها قد لقى حتفه ، وغداً ستكون مريم فى بيت الزوجية** " ، فابتدرته السيدة قبل أن يزلق حديثه " **لا تقلق ، هو خطيبها ، وهو سيتكفل بإيوائها** " .

نظرت للسائق إلى جوارى غير مدرك لما يحدث ، " **ولكن** .. " أردت أن أحدثهم بشأن جثمان الرجل الراقد بغرفة الإدارة ، إلا أن السائق جذبنى من يدى فى إشارة للخروج .. فتحركت معه دون إرادة ، وما إن إستدرت حتى ضربنى ذهـول وتبلد غريب ، ذلك قبل أن ألمح القـط البرىّ الأسود (كراكاو) ، ذاك الذى صرعنى فى الصباح عند حافة السرير ، بعينيه الممسوحة والزرقاء ، واقفاً بنهاية الطرقة بحجم نصف نمر بالغ ، حدجنى برمقة مخيفة ثم توارى إلى زاوية الباب ، ثم إختفى ، فهتفت للسائق فى توتر بالغ " **فلننصرف من هذا المكان فوراً** " .

هرعت إلى السيارة والسائق فى إثرى ، وما هى إلا لحظة حتى كانت قد إخترقت الشارع متجاوزة ناصيته البعيدة ، دقائق زهيدة بزغت فيها عشرات الأسئلة وعشرات الصور .. لا أدرى إن كنت فى يقظة أم أنه محض كابوس ثقيل ، أقصى ما كنت أخشاه فى تمادى هذه الأحداث .. أن تكون واقعاً ، إلا أن رفضى لها لم يُنفى أنها كانت كذلك ، آنذاك لم أكن أعلم أن التمادى الحقيقى لم يؤذن له بعد ! .

(٢)

أرقنى كثيراً ما عاينته فى هذه الليلة المنكودة ، ولكن أكثر ما أزعجنى هو معاودة الرجل حديثه عن ضرورة التعاون بيننا ، الغريب فى الأمر أنه ظل يبذل لى الوعود بلا حساب ، بيت جديد وعمل مناسب وسيارة ستكون رهن إشارتى وما شابه ، غير أنه ما أثار رهبتى سوى تزيله لهذا التعاون بتهديد صريح ، وذلك حين ساومنى بين رغبته .. وإفشاء سر الجثة المخبأة فى الغرفة الملحقة بإدارة المستودع ، وتورطى بشكل ما فى إخفاءها ، وبرغم نزاهة يدى عن الأمر برمته لم أجد ما أدافع به عن نفسى .. فقد أوحلت فيه لأذنى ، وزيد الأمر حين مد يده لى بذاكرة إلكترونية ، لوحية ، أشبه بهاتف خلوى مزودة بكابل إطالة ، وأخبرنى بأنه عما قريب سأتلقى تعليمات جديدة ، وأشار لى بأن ثمة صندوق بريد ميت يعمل بواسطة الذكاء الإصطناعى ، ضمن أكثر من مائتى صندوق منتشرة بموناكو وحدها ، سيكون وسيلة التواصل بيننا .

والصناديق الميتة ، فيما كنت أعلم ، هى صناديق بريد جامدة .. عبارة عن وحدات ذاكرة من النوع (**usb**) تكون مغروسة فى جدران المدينة بالبنايات العامة أو أسفل الجسور أو حتى فى الجدران الخارجية للمنازل ، الأماكن التى تمكن العامة من تبادل الرسائل دون أن يلتقوا شخصياً ، وهى طريقة للتواصل بين الأفراد وبعضهم أو بين أعضاء المنظمات ، خاصة تلك التى تعمل فى الظل ، وذلك بأن يقوم الشخص بتوصيل كابل الإطالة بوحدة الذاكرة (**usb**) المزروعة بجدار معين ، ثم يتلقى الرسالة المحفوظة عبر هاتف أو ذاكرة لوحية ، وهذه الصناديق تكون سرية أو مشفرة برغم أنها ظاهرة للعامة .

حينها أشار لى الرجل بأن أقرب ذاكرة متاحة مزروعة ببناية إلى جوار السفارة المصرية بمارسيليا ، ولا أخفيكم سراً كان ذكر السفارة على هامش الحديث إشارة معلنة لنوايا غير طيبة ، ولا أعرف كيف أخذتنى خوافى الساعات الماضية فنسيت أن أسأله عن أى تعاون يتحدث .. وأنا للساعة لا أعرف له إسماً ولا عملاً ، فهس فى نفسى نذير " **ربما كان جاسوساً ، أو**

يعمل لحساب جهة محظورة " ، ولكن ما هى قيمتى ليتبع غرزى على هذا النحو الداعى للريبة ، كانت هُنته التى تسلل بها إلىّ أنى لم أكن مفيقاً لثرثرته ، فخاض معى فى أمور لا أعرف لها رأساً من ذيل .
ظل الرجل يُحكم خناقه إلى حد لم أعد معه أحتمل المزيد ، فصرخت فى وجهه حتى أزاحنى عن سيارته قبل المستودع بعدة كيلو مترات ، كنت فى حاجة ماسة لأرتب أفكارى ، لم يكن ما جرى خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية يتسق فى رأسى ليكون شيئاً ذا معنى ، فى إجماله ليس سوى نتف مُشرذمة تأبى أن تتجمع فى نِصاب يمكن إستيعابه .

فى أقل من ساعة زمن من المشى الوئيد كنت قد ناهزت ساحة المستودع ، حينها كان دوامى الليلى قد إنتهى ، لأتلقى مفاجأة أخرى ، لقد إختفت الجثة ، هُلكت بحثاً عنها بين غرف الإدارة وأرجاء المستودع ولا أثر لها ، وما زادنى ريبة أنه لم تبد على رفيق المدوامة علائم تدل على أنه إكتشف أمرها ، ليس إلا تقريعاً وإستياءاً لإنتهابى نوبة راحته ، لم أنظره ، غير أنه جذبنى من ياقة قميصى فلم أشعر براحتى وهى تنكمش وتلكمه فى صدغه حتى سقط ، وفى هدوء فج دلفت إلى غرفة الإدارة وإلتقطت حقيبتى وإنصرفت ، غير آبه به ، كنت أعلم أنى لن أعود إلى هذا المكان أبداً .
فى البداية كنت أظن أن الخطر قد زال بإختفاء الجثة ، لم أكن أعرف أن الأمور ما إزدادت إلا تعقيداً ، فلا ريب أن كاميرات المستودع قد رصدت كل ما حدث ، رصدت تلك الجثة التى دخلت غرفة الإدارة ولم تخرج ، وربما خرجت ! ، كان علىّ أن أفرغ ذاكرة جهاز التحكم ، لكن القرار جاء متأخراً ، فبعد صفعى لزميلى لا سبيل للعودة مرة أخرى ، فأنا أعرف هذه الزمرة الضالة ، حتماً سيقتلنى .
على بعد ميل من المستودع كنت قد تركت كل ماحدث ورائى ، ونفضت عن رأسى تكهناتها السيئة ، أشرت إلى حافلة تقلنى إلى مسكنى ، لم أستطع أن أدرأ أفكارى عن النزوح إلى المستودع بين تارة وأخرى ، كنت أشم روائح مكيدة حيكت لى ، ولم أر فى صدارتها سوى هذا الرجل غريب الأطوار ، كل الأصابع كانت تشير إليه فى إتهام صريح .

قبل التاسعة ببضع دقائق كنت على مقربة من المصنع البائد ، أسير بخطو مجهد نحو السور ، إلتفت خلفى لأتفحص الطريق وأتحرى المكان الذى ألقيت فيه الهرة فلم أجدها " **فلتذهب للجحيم هى وعفاريتها** " ، أسرعت خطوى .. لكنى تحجرت بغتة فى مكانى حين عرجت من ناصية البناية المهجورة فرأيت سيارتى شرطة أمام ثغرة السور المتهدمة ، " **سحقاً .. إنكشف أمرى** " قلتها لنفسى مغتماً ، مررت فى حذر إلى الجهة المقابلة للثغرة لأعاين ما يحدث بالداخل ، فرأيت إثنين من العساكر أمام باب الغرفة وأخرين يلقيان بأغراضى خارجها ، حينها فقط أدركت أن المكان لم يعد آمناً ولا سبيل للعودة مرة أخرى ، فتسللت بهدوء خارجاً من هذه البقعة قبل أن يلحظ أحدهم وجودى ، ثم هرعت بما أوتيت من عزم راكضاً جهة الزراعات البعيدة الصاعدة إلى قمم الجبال ، تسربلت داخلها تاركاً الطريق خلفى .

أربع ساعات من العدو والوقوع والتعثر ، نازعتنى خلالها الكثير الأفكار السوداء ، تلتهم نفسها بنفسها ، أتساءل عن كيفية عثور الشرطة على غرفتى ، لا شك عندى أنه ذاك المغرور الذى أجزل لى الأمانى بلا حساب ، وربما أحد هذه الشرذمة الضالة بالمستودع ، لابد وأنهم أسفروا أخيراً أمر الجثة ، ما قتلنى كمداً إلا تعجلهم لقض مضجعى وكنت أنوى بالأساس أن أتركه ، أحزننى أنهم ثرثروا عُشى قبل أن ألملم أغراضى .

بعد شوط مديد من السير على غير هدى ، فيما كان الظلام قد أرخى ستائره معلناً بدء مناوبة الليل ، تداعيت فى إعياء شديد إلى صحن غرفة أثرية متهدمة بالقرب من جبّانة قديمة ، حينها لم أكن أدر إن كنت لا أزال داخل موناكو أم خارجها ، لا يتراءى لى عبر مقلة ذاهلة صفدها العرق سوى هذه التلال المخضرة التى تشتهر بها المدينة ، آنها لم تواتنى هنيهة يقظة لإستجماع المشهد قبل أن يندك وعيّى بغتة تحت أثقال نعاس لحوح ، إنتهبت عينى خلاله هالات من هلام أحمر وأخضر .. ثم ظلام .

.....

كحال كل شيئ ، وكما ينتهى كل شيئ .. إنتهت حياتى ، بعدما تغيرت ، إمتلأت ، وأنا السائر وحدى دوماً .. كذئب جبلى ينفره الناس ، أنا هنا لأنى خائن وكثير الكذب ، وأحمل على عاتقى ديوناً وأوزاراً تنوء بحملها كواهل الجبال ، ولم يعد من اللائق أن أحمِّل الشيطان وحده جوائح أوزارى .. وأنا الشريك معه ، فى إقتراف كل شيئ ! ..

ربما كانت الثالثة أو الرابعة صباحاً حين حاولت النهوض فلم أستطع ، عقلى مكبل بمزق معقودة ، حاولت الصراخ فوجدت حلقى موصداً بقطعة من اللباد ، وأخرى محشورة فى أنفى وأذنى .. بالكاد أسمع وأتنفس ، لوهلة بين هنات اليقظة والنعاس حاولت أن أنتزع رأسى من هذه الأشياء التى تحدها .. فتصلبت ، جذبتها شرائط عنيدة تشدها من الهامة إلى الخلف ، حينها فقط نهض وعيّي .. واقفاً ، لكنى لم أستطع الوقوف ، حاولت .. فوجدت رأسى وذراعىّ ورجلىّ ملفوفة بالقماش ، جسدى كله ملفوف من الإخمص إلى الذؤابة ! .

لحظات لا تُدرك ، إرتطام وتطوح ينتزعنى من جانب إلى جانب ، وأصوات تأتينى من الخارج كأنها نابعة من قاع نهر ، " **أسرع أسرع .. ألقِه وأرحنا** " ، وعلى الجانب الأخر " **تريث .. فإن للميت حُرمة** " ، حينها فقط تجمعت الأفكار فى رأسى .. فأدركت أنى محمول على أعناق رجال ، وهذا كفنى ، يلفنى فى صحن تابوتى .. وأنا فيهما ميت ! ، " **ميت ! .. ماذا يفعل هؤلاء المجانين ؟** " ، شعور غريب ، وأفكار تأبى أن تلتئم أو تختمر ، ركب يتدافع وتابوت يتلاقف من يد إلى يد ، وهمهمة مكرورة لا تخفت " **لا دائم غير الدائم ، ولا دائم غير الله** " ، لهاث وحفيف وهواتف لا تنقطع .

الترنح والركض المتعثر يوحى بأنهم سائرون فى مدق وعر يعلو ويهبط ، ورجيع الصوت يشير إلى قمم ونتوءات جبلية ، حاولت الحراك فتصلبت .. كأنى قد صُببت فى قالب من الحجر ، الظلام يتكاثف ، والوقت يلهث بأسرع من لهاثهم بنعشى جهة القبر ، حينها شعرت بأن الموت يفغر فاه فى وجهى بحجم الصحراء ، وأن شيئ تحت جلدى يمزق نفسه بنفسه ، وبرغم هذا كله .. كان الظلام الزاحف بقاع التابوت جيئة وذهاباً أكثر

خيفة من الموت ذاته ، حتى أنى خشيت لوهلة أن تكون روحى حقاً قد فاضت .
وعلى حين غرة ، وفيما مال النعش ثم إنطرح إلى الأرض .. سمعت صوتاً منهكاً قتله الرعب ، يغمغم" **ألقِهِ .. الوقت يداهمنا** " ، ولا أدرى حينها لمَ كانت عجلتهم ، كأن غولاً يُلاحقهم ! ، وإذا بغطاء التابوت يتحرك .. فإنحسرت الجهمة عن غبشة مضببة ، بالكاد إستطعت خلالها أن ألمح وجوههم العابسة ، وما هى سوى لحظة حتى أحسست بأيادٍ تتسربل أسفل منى ، وأخرى تقبض على كواحلى .. فإرتفعتْ ، آنها حاولت التملص علّهم يدركون أنى لازلت حياً .. ولكن دون جدوى ، لا أنا إستطعت ولا هم شعروا بحراكى .
إنخفض جسدى بغتة فيما إرتطمت رأسى بحافة حجرية .. قبل أن أشعر بإنطـراحى ، وإستوائى إلى الأرض ، فساد ظـلام أشد جهمـة ورسـوخاً ، " **هو القبر بعينه** " ، نفذت الرائحة المعتقة من الكفن إلى أنفى .. ثم إلى رئتىّ رأساً ، فى هذه اللحظة أحسست أنه ربما لو أخذتنى سعلة لاستفاقت هذه الحفنة الضالة قبل أن يُتموا فعلتهم الأسيفة ، لكن سريعاً إرتصت القوالب وأوصد القبر فغرته .. معلناً زوال أثرى للأبد ، وما كاد اليأس يضجع بصدرى حتى سمعت الرجال يتناوحون فى فزع ، دبيبهم بالخارج كأنه ركض الخلائق إلى أرض المحشر ، حفيف وتخبط وإرتطام غريب جعل قلبى يتفتت رعباً ، أحدهم يصرخ " **قلت لكم ألقوه وأريحونا .. حانت ساعتنا** " ، وما كاد حتى طن فى رأسى رقع مصمت رهيب ، تلاه قعقعة أغلال زاحفة .. تتخبط كأنها تتالى إنفجارات ، الصراخ يعلو والرجيع يتردد وفى إثره نباح كلاب ضابعة ، زلزلة ورعيد كأن الشيطان حل فوق رؤسهم ، وإذا بقبو القبر ينفجر فيسقط حجر آخذاً مزقة من القماش الملفوف حول وجهى .. فإنكشف النور .
قلقلت رأسى من جانب إلى جانب حتى إنحسر القماش عن وجهى تماما ، لفظت عن حلقى قطعة اللباد التى تسده ، ثم نظرت ، فإذا فوقى طنطل أسود إحدى عينيه ممسوحة ، واقفاً خارج القبر كمارد عملاق يشق السماء ، يقبض على هراوة بحجم بيت صغير ، كلما طوحها خلعت عن القبور

أقبيتها .. فإنتشرت الحجارة حوله مثل زخات المطر ، تسحق كل نُصب ينهض فى طريقها ، قبو تلو قبو وشاهد تلو أخر ، فيما كان حلقه يضخ رطانة صاخبة أشبه بصراخ مضغم رهيب ، والكلاب فى وثبها تمرق فوقى لاهثة ، تتلاقف المشيعين فى سعار مكروب ، لمحت بين ثللها الواثبة فى رمقة جاءت بالصدفة القط الأسود ممسوح العين ، وإذا بالعملاق يميل بجذعه لأسفل فيعود وبين أصابعه هيكل بشرى ملفوف بكفن ، رفعه بين عينيه كحصاه ثم فركه ، فإنذرى كالرماد ، ثم راح يلتقط الأجساد البالية واحداً تلو الأخر .. ثم ينثرها فى الهواء ، فتلقفتها الريح وذهبت بها إلى سفر بعيد لا يُدرك ، إلى أن مال فعاد بأحد المشيعين ، صرخ صرخة لن أنساها ما حييت قبل أن يُقيمه العملاق أمام عينه الممسوحة ، ضاغطاً على جرمه الواهن ، فنتئت عظامه ، ثم إنسحق مثل قطعة عجين ! .

إلى أن وقع أكثر ما كنت أخشاه ، نظر الشيطان لأسفل ، ثم إنحنى بجرمه الهائل متكئاً إلى ركبته اليسرى ، حدجنى بعين وغيرة فيما كان يذرع حافة القبر ببنانه جيئة وذهاباً ، وما لبث حتى أطبق أصابعه فقصم ظهر القبو فوقى ، ثم رفع ما تبقى من حجارة فى راحته إلى أنفه ، قبل أن تنفرك ، وطفق يتشممها ، حينها عاينت السماء عجة من غبار كثيف .. ينسل عنها وجه أسود قميئ ، وأنف غليظة كأنه نتوء جبل ، وفيما لمحت شبح للقط الأسود منتصب عند حافة القبر ، دنا هذا الوجه نحوى ، تسبقه أصابع مثل جذوع النخل ، سقطت إلى صحن القبر لتمسك بى ، فإنفجر حلقى عن أهة جهورة ، إنتهت إلى بُحة عاجزة ..

.....

لفظت شهقة مكروبة قبل أن أعتدل بجذعى فى فزع ، تحسست الأربطة حولى فإذا هى ثيابى ، ولا شيئ أخر ، فدفعت عن صدرى تلك التنهيدة التى تركض فى إثر كل كابوس ، مِلت برأسى إلى الخلف بعين منهكة غامضة ، ما لبثت أن إستعادت صحوها .. حتى لمحت حرباء مخططة تتهـدج بقوائمها على صدرى ، فإنتفضت ، وفيما كانت مخالبها لاتزال ناشبة بقميصى .. أزحتها بظاهر يدى فتطوحت .

للحظات مكثت أتبلغ ببعض أنفاس اليقظة الشحيحة ، وأزيل عن جبهتى

عرق متصبب ، حينها كانت أذنى بالكاد تسترد وعيها المُخدد ، أقمت جذعى للأمام فشعرت بدفقة هبوب باردة تصفع صدغى ، وإذا بصوت سعار يطـرق سمعى ، عواء لاهث ، إلتفت جانبى فألفيت خمسة قطط بريّة (كركاوية) تمزع أحشاء جثة ميتة ، حملقت .. هو بعينه جثمان الرجل الذى لقى حتفه بالمستودع ، رحت أحدق بغير إستيعاب ، آنها إنكمشت أطرافى ذعراً وأحسست بقلبى يتجمد ، شلل يسرى من قدم إلى قدم ، وفيما كنت أنظر مذهولاً .. إذا بقط أسود إحدى عينيه ممسوحة والأخرى زرقاء يستدير ويفج فى وجهى بزمجرة وحشية ، كاد بعدها أن يثب نحوى ، فإرتجفت واقفاً أستحث قدمى أن تفر بجلدها ، ركضت إلى غير وجهة ، أقف تارة وأتعثر أخرى .

بعد زهاء ساعة .. توقفت ، شعرت بصدرى سينفجر ، وفيما ومض فى رأسى سؤال أعجزنى " **ماذا عساى أن أفعل الأن ؟! "** ، إبتلع الصمت سؤالى فى خزى وهدوء ، أخرجت الذاكرة اللوحية الخاصة بصندوق البريد الميت ، تلك التى أعطانيها الرجل غريب الأطوار ، ثم شردت لبرهة ، شعرت فى هذه اللحظة أنه ربما لا أملك سوى هذا الخيار ، أن أستخدمها ، ترددت كثيراً ، كنت أخشى أن تزلق قدمى إلى ورطة أخرى ربما لا أملك فكاكاً منها ، وفيما ألقيت الجهاز اللوحى لمرتين عازماً ألا أستخدمه .. إنحنيت بالأخير مرغماً وإلتقطته ، ثم سرت بخطو حثيث غير واثق من جدوى ما سأفعله ، إذ شعرت أنه علىّ أن أفعل شيئ ، أى شيئ وحسب ! .

يستطيع الإنسان أن يتجاوز الكثير من الحزن ، وأن يقهر خوفه إذا ما إستجلد وصلَّب حائطه .. إلا أن بعض هذا الكثير قد يكون عصيّا على النسيان ، كان أخر شيئ قد تهس به نفسى بعد جملة ما إحتملته أن أبقى فى موناكو ، بل فى فرنسا بأثرها ، ليوم أخر ، لذا ، وفى تمام العاشرة من صباح الغد كنت بأرديتى الرثة أسير بمحاذاة سور السفارة المصرية ، بشارع هامبورج ، أتقدم تارة وأتأخر أخرى ، وفيما تلفت إلى الجهة الأخرى ، ربما بحثاً عن مفر ، لمحت هذا الشيئ المزروع بجدار البناية المتاخمة لسور السفارة ، صندوق الـ (usb) ، ترددت للحظات عازماً على إستخدامها

قبل أن أخرج الذاكرة اللوحة بالأخير .. وألقيها بصندوق القمامة ، لم أكن مفيقاً لشيئ سوى هذه المؤرقات التى أطبقت خناقها حولى بغتة ، لم أجد مناصاً من اللجوء للسفارة طلباً للعودة ، أو بالأحرى التسليم بالأمر ، فلا أكثر من واقعى المتمادى دافعاً لأخطو هذه الخطوة بهذا الوقت ، فسنواتى العشر بدولة الحرية ما ألبستنى سوى ثياب العدم والإنطواء .. حتى تمدد صفرى الأيسر فإكتسبنا معاً ذات الهوية ، هوية الصفر ، ذاك الرمز المبهم الذى يمجده عالم الشرق والغرب بشقيه المادى والروحى ، حط فوق رأسى فصبغنى باللاشيئ ، محى فىّ كل ما هو ذا قيمة ، وزيد الأمر بأحداث الساعات الأخيرة .

ولكن من عساه ينتظرنى بعد مروق كل هذه السنوات ؟ ، من منهم لازال يتذكر ملامحى .. أو إسمى حتى ؟ ، ربما أمى ! ، لا أظن ، كان الإختيار الأصعب هو شعورى الجازم بأنى بت فى طى النسيان ! ، لكن ، وبرغم هذا لم أجد بداً من الهروب من هذه البلد الجاحدة .

بمرور الساعة ، تفاقم ترددى أمام بوابة السفارة ما بين إقتراب وإبتعاد ! ، وفيما كنت أتطلع خلسة إلى اللافتة بحزن عميق ، ماسحاً الحروف (م ص ر) ، إذا بهذا الصوت يمر جوارى " **خياراتك أقل من الوقت الذى تستهلكه بالتمعن والآناة** " ، عرجت بعينى فإذا برجل الوعود واقف بسيارته أمامى ، نظرت إليه بكمود يوشك أن يصبح إنفجاراً " **هل بقى ما تقض مضجعى به ؟ ، ماذا تريد منى ؟** " ، فأجاب " **بالأحرى أنت الذى تريد منى .. ما جئت إلا لأجلك** " ، " **ممم .. وماذا عساى أبتغى منك ؟!** " ، فرمقنى بنظرة يشوبها شيء ذا مغزى " **لا تتعجل ، فأنا أيضاً أطمع فى ذكاءك وحصافتك** " ، فإنفجرت ضاحكاً حتى أن إثنين من طاقم أمن السفارة إلتفتوا فى ريبة ، فقلت غير آبه " **ذكاء وحصافة .. أنت رجل به حماقة وجنون** " ، فإبتدرنى " **إذن لن تخسر شيئ إن أرجأت جيئتك هذه لساعة زمن** " ، فتغضنت جبهتى" **وإن كنت لا أرغب** " ، فأجابنى ببرود جم" **صديقى ، ما تفضله لم يعد مهما منذ فترة زمن** " ، فأشحت له بيدى ثم تحركت فى سعار " **ما بقى عندى صبر يحتمل هراؤك وسماجتك** " ، فصاح

" **وماذا عن وديعة غرفة المستودع** " ، قالها بصوت جهور إلتفت إليه المارة فتسمرت قدماى ، نظرت إليه بغيظ ، تمنيت حينها لو ألقمته حجراً بين شدقيه ، لكنى أطرقت للحظة .. ثم ما كان منى إلا أن عدت أدراجى مغمغماً ، وركبت السيارة ، فإنطلق لتوه كأنما قد أسر رهينة .

ظلت السيارة تنتهب الطريق من شارع إلى شارع .. إلى أن توقفت أمام فندق (امباسادور موناكو) الشهير ، فهبط الرجل مباشرة مترجلاً نحو المدخل الرئيسى غير آبه بى ، حتى أنه لم يلتفت إلى رجل الأمن حين إستوقفنى بسبب هيئتى الرثة ، لولا أنى أشرت له بأنى أتبعه .. فأومأ له الرجل ببنانه دون أن يلتفت ، فخلو سبيلى ، توقف لهنيهة حتى كنت خلفه مباشرة ، حينها ولج بنا من قاعة الإستقبال إلى المطعم الكبير مباشرة ، ثم جلس إلى طاولة بدى أنها مخصصة له ، فحططت أمامه فى حرج ، ثم طلب طعاماً .. وراح يأكل بنهم دون حتى أن يُضيّفنى ، ولولا أنى ضقت ذرعاً إزاء سلوكه الفج ، وأبديت رفض بالغ أن أضع شيئاً فى جوفى قبل أن أعرف غرضه .. ما بدأ حديثه .

آنها تنهد كمن لا يعرف من أين يستهل إلى أن أمسك طرفاً للحديث ، فى البدء أشار إلى هذا التعاون الذى أخبرنى به آنفاً ، مُبدياً حاجته الماسة لى ، ثم ولج فى الموضوع مباشرة ، ولكن هذه المرة بإختصار وبطريقة موجهة .. إستبينت منها الكثير من الأمور ، فللمرة الأولى يصارحنى الرجل بإسمه (ألبرت دزرائيلى) ، مخرج سينمائى يتبع شركة (دزرائيلى فيلم) الألمانية الشهيرة ، وأحد مؤسسيها ، أبدى أنه بصدد إنجاز فيلم وثائقى ويحتاج إلى محرر جيد ، وقتئذٍ شعرت أنه يتذرع بمحض حجج واهية .. فإبتدرته بأن أيٍ من هذا لا يعن لى شيئاً ، لكنه حدانى أن أتروى ريثما يأتينى بما عنده .

مما ظهر لى من جملة حديثه أن هذا الـ (دزرائيلى) قد أساء الفهم حين أخبرته بأنى لى سابقات منشورة بمصر .. فظن أنى كاتباً يُعتد به ، ورغم ذلك أبدى أنه ليس بحاجة إلا لمحرر يُجيد كتابة التقارير وحسب ، إلا أن وسيلة إختياره لى ، فضلاً عن ظنه بأنى أمتلك مهارة خاصة متغاضياً عن طبيعة عملى المتواضع فى مستودع وقود ، ناهيك عن عدم إبداء تعليق

واضح حيال ذلك ، بل وإصراره على الإستعانة بى .. معللاً بأنه منذ البدء وهو يدرك كل ذلك عنى ، وبأن الفرص لا تواتى الإنسان إلا مرة واحدة ، وماشابه ذلك من هراء وأسباب لا تنطلى على بديهة صغير لا زال يلعق ثدى أمه .. ما زادنى فيه إلا ريبة وعزز شعورى بأن ثمة مكيدة تحاك لى ، ولكن يظل السؤال ، ما داعى تهديده لى ، بل وتوريطى فى جثمان لا طائل لى بموته ، وأن يمررنى بهذه الليلة المريعة .. إن كان هدفه منذ البداية ليس إلا الإستعانة بمهارتى المزعومة ؟! .

كما أن ثمة أشياء لم أستطع إستيعابها حول الفتاة ، والقط الأسود ، وهذا الذى لقى مصرعه أمام المستودع ، ومداهمة الشرطة لمسكنى .. مثل تلك الأحداث لا تجتمع إلى غرضه بحال إلا بمكيدة أو ما شابه ، ومما زاد قلقى ، وفيما صارحته بكل هذه الأمور المؤرقة .. آثر الصمت لهنيهة قبل أن يُنبئنى بألا أتعجل ، وأنها أمور سيأتينى خبرها تباعاً ، وأن لقائه بى لم يكن إلا بالمصادفة البحته ، فما كان منى إزاء رده المموه هذا إلا أن رفضت عرضة تماماً ، جملة وتفصيلاً ، حتى مع هذه التهديدات التى تلاحقنى .

إلى أن تحول الحديث إلى منحى أخر لم أملك حياله مقاومة ، فما إن أبدى لى أن الفيلم الوثائقى مخصص لإستكشاف بحر الرمال الأعظم بـ (مصر) .. حتى وكزنى الحنين إلى العودة على نحو هالنى وهزهز قلبى ، بزغ الأمل فى صدرى المظلم .. فهمهمت مستبشراً " **مصر** ! " ، وهنا ولج الرجل من هذه الهنة بذكاء ، أبدى لى بأن هذه السفرة قد تكون أخر طوق نجاة فى بحر الموبقات التى أُوحلت بها ، فمذ أن تُقلع طائرة الرحلة ما عليّ سوى أن أدرأ ورائى كل أمر تورطت فيه للأبد ، الشرطة التى ما تنفك تلاحقنى ، وجثمان الرجل ، وهذه المريعات التى فتأت تتسلى بى ، فضلاً عن المال الذى سأجنيه بعد إتمام المهمة ، وعرض لى رقماً لا يُصد ولا يُرد ، كأنه عِوضاً عن عشر سنوات من الغربة .. بما لا يُخجلُنى أو يكسر عينى أمام عائلتى حين أعود ، ناهيك عن حلم الكتابة الذى ظل يراونى لسنوات ، والذى لأجله إنتقيت فرنساً ملاذاً دون غيرها ، حتى فقدت الأمل أن تُقرأ لى كلمة .

الصدفة شيئ مرعب ، حقاً ، كان علىّ ان أبتلع ذلك اللقاء الذى جمعـنا على

غير موعد ، وأن أهضم ورائه أحداث كثيرة ، أن أنفض عن رأسى جملة شكوكها وريبتها .. فقط لأجل ساعة أمضيها بمصر ، وإن كانت بلا عائلة ! ، آنها كنت أدرك جيداً بأن خياراتى قليلة ، فبرغم خشيتى من هذه اللحظة التى قد أتكبد فيها ثمن رضوخى ، والتغاضى عما تقدم ، والإنسحاق للظروف ، وأن الأمر ربما وراءه مهمة إستخباراتية أو سرية .. وافقت ! ، وحـدث كل شيئ بعـد ذلك بأسرع مما كنت أتخيل ، وفيما بدى أن الأمـر يسير إلى وجهـة واحدة .. نفحنى ألبرت مبلغاً هائلاً ، وغرفة فاخـرة بفندق (امباسادور موناكو) ، وأخـبرنى أن أستعد من غد لجلسات العمل .

(٣)

الثالث من نوفمبر ١٩٩٤ م

لم يستغرق التحضير للفيلم أكثر من أسبوع ، قضينا يومين منهم بپارسيليا ببناية عتيقـة لم أر لها واجهة مذ ولجت إليها إلى أن خرجـت ، والبقية بفندق (كونراد) بالقاهرة ، وفى مصر مُنعت من زيارة أهلى حتى تنتهى المهمة ، ولأجل ذلك أقام ألبرت رجلى حراسة لا يغادران باب غرفتى ، أو الطابق الذى أقيم فيه على أقل تقدير ، تألف فريق العمل من ثلاثة أفراد بما فيهم أنا والمخرج .. لينضم إلينا شخصاً ثالثاً يعمل كمصور ومنسق مشاهد ، لم تستوقفنى أشياء كثيرة خلال الجلسات سوى أنى لم أستخلص منها سوى نتفاً لا توحى بشيء ، بدى أن ألبرت قد أعد لخطة الفيلم مسبقاً ، حتى أنه كان يعرف جيداً المواقع المزمع زيارتها ، وجميعها كانت تقع فى زمام الوادى الجديد .

غير أن أحداث بعينها أثناء وجودنا فى مصر أثارت الكثير من التساؤلات ، فبعض المطويات بحوذة المخرج والتى بدت من مظهرها أنها قديمة وربما أثرية كانت تحمل نقشاً غريباً ، هو ذاته شعار شركة – دزرائيلى فيلم ، (جمجمة يخرج منها ثعبانين !) ، وثمة حديثاً كان يتناثر دوماً على ألسنتهم عن واحة بالصحراء كانت محور نقاشهم ، ذاك النقاش الذى تعمدوا أن يكون بلغات متفرقة حتى لا أفهمه ، لكن الفرنسية والإنجليزية كانت تعلن كثيراً عما يُضمرونه .

وفى إحدى الجلسات ، وفيما كنت قد سئمت حديثهم الملغز ، لمحت كتاباً بارزاً عن حقيبة ألبرت ، والذى كان كعادته مُلتهياً فى حديثه الخاص مع المصور ، بدت عن غلاف الكتاب ، الموارى معظمه ، بعض حروف عربية واضحة ، الأمر الذى حثنى أن إلتقط الكتاب خلسة ، دفنته فى جانب سترتى ثم إستأذنت ، قلت لنفسى علّ القراءة أن تملأ خواء هذه الليالى المملة ، وفى غرفتى وحين تحريت الصفحات وجدت أن ألبرت قد ميّز أكثر من فقرة بلون خاص ، فحدانى الفضول أن أقرأ ما يطالعه هذا الرجل ،

فقرأت بعض الفقرات التى إتضح فيما بعد أنها ذات صلة وطيد برحلة البحث ، منها على سبيل المثال " **قبل ألفى عام ، وبعد سقوط أورشليم فى أيدى الرومان فى أعقاب الثورة اليهودية ، أو ما يُعرف بالحرب اليهودية الكبرى .. تعرض كهنة اليهود الذين قامت مساكنهم فى برية صخرية إلى جوار البحر الميت ، فيما يدعى بخربة قمران ، للإضطهاد على يد الحاكم الرومانى نيرون قيصر ، ذاك الذى قام بتدمير مساكنهم وحرقها ، ونتيجة لذلك قام الكهنة بإخفاء مخطوطاتهم شديدة الخطورة داخل كهوف قمران المتاخمة لشواطئ البحر الميت** " .

وفى فقرة أخرى " **وتعود خطورة هذه المخطوطات إلى إحتوائها على نسخة مبكرة من العهد القديم ، بالإضافة إلى دُرْجين نحاسيين دُوِنَ بهما قائمة بالأماكن التى قبرت فيها جماعة قمران دفائن اليهود .. والتى تُقدر بمئات الوزنات من الذهب والفضة وأشياء أخرى ، وفيما يُذكر أن جماعة قمران لم تكن تتعاطى مع أدوات الثروة من أموال أو تجارة ، ولا يستخدمون نقوداً عليها رسوماً وثنية .. لذا إدخروا كنوزهم فى صورة سبائك ومصكوكات من الذهب والفضة تم دفنها فى أماكن عدة لأجل بناء الهيكل الذى سيتم فيه إستقبال المخلص** " .

وفيما كان الملل قد تفاقم إلى حد أوشكت عنده العزوف عن القراءة ، إذ لم أكن من مُحبى الثرثرة التاريخية ، برزت أمامى فقرة غاية فى الخطورة والأهمية جعلتنى أتوقف عندها للحظات ، تقول " **ونتيجة للإنقسام الذى ضرب جماعة قمران ، وأثناء ما كان الكهنة يخبئون مخطوطاتهم داخل قرب من الخزف فى كهوف البحر الميت ، بما فيها الدروج النحاسية ، تمكن زمرة من الكهنة والوكلاء الأسينين المنشقين من سرقة الدُرْج الثانى الذى كُلفوا بدفنه .. والفرار به من الأردن ثم إلى برية مجهولة بصحراء مصر الغربية ، وذلك بما إتسمت به هذه الطائفة من الترحال والبعد عن المدن والقرى إلى الأراضى المهجورة ، وكذا بما أشيع عنهم بأنهم إمتداد لرعاة بنى إسرائيل الذين عاشوا فى مصر يوماً ما ، وإستعانوا فى ذلك ببعض دهاةِ سحرتهم فى إقامة طقوس خاصة لأجل إخفاء الدُرْج بجُرنة سرية .. لا يُعرف مكانها حتى الأن** " .

واحة مجهولة ، وكنز ، وطقوس سحرية ! ..
لا أخفيكم ، كان الربط بين مضامين هذه الفقرات وتلك الرحلة المريبة ينذر على الأرجح بعـواقب وخيمة ، شعرت بريبة وجـذوة خـوف تنبت فى صـدرى ، فمثل هذه الأشياء إذا ما إجتمعت ، على عكس ما يبدو ، لا تُبشر بخير .

وفى إحدى الليالى ، وأثناء ما كنت بغرفتى مستغرقاً فى سماع بعض الأنباء عن سيول درنكة المدمرة ، ومع عدة مشاهد للنهر الغاضب وهو يسحق فى طريقه الناس والبيوت كأنها أعواد حطب .. نكصت ذاكرتى إلى عشرين عام مضت ، لتقف عند بركة التماسيح ، حين كنت فى الخامسة عشر بصحبة مجموعة من رفقائى فى نزهة بملاهى المدينة ، وأثناء ما كنا نمزح ونتضاحك بعنفوان تدفعنا رعونة المراهقة .. زلقت قدمى ، فلم أدر بجسدى وهو ينساح إلى جرف البركة غير المؤمن .. حيث كانت تلك الوحوش ترغى وتزبد ، وتشرع رؤوسها بين فينة وأخرى تتحين سقوط أحد الزوار لتفتك به ، حينها ضج الصراخ فى كل مكان ..
أخذتنى وحشة شديدة ، وفيما إرتجفت فى ذعر كان التلفاز يضج بأنباءه المشئومة ، التقارير تشير بأن الفيضانات جرفت فى طريقها قرى كثيرة فدمرتها ، تسببت فى موت ما يفوق الـ ٦٠٠ شخص ، وقتئذٍ ، إجتاحتنى حاجة ماسة لأن أطمئن على أهلى ، خاصة حين علمت بأنه الطقس الأسوأ منذ خمسين عاماً ، فتسللت إلى غرفة ألبرت فى غفلة من رجلىّ الحراسة ، لإجراء مكالمة ، إذ لم يكن مسموحاً لى بإستخدام الهاتف ، وإذا بى حين ناهزت باب غـرفته .. أسمعه يقـول فيما يبدو عبر الهاتف ، أو ماشابه " **هو بعينه ، يوسف غازى ، أجهدنا البحث .. لكنا بالأخير عثرنا عليه ، ونعد الأن للخطة كما جرى الإتفاق** " .
حينها شعرت بقبضة تثقل قلبى .. فأرهفت السمع لأتبين الأمر ، لكن ألبرت أحس بأن أحدهم يتلصص خلف الباب فأغلق الهاتف وخرج ليتحرى الأمر ، فإنسحبت إلى غرفتى أجر أذيال الرهبة بخطو رهيف ، فلم يتمكن من رصدى ، إلا أن حديثه أنبت الشكوك داخلى من جديد ، لكنى

لم أملك حيال ذلك شيئ ، جزء من الأمر سببه الحراسة التى لا تنفك تلاحقنى ، والبقية تتعلق بخوف داخلى تشبث بصدرى فمنعنى من أن أبدى ردة فعل .

بالأخير ، وبرغم ما سمعت ، فى صباح اليوم الثامن ، بعد أن إستخرج ألبرت التصاريح الخاصة بالرحلة ، كان ثلاثتنا على متن مروحية ، مخصصة للأغراض الإستكشافية ، تستعد للإقلاع من أحد المواقع القريبة من الفندق ، كان ألبرت قد أخبرنى فى وقت سابق بأن جلسات التحضير ستستغرق فيما يقارب الأسبوعين ، ولكن يبدو أن الرحلة قد بدأت أبكر من الميعاد الذى رتبه ، أو هكذا خال لى .

كانت المروحية قد زُودت بما يكفى من عدة ومؤن ، فبالقرب من حافة الباب كان المصور قد ثبت كاميرا متحركة مزودة بوحدة تصوير ، بدت كمدفع متعدد ، وأقام إلى جواره كاميرا أخرى أصغر حجماً ، علاوة على خرائط وأدوات قياس ومسح وأغراض أخرى خاصة بهذا النوع من الرحلات ، وفيما كانت المروحية قد أقلعت منذ نصف الساعة .. بدأ حوار خاص ، لم يتوقف طوال الرحلة ، بين ألبرت والمصور بأسبانية خالصة تتخللها بعض الإصطلاحات الفرنسية ، أما أنا فرزحت إلى جوار نافذة عريضة .. يتناوح بصرى بينهما تارة والأجهزة المثبتة برأس الطيارة تارة أخرى ، وفى كل مرة كانت عينى تنزوى إلى المناظر التى تمتد دون أول من أخر ، أسفل المروحية ، كلما حلقت .

إستغرقنا قرابة ساعة زمن قبل أن تصفع وجوهنا هبوب حارة ، لتنداح إلينا كثبان رملية عظيمة كأنها أفاعى راقدة ، لنجد أن المروحية تحوم فوق صحراء لا حد لها ، حينها كان من الصعب مع عروجها المستمر أن تتيقن إن كانت حقاً تتقدم أم تتأخر ، وفيما كنت قد شعرت بدوار يطوح رأسى إلتقط الحقيبة وأخرجت علبة عصير وبدأت أجرع منها بنهم حاد ، وما كدت أفعل حتى رفعت المروحية مقدمتها بغتة ، فى صعود إضطرارى ، فإنساح العصير فوقى حتى أغرقنى ، فأزحت السائل عن أردتى قبل أن يلحظ أحدهم ما جرى ، إلا أن المصور نظر لى مبتسماً ، غامزاً بعينه أن " **لا شيئ فى الأمر** " ، آنها غشينى خجل جم فوضعت العلبة فى الحقيبة ، ثم

إستدرت جهة النافذة حرجاً ، وما هى سوى دقائق من الصمت حتى إستسلمت لنوم لحوح داهمنى .

.....

كان الجو صحواً حين كنت أنا والطبيبة النفسية فى بلكون مكتبها بمصحة (الأمل للتأهيل النفسى) .. نراقب غادة وهى خارجة من باب البناية ، كانت فى حال مثير للشفقة ، تسير برفقة أمها لا تجرؤ أن تنزع يدها عنها وإلا سقطت من شدة الإعياء والذبول ، حينها توقفا حتى يُسمح للمارة بعبور الطريق ، فأدارت غادة رأسها تنظرنا فى وهن وشحوب .. ثم ما لبثت أن نكصت بعينها للأمام حين جذبتها أمها للسير ، فلم أملك وقتئذٍ أن أبتلع سؤال يُلح على رأسى **" أليس ثمة حد لمعاناتها ؟! "** ، فإستدرات الطبيبة ، ثم تحركت بضع خطوات إلى مكتبها قبل أن تجلس وتقول فى أسى **" لقد توقفت ذاكرتها عند اللحظة التى ذلت فيها قدمها فزلقت ، أربع وعشرين ساعة فى بركة التماسيح ليست بالوقت الهين .. ناهيك عن صدمة الغرق ، ظلت تصرخ طوال الليل دون مُغيث ، ما أعرفه عن هذا النوع من مزارع التماسيح أنها تتطلب إجراءات تأمين خاصة ، إذن كيف وقعت الحادثة ؟! .. هذا ما لم أجد له إجابة ، إن ما رأته فى هذه الليلة المشئومة سبب لها صدمة لم تتحملها ، Multi Phobia جعلتها طوال الوقت فى حالة طوارئ ، تخشى من مواجهة أى شيء ، الناس ، الشارع ، الزحام ، السيارات ، الموت .. أى شيئ ! "** ، فرمقتها أسفاً **" وما الحل ؟! "** ، فأجابت فى حماس باهت **" ليس أمامنا إلا أن نجرب طريقة العلاج السلوكى بواسطة الـ Flooding أو العلاج بالفيضان ، وهى طريقة تعتمد على المواجهات المباغتة والمكثفة ، مواجهات مستمرة لكل شيئ من شأنه أن يوقظ الخوف داخلها .. "** ، فعرجت بعينى جهة البلكون فذهبت فى شرود طويل ..

.....

إنفرج جفناى بغتة ، ناثراً عن رأسى تلك الذكريات التى ما تنفك تلاحقنى .. حتى أنى مللت كثرة إجترارها ، وإستهلاكها لمئات المرات ، تلفت حولى ، كل شيئ فى الرحلة يسير على نحو طبيعى ، ذاك قبل أن أحملق فى يدى

مبهوتاً فألمح خاتماً غليظاً يطوق إصبعى ، فركت عينى كمن يسترد وعيه فإذا بفص غريب يتوسد رأس الخاتم منقوش عليه (جمجمة يخرج منها ثعبانين) ، بديا كأنهما يتحركان ، وفيما إرتجفت فى جفول .. إنسل الخاتم من بنصرى ساقطاً ، حينها إلتفت إلىّ ألبرت والمصور مدهوشين ، فرميت ببصرى من النافذة إذ لمحت ظلاً أسود يدور عند قاعدة الطائرة أشبه بقزم بطول نصف قامة ، حملق فى وجهى بعين جاحظة ، لا أجفان لها ، قبل أن أرى جرمه يطول ويتشعث شعره ، أمسك بقضيب القاعدة ثم سقط ، وما كاد حتى علا إنذار المروحية فجأة ، منتهباً إلتفات الجميع ، فهتف ألبرت فى توتر " **ما الخطب ؟!** " ، وإذا بالمروحية تهدر بصوت جامح ثم تميل محلقة إلى جانبها الأيسر ، وما لبثت حتى طفقت تتطوح من جانب إلى جانب بعنف ، فصرخ الطيار بأن نتثبت ونربط أحزمة الأمان ، رأيته ينافح بإستماتة تطوحاً يدفعه إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة ، وقتئذٍ لم يدخر أحدنا إرتعاباً فى صدره إلا ونده عن حلقه إرتعاشاً وصراخا صاخباً ، كان ألبرت يتطلع حوله فى ذهول جمَّد عينيه ، كمن لا يصدق أن المروحيات تسقط " **رحماك ربى** " ، إلا أن الطائرة ظلت تترنح كالأرجوحة ، حتى مالت بمقدمتها إلى اليمين ثم دارت حول محورها دورة كاملة ، فصاح الطيار فى جهاز النداء الألى بصوت مرتجف " **الرحلة ٥٦ ، Gazelle / Sa-341 .. الطائرة تسقط ، مطار الخارجة ، نداء إستغاثة** " .

أثناء ذلك ، كان العمال بقاعة التحكم والرادار فى مطار الخارجة التابع للوادى الجديد يباشرون حركة الملاحة على شاشات الحواسيب ، حينها قام موظف تبدو عليه علامات توتر مخيف ليعاين الشاشة الرئيسية بمنتصف القاعة ، وإذا به يتحرك منزعجاً نحو جهاز النداء الألى (اللاسلكى) ، فيما كان أخران يتهامسان خلفه بأن الطائرة إختفت ! .
" **الرحلة ٥٦ ، Gazelle / Sa-341 .. هل تسمعنى ؟ ، نداء عمليات ، الرحلة مفقودة** " أطلقها الموظف عبر اللاسلكى على نحو مكرور ليتلقى من الجهة الأخرى " **تم الإستقبال ، قم بتحديد الموقع** " ، فرد " **عرض ٢٣° شمال ، طول ٢٨° شرق ، ٥٠٠ قدم Hyper Surface** " ، ليأتى الصوت

عبر الأثير " **تم ، وجارى التعامل** " ، فأطلق الموظف نداءه الأخير " **الرحلة ٥٦ ، Gazelle / Sa-341 .. إذا كنت تسمعنى حدد موقعك ، الرحلة ٥٦ .. هل تسمعنى ؟!** " ، ثم طرح الجهاز فى ضيق قبل أن يلقى رمقة أسف إلى زملاؤه ويتحرك جهة الشاشة الرئيسية .

حينها كان النبأ قد تسلل إلى إدارة المطار ، فبوغت الموظفين بدخول أحد المسئولين أثناء إستقبال جهاز النداء إستغاثة الطيار متأخراً ، وكأن الأثير قد إحتجزها لفترة قبل أن تتمكن الأجهزة من إلتقاطتها ، لكن الصوت ما كاد ينبو حتى تشوش ثم إنقطع ، فإهتاج المسئول بغتة ، وزيدت ثورته حين أخبره أحدهم بأن المروحية قد إختفت فى المكان ذاته .. فى إشارة مُضمَرة إلى موقع إعتاد أن يبتلع كل حائم يحلق فى سمائه ، حينها وفى سؤال عابر إستبين الرجل عن جنسية الركاب ، ففاجئه أحد الموظفين بأنهم أربعة من جنسيات مختلفة ، فرنسا وإنجلترا وروسيا وبينهم مصرى ، ثم تنهد مبهوتاً قبل أن يعلن بأن الثلاثة من أصل يهودى ، فاهتاج المسئول " **أربعة يهود وبينهم مصرى ، هذه الرحلة مشبوهة** " ، ثم خرج مغمغماً بعد أن أحال الجميع للتحقيق .. متوعداً بعقاب رادع لمن صرَّح بجواز هذه الرحلة ، فإقترب أحد الموظفين من شاشة الرادار هامسا فى أذن رفيقه " **ألم تظهر بعد ؟** " ، فرمقه الأخر ساخراً " **وهل سمعت عن ذبابة فُقدت فى هذا الموقع .. وعادت ؟!** " .

إبان ذلك ، وفيما إنقطعت الأنباء عن الرحلة تماماً ، كانت المروحية فى النزع الأخير .. تلفظ ما بقى فى قدرتها على التحليق ، ظلت تدور حول نفسها بعد أن فقد الطيار كل وسائله للسيطرة عليها .. فى طريقها إلى سقوط مدوى ، وبينما كانت تهوى لأسفل مثل ذبابة تنساح فى حلزون ، إذا بعاصفة ترابية هائلة .. تشب مُتشكِلة فى وجه بشرى بشع ، أفرج فكيه مثل غول واعر .. ثم إبتلعها فى بضع لحظات ، تردت إلى هوة سحيقة ، ليُطبق عملاق التبر شدقيه إغلاق بوابة سد شاهق ، فإستحالت العاصفة إلى دوامات غبار متشرذمة ، كأنها عظام مطحونة ، ثم إلى هبوب ترابية .. ثم لا شيئ ! .

حين إبتلع الحوت يونس النبى أُوحى إليه أن يطويه آمناً فى بطن رحيب ، ألا يأكل له لحماً ولا يقض له عظماً ، أما أن تتلقفنى غور عميقة مظلمة ، لا يُرى لها قرار ، فهذا ما كان أكثر رعباً من أن يلتقمنى وحش ضارٍ يسبح فى لجج كالجبال .

حين ألفيت نفسى ساقطاً فى بئر كالهاوية ، مثل قبر أسود يمتد لأسفل كلما قطعت فيه شوطاً إمتد سفره ، لم أكن مدركاً إن كنت واعياً أم أنها سكرات إحتضار ، ظل يسحبنى ، وينخسف بى فى ظلام راسخ .. لا أشعر فيه إلا بحجارة وعرة تحدنى من كل جانب ، وما هى سوى رجفة لا تعدو برهة زمن .. حتى شعرت بخفة تسرى فى جسدى ، وبأنفاسى تنسحب ، وقتئذٍ أحسست بأن كل شيئ يغير وجهته بأسرع مما ينبغى ، ولا أدرى إن كنت حقاً أصعد أم أنى دُرت حول نفسى ، إختل إدراكى ، لم يستوقفنى سوى صراخ موحش مر بجوار أذنى بغته .. أشبه برطن مضغم ، صوت أعرفه ، حينها كرت ذاكرتى للوراء ، حيث كنت غامياً بجوار المدافن ، فتذكرت كابوس النعش ، والعملاق الأسود ممسوح العين ، ما إستوثقت أنه هو إلا حين طالعنى المخلوق بوجهه الدميم معلق بين صخرتين مثبتتين بحائط البئر بأغلال من حديد ، كان مكتوفاً بأصفاد تطوق خصره .. ومجموعة يديه ما بين ركبتيه إلى عنقه بسوارين ، برمقة خاطفة لمحت رأسه المنكسة تمر لأسفل ، غامضاً عينيه ، رفع هامته بعد طأطأة ، ثم فتح عينيه فى جحوظ .. وإنتفض لافظاً صرخة تأوهٍ موحشة ، سافرت إلى القاع حيث لا قاع ثم إرتدت إلى أعلى برجيع صاخب ، وفيما كنت أصعد إنسحب العملاق لأسفل منكمشاً على بعضه ، آخذاً معه قعقعة نثرتها أصفاده ، وما كاد حتى إبتلع الظلام كل شيء .

لم يمر كثير من الوقت ، خفقة عين ، حتى زال أثر كل ما رأيت .. لأجد نفسى معلقاً عند حافة البئر ، وإلى جوار يديّى المتشبثة بومة سوداء كبيرة تحجل حجلاً مخيفاً ! ، حاولت أن أزجرها لتنزاح .. فلم تتحرك ، ظلت جامدة كأنها صنم ، فجاهدت ثُقلى حتى نزحت بجذعى عن الحافة ، حينها ناحت البومة نياحة عظيمة فأسقطتنى إلى الجهة الأخرى ، ثم طارت ، فإنطرحت إلى الأرض أتلفت حولى فى جزع .

لم يستهلكنى الفزع كثيراً قبل أن أطبق جفنای اللذان تأثرا لتوهما بحرارة الشمس اللافحة ، أفردت راحتى فوقهما كمظلة .. فهالنى منظر الصحراء المفتوحة ! ، تلك التى ينبذها كل حى ، ممتدة ومستوية بحيث أنها كانت من الرحابة المفرطة أن أثارت فى نفسى رعباً عظيماً ، صدمتنى طبيعتها البدائية ، أرسلت بصرى ، غطاء رملى لا تميز فيه خلاء من ملاء .. ينتتهى النظر عند حدوده ، كأنه عجين مجدب من تراب وحجر ونباتات شاردة ، يبتلعك حتى قبل أن تنظره ، تلفت حولى ، كاد الفزع يقتلنى ، بحار من الكثبان المتعرجة تجلدها الشمس وتنقشها الرياح .. تنداح وتتلوى كالأفاعى الهائمة ، حتى أن الخوف ليعشش فيها وينام ، كأن الله لم يخلق على الأرض سواها ! ، تيه موحش تشرئب منه تباب واطئة وتشقه خور فاصلة .
يميناً ويساراً .. غرقت عينى بحثاً ، لا وجود لأثر ينم عن الحياة .. ليس إلا موت وخمود يتصنت ، وسكون له عزيف مخيف كأن فى جوفه صوت ، كلما تردد خال لى أن قبائل من الجن ترطن فى الوقت نفسه بألف لسان ، تطلعت بعيداً حيث يرسم الأفق حدود هذا الصمم المقبض .. فلم يشى لعينى سوى تبة صخرية شاهقة ، وحيدة متفردة ربما فى غير موضعها ، إستدرت متحرياً عن المروحية التى للتو سقطت .. فلم أجد لها أثر ، بدى أن الرمال إبتلعتها فى غمـرة أشياء كثيرة ، فعرجت نحو البئر مبهوتاً ، " **كيف نهض ذلك الشيئ فى هـذه الفلاة المجدبة ؟! "** ، وإذا بى ألمح القـط البرىّ الأسـود (كركاو) ماراً أمامى ، فتقهقرت مفتزعاً ، حتى أن قدمىّ تعثرت فإنطرحت ، باشرته خلسة وهو يدور حول البئر فى سير وئيد ، توارى خلف جداره ثم لم يظهر مرة أخرى ، فوقفت مرتجفاً ، ترتج جدران صدرى بدبيب وهم وهلع ، ثم ترجلت بضع خطوات حذرة إلى الجهة الأخـرى .. خشية أن يباغتنى فيفـج فـى وجهى ، بحثت عنه وراء البئر فلم أجـده ، فتلفت خلفـى لا أثر لشيئ ، لأكتشف بعد دورة كاملـة أنه قد إختفى ! .

حينها تصفحت هذا الشسع المقفر .. فضربنى وهم الغارق حين يبحث عن سفينة مارة ، بحثت عن وِجهة أو علامة طريق .. فلم أر فى هذا الخلاء غير

التبة ، فدفعت جسدى المرضوض نحوها بأقدام تسوخ فى الرمال دون إرادة ، قطعت شوطاً طويلاً والتبة تأبى أن تقترب ، وما هى إلا نصف الساعة أو أقل حتى كانت الشمس قد أنفذت حرابها المسننة إلى رأسى ، حينها كنت أشعر بأنى أسير بينما تسبقنى الأرض راكضة ، فتوقفت أسترد بعضاً من عافيتى المنهكة ثم تابعت المسير ، خطوة وأخرى حتى إلتفت قدماى فتعثرت ، سقطت لا أدرى إقبال من إدبار ، حاولت النهوض مرة أخرى فلم أستطع ، سفعنى دوار حتى رأيت السماء تموج فى بعضها كالعهن ، رحت أنظرها بعين مخدورة يجذبها النعاس جذباً .. حتى غرقت فى غشاوة داهمتنى ، ألقت بغلالتها الثقيلة سالبة ما بقى من وعيى ، حينها عاينت ، بين النعاس واليقظة ، رجلاً شديد السواد يمتطى عربة كارو ، مر أمامى مسرعاً فأثار عجة من غبار كثيف .. قبل أن ترتخى أجفانى فتستلم لنوم عميق .

.....

" بيدك ستلملم أشلاءك ، وبقدمك ستطأ الأرض الغريبة التى ستلقى بها حتفك .. إرحل " ، صحى (جبرين الدقاق) مفتزعاً يمسح عرقه المتصبب ، تطوح قليلاً عن التعريشة التى إتخذها مضجعاً ينفض عن رأسه تلك الكلمات التى تُكدر عليه مزاجه كل صباح ، مستغرباً من أى مورد تستقى تلك الضلالات ، نهض ، ثم إلتقط خاتمه الموسوم بـ (جمجمة يبرز عنها ثعبانين) من بسطة الحائط المتهدم بزاوية الحظيرة .. فطوَّق به إصبعه ، ثم ترجل نحو بئر الماء المربع ، الذى لا يتخطى قاعه الذراع ونصف ، فغمر كفيه فى الماء ثم رفعهما مملوءة إلى وجهه ، طس بهما صفحته فى عدة مرات سريعة ، كأنه يستحث تلك الأنف البارزة كأنها نتوء جبل أن تسقط ، أو يُثير الوجه الأسود الدميم أن ينحسر ، علَّه يُزيل ما علق فى عينه اليمنى من بياض فمسحها .

إلتفت جبرين إلى فرسته السوداء ، المربوطة فى وتد مثبت بصدر الحائط المقابل ، فوجدها تنفر من شدة العطش ، صهيلها المنكور طوال تلك الليلة النكدة ينم عن أشياء مثل تلك التى ما تنفك تكدره ، جحوظها ونهوضها المكروب ما إن رأته إختصر كل شيئ ، ليست بحال أفضل منه ، إلتقط

السقاية الموضوعة عند سفح البئر ، فطمَّها فى الماء ثم أقامها ووضعها أمام خطم الفرسة ، ثم وقف لبرهة يتمعنها وهى تجرع الماء جرعاً دراكاً بنهم ونغيق .. فنفحها واحدة أخرى ، كان قد إلتهى ليلة أمس بحديث كبير العربان فنسى الفرسة حتى قتلها الظمأ وأيبس القيظ حلقها .

مرر يده على خطامها بعد أن إرتوت ، ناظراً من الشرفة المفرجة دوماً دون مصراع ، ثم أمسك بذراعى عربة الكارو المشرعة فى الهواء فأمالها حتى كانا فى مستوى ظهر الفرسة ، ثبتها إلى كفليها ، ثم إلتقط عود خيزران معلق بالباب وإمتطى جانب العربة .. خارجاً من البيت الراقد عند سفح الجرف العظيم متمتماً بلحن بدوى منغم ، توجه نحو الطريق الصاعد إلى أعلى نقطة فى جبل كراكاو ، الملتحف بالصخور فى كبرياء ، حيث القصر الرابض هناك فى شموخ وإنتصاب مهيب ، رغم تعاقب الأهوال والأحوال .

شارف المدق الوعر ثم إستحث الفرسة بحداء وغنج هو وحده الذى يعرفه ، فنفرت الدابة ثم ركضت فى نشاط غير معهود ، تعلقت عيناه بقباب القصر الناهضة ، هو لا يعرف متى أضحى بهذا الشكل بعد أن كان محض أطلال ميتة ، كان مثل نتوءات صخرية هائلة صنعتها الرياح الراكضة فأضحى مثل معبد قديم ، كان ناس الواحة قديماً يسمونه (معبد سليمان) ، أما اليوم فقد نهضت له أعمدة متوجة برؤوس كزعف النخيل ، ومداخل متخمة بمنحوتات أسطورية كأنها ديادب لا تنام ، وقباب موشاة مسحوبة برهف تقعى فوق صفوف من أعمدة متراصة بإنتظام ، وكأنها مجلوبة من حكايا ألف ليلة وليلة ، وجرم مهيب بالكاد يكشف النهار هامته .. أضحى قبلة للأغراب كل بضعة أعوام .

كان جبرين قد دُعى ، ليلة أمس ، من قبل كبير العربان الرابضين هناك خلف الجبل لنقل بعض الأغراض القديمة من القصر ، بقايا أثاث ومناضد مهشمة ومقاعد منزوعة الأرجل وما شابه ، وسيجد هناك من العربان من يساعده ، فهمّ إلى الأمر من فوره مع نهوض الصباح دون أن يخامره أن يسأل عن علاقة العربان بالقصر ، فشتان بين سكان الخيام المصنوعة من شعر الماعز وبين من يسكنون القصور ! .

ظل صاعداً حتى ناهز منتصف الطريق اللاهث نحو القمة ، ثم توقف

لبرهة يتأمل المدق الملتوى فى رهبة ، كلما نظر لأعلى شعر بأن الصخور الناتئة بينها وبين السقوط فوقه محض برهات ، لكنه أغضى البصر وجذب زمام الفرسة ثم أرخاه فأطلقت ساقيها تكمل المسير ، وقبل أن تمر ثلاثة أرباع الساعة كان جبرين عند تخوم القصر ، ذاك الذى توقف الزمن عند جدرانه العالية كأنه جدران قلعة ، وهنا تسلل إلي صدره شعور بالوحشة فاقم رهبته فأفقده التركيز ، فهذه هى مرته الأولى التى تطأ فيها قدمه هذا المكان المغمور بالحكايا والأساطير ، سار محاذيا للسور حتى وصل إلى بوابة قديمة ، وجدها مواربة قدر ذراع ، فهبط عن عربته وإقترب من الفرجة متلصصاً بخطوات حذرة .. فوجد الساحة ساكنة إلا من البوم وصداح عقبان الجبل ، فتميّز مغتاظاً هامساً " **أين هؤلاء العربان الملاعين ؟! "** ، وزِيد الأمر بوسوسات هستيرية ظلت تنداح إليه من كل جانب ، فجاهد هسيسها صاماً أذنه ، لكن صدره كمطرقة بحجم عربة قطار .. يدب دبيباً رهيباً .

دفع جبرين البوابة فأحدثت صفيراً موحشاً ، لكنه جذب فرسته غير آبه ثم دخل حتى إستقر بالعربة أمام باب القصر ، فأزاح ذراعى العربة ، ثم وثق زمام الفرسة بأحد الأعمدة ، وما كاد يستدير حتى إصطدم بتمثال شيطان تبرز عن رأسه الحيات .. فوثب مرتعداً ، حينها هست له نفسه بأن يغادر لتوه ، وقبل أن يهم بالأمر إذا برجل غريب له سمت الأعاجم أمامه مباشرة ، ليس من العربان ولا أهل الواحة ، نظر له فى صموت ثم أشار إليه بالدخول دون أن ينطق بكلمة ، فتحرك جبرين أمامه مرتاباً ، متلصصاً بلحاظ عينه يتأخر فى خطوه بين فينة وأخرى ، ثم وضع يده على مدية يسلخ بها الأرانب كان قد رشقها فى نطاقه بغية الإستعانة بها فى عمله ، وأكثر ما يخشاه أن يستخدمها اليوم فى غرض أخر ، إجتازا ردهة القصر عبر مدخل يموج بنعيق غراب شارد ، حينها تحرى جبرين عن الأغراض القديمة .. فلم يجد شيئ ، وقبل أن يُخامره السؤال بوغت بثلاثة أغراب أخرين بالبهو منشغلون فى همس جانبى ووثائق بينهم يتلاقفونها من يد ليد .

لوى أحدهم شفتيه بإبتسامة باردة " **تفضل جبرين** " ، قالها متعتعاً بلهجة

بدوية تفوح منها رائحة الغدر ، فتحجرت قدميه دائراً ببصره فى أرجاء البهو ، وقبل أن ينكص بعينه همّ الرجل الذى إستقبله بالخارج فطوق ذراعية قبل أن يلتقط المدية ، ثم دفعه أسفل جذعه فسقط جبرين جاثياً إلى الأرض ، وما كاد حتى تكاثر عليه الثلاثة الأخرون فقبضوا على ذراعية وأوثقوهما إلى الخلف .

لم يشعر جبرين حينها إلا بيدٍ جاسية تلف شعره الكث وتزيح رأسه إلى الوراء .. وإذا برجل ممسك بنصل قاطع حاد المضاء يمر أسفل عنقه فيجزَّها من الأمام إلى الخلف قبل أن تتدلى رأسه إلى صدره ، فصرخ جبرين صرخة مدوية .. تلقفتها فرسته الرابضة بالخارج ، فصهلت فازعة ، وإذا بصغير لم يتجاوز العشر يظهر عند باب القصر هاتفاً " **جدى** " ثم يفزع هارباً ! .

حينها نفر أحدهم خلف الصبى ليلحق به ، وما كاد حتى فوجئ بفرسة سوداء تفج إليه فى هياج شديد .. فطرحته إلى الأرض ، مرت عليه عدة مرات حتى دهسته ودقت رأسه ، ثم لحقت بإثنين أخرين كانا قد ناهزا درج يفضى إلى طابق سفلى فدفعتهم حتى إصطدما بالحائط ساقطين إلى درك القصر ، فيما كان الرابع قد فر من باب جانبى يؤدى إلى ساحة خلفية ، فلزمت غرزه ، قفزت إليه من تبة متاخمة للجرف فطعنته بخطامها فى ظهره .. ليسقطا معاً من أعلى إلى بئر كراكاو المرشوق عند درك الجبل ، فإنخسف بهما القاع إلى قرار لا يُدرك ، حينها أفضى الصغير إلى جده الذى كان قد فارق الحياة .. فإلتقط الخاتم من إصبعه ثم فر هارباً ...

(٤)

غير عابئ بهذه الصور المتناوحة التى تتواتر إلى رأسى فى عدو دءوب ، القصر ، الأغراب ، جبرين ، ورأسه الساقطة على صدره .. عدت من سكرتى أقاوم وعياً مكدوداً ، وفى أذنى حفيف أقدام لاهثة ، إنحسر جفنای عن عينين غابت ثم رجعت ، لا أدرى كيف ثاب الوعى بعد كل هذا الوقت ، لم أكن أعرف حينها أنى أمضيت غامياً ليوم وليلة منطرحاً فوق كثيب ساخن ، لم يرق لى يوماً الموت وحدى فى رحب صحراء قاحلة .. من إستكان لوعورتها أكلته الرمال كما تأكل العقارب والهوام ، وذرته الرياح كالرماد ، ولكن يبدو أنى أفر من مصير مُلاقينى ! .

تصاعد الحفيف ممتزجاً برغاء بعير ، فتلفت متسانداً إلى جذعى ، أنافح ألماً حاداً ينخر فى قاع رأسى ، فإذا بظل أسود ينسل من مدق ضيق مُحتفر أسفل التبة ، فإنفرجت عينى فى حجوظ أستجمع هذه الصورة التى تتحرك ، كان الظل فى كل خطوة يدنوها تتضح هيئته لأجد أنه ليس إلا فتاة بأسمال بدوية تركض خلف شياه نفرت من قطيع تسوقه ، تخبطها وتعثرها المكروب كأنها فارة من خطر يلاحقها ، ربما كان ذئباً أو مفترس من ضوارى الصحراء ، أصابتنى الفكرة برعب أسقط قلبى إلى قدمى .

إقتربت الفتاة فبانت ملامحها .. وإذا بى أمام وجه غادة بتمامها ، غرقت عينى فى نصف عينها .. فحملقت غير مصدق علامات الذعر هذه التى أعرفها ، تلوح بأساريرها علائم فرق لا يُفسر .. كرّ بى إلى حين كنا سوياً أنا وغادة فى عرض النيل ، حينها لم أكن أقصد أيٍ مما فعلتُه ، ولا هذا الذعر الذى تحملتْه بسببى ، فقط نزلت عند رغبتها حين أبدت لى أمنيتها أن تمطتى قارباً ، كان كل منا على طرف المركب وقت أن بدأت أمزح مُهَزهِزاً جانبيه ، فبوغتت حين وجدتنى أستغيث بها مترنحاً " **غوثك يا غادة .. سوف أسقط** " ، فصرخت مستنكرة ما أفعل " **كف يدك سوف نغرق ، كفاك جنوناً** " ، وحين عاينت هذا الفرق البادى فى عينها .. نظرتُها فى سخرية " **ما أجبنك !** " ، ثم إنفجرت من حلقى ضحكة مجون فجة ، لم أكن لأجهل هذه الرمقة القلقة وما غاب جفولها عن عينى يوماً .

تابعت الفتاة فى إنتباه جذبنى بغتة من أوحال الغفى ، كانت تركض نحو الجهة الأخرى من التبة ، لكنها ما إن إلتفتت ورأتنى ، حين حاولت أن أستمهِلُها ، حتى صرخت مفتزعة ، ثم فرت تاركة الشياه حتى غابت ، حينها ، وبرجاء الغارق فى طوق نجاة ، لم أملك سوى أن أقتفى أثرها ، ولوقت لا حساب له من التعثر والإنغمار بأكوام الرمال .. ناهزت أخيراً المدق الذى نفرت منه ، حينها كان الجبل ، الذى بدى لى فى السابق كأنه تبة ، قد شب فوقى كمارد يخطو بتؤدة ، لا النسور تساميه ولا السحاب يبلغ أعاليه ، وقفت حائراً بعد أن تاه عنى أثر الفتاه بعدما أن أخذتها الرياح إلى جهة لا أعلمها .. لأسقط فى التيه مرة أخرى .

ربما كان سراباً ، كدت أن أفقد هذه الومضة التى أثارتنى .. لولا أن صوت واهن تردد فى أذنى " **ساعدنى** " ، فإلتفت ، لأجد عجوز هرمة ، أكل الزمن عليها وشرب ، متوشحة بسواد من إخمصها إلى ذؤابتها ، جالسة على حجر فى غور على جانب المدق ، وفى قدميها خلخالين لا يملان عن القعقعة على نحو ملفت .

دنوت منها حذراً ، وفى رأسى كثير عن هذه الضلالات التى تعبث بالمسافرين حين يمرون بصحراء نائية ، ولا أعرف لماذا تعلقت عينى بهذه العصاة البدائية القائمة بين أصابعها النحيلة ، حاولت إستكشاف ملامحها المواراة خلف الوشاح .. فلم تبد لى غير ذقن متعرجة يبرز عنها عدة شعرات بيضاء ، مثل تلك التى تداهم كبار السن فلا يجدون فواقاً لنتفها ، وقبل أن أتمادى ظهر صوتها رخيماً برغم وهنه " **ساعدنى .. خذنى فى طريقك يابنى** " فهزتنى رعشة غريبة .

مددت إليها راحة أصابها إرتجاف مباغت ، وما كدت حتى أمسكت العجوز بمعصمى بأصابع معروقة جاسية ، لم أدرك هذه البشاعة الماكنة فى خلقها إلا حين إرتفع كاهلها على نحو لا يليق بشيخوخة موهنة .. فإنزاح الوشاح عن قبح مخيف ، وجه مومياء ممصوص ، منحوت بغلظة ، صدعته الأخاديد ، وثغر أثرى مهشم يعلوه أنف معقوف وعين ممسوحة لا حدقة فيها .. فانهار جسدى ساقطاً حين حطت بومة نائحة على كتفها ، هى بعينها

تلك التى رأيتها عند رأس البئر .
ظللت أزحف مرتداً ، وهى فى إثرى بخطو عاجز وئيد ، تنبع عنها طقطقة منفرة جعلت أسنانى تصطكا دون إرادة .. بالضبط مثل العدوى التى تصيبك حين تقترب من حيوان يخبخب ، كل رهبة تهون دون خوف هذه اللحظة ، كدت أُقتَل رعباً قبل أن يرتفع عواء ذئب .. فتحجرت العجوز مذعورة ، إضطربت بغتة وإمتقع لونها وطفقت تتلفت حولها على نحو مريب ، وإذا بها ترفع الوشاح ليسقط خلفها فتُنتزع البومة فى تحليق مكروب ، ثم إنتفضت العجوز لتكشف عن عود يافع ، هاربة بوثوب متدارك من صخرة إلى صخرة كأنها كنغر ، وما كادت تبتعد حتى إنتُزعت فى الهواء كأنها بالون إنفلتت سدته ، طاشت من اليمين إلى اليسار ومن أسفل لأعلى حتى إستقرت عند صخرة ناتئة ، ثم تواثبت قبل أن تختفى بغتة مثل الدخن ، فإنتصبت مرتعباَ ، وفيما لمحت ظلال القط البرى يخاتل فأر (شروه) صغير خلف كثيب بالقرب .. إلتقط ذيلى بأسنانى فاراً بجلدى إلى وجهة خايلنى أن الفتاة ربما تكون قد هربت إليها ، خلف الجبل .

كان ركضى حينها أعثر من حبو رضيع يتعلم السير ، تغرق قدمى لأذنها فى أكوام من الرمل تتقاذفنى من كثيب إلى كثيب ، كالحيات تعلو وتهبط .. تُطرحُنى كلما إنتصبت ، أو أتعثر فى حجارة الجبل كأن شيطاناً يلعب بى ، أقوم تارة وأسقط تارة ، ناهيك عن هذا العزيف الذى خايلنى كل فينة بأن ثمة قافلة فى الجوار تمر ، تلك هى الصحراء المسكونة ، كلما سرت فيها خطوة يخال لك أن أحدهم يناديك ، وفى مرات كثيره ستوافيه يهتف لك بإسمك ، كنت أعرف أنه لا شيئ حقيقى هنا ، لكنى لم أكن أعرف أن هذه الهواتف ستثيرنى إلى هذا الحد ، وتتلاقف إنتباهى إلى كل جهة كالمجنون ، تذكرت حينها وقت أن همس لى ألبرت ، قبل أن تسقط المروحية ببرهات ، **" الصحراء سجون الجن " ! .**
لم يستغرقنى الحال كثيراً قبل أن ينحسر المدق عن أرض واطئة كأنها وادٍ مخضر ، أو واحة ترقد أسفل الجبل الثابت فى رسوخ عنيد ، فى البدء لم أر

سوى شواشى نخيل مشرئبة ، ثم بدأت تنهض أمامى غيامة قاتمة ، وحين إقتربت وجدت أنها خيام وبيوت معروشة ، وعلى مسافة عدة مترات كنت قد ناهزت شجرة سدر تنافح حراب الشمس وحدها ، فانكفأت عند سفحها ألتقط أنفاسى ، وإذا بخبخبة تطرق أذنى فلويت عنقى لألمح شياه ترعى فى لُمّة كلأ يابس .. تطوق بئر قائم عند تخوم الواحة ، فحانت منى رمقة إلى أرجاء الواحة فلم أر إلا أخبية وبيوت وبعير ، ولا أثر لبشر ، فراعنى أن تكون الجن هى راعية هذه البعير .. فسابق علمى أن الإبل الحوشية أفضل مراكبها ، كادت الظنون أن تلعب برأسى لكنى بأى حال لم أملك مقاومة حيال هذا الظمأ الذى مزق حلقى .. فهرعت إلى البئر علّى أجد ما أتبلغ به .

حين وصلت إلى البئر بخطو لاهث وجدته موصداً بحجر غليظ ، فنفخت غيظاً ، ولكن قبل أن أحط أثقالى إلى حرفه دارئاً عند ناصيته جملة الخوف الذى مزقنى إنسل إلى سمعى هتاف غليظ " **أقم يدك .. البئر مسكون** " ، فراغ فى صدرى فرق رهيب ، وكففت يدى مبهوتاً ، ثم إلتفت إلى الصوت لأجد حشد مركوم من رجال ونساء بأردية بدوية يهللون فى وجل " **الله أكبر** " ، فشهقت مضطرباً ، كاد المشهد الخاطف أن يُوقف قلبى .. لولا أن صراخاً مضغماً تردد ببطن البئر جعلنى أثب رعباً ، غمرتنى رعشة صادمة ، كدت على إثرها أسقط ، حين رأيت الصوت قد تمخض عن دخن إنداح من البئر إلى الهواء ، متجاوزاً الحجر ، متحولاً إلى خفافيش طائرة ، ثم لا شيئ ، لتباغتنى فى إثرها زمرات من قطط بريّة من نوع (كركاو) .. تآجلت حول البئر حائمة ، يقودها قط فارع أسود بعين ممسوحة ، كأنما قد إستجابت للصوت الراعد ، الصاعد من قاع البئر ! ، ومما عرفته فيما بعد أن وفرة هذا النوع هى سبب تسمية هذه الواحة النائية بـ (واحة كراكاو) .
حينها ، وعندما نكصت للوراء فى جفول .. تصلبت عينى عند منحوتة غريبة محتفرة بصدر البئر لـ (جمجمة يخرج منها ثعبانين) ، فأوغلت فى سحب من الذهول .. رزحت على إثرها إلى الأرض واجماً ، أعاين هذا المصير الذى يتوعدنى وقد بدأ يتجسد أمامى ، غير منتبه لهذه الهمهمات التى

وجدت طريقها حولى .. تتسربل إلى أذنى من كل مكان .

بروح منسحقة ، تعودت كل شيئ ولا عادت تجزع لشيئ ، أو تبحث له عن تفسير .. غمرنى سكون مريب ، صامت برغم ما فيه من ضجة ، قبل أن أرفع عين جمدها الذهول .. فأعاين الشيخ (ياسين الدهمنى) كبير الواحة ، عجوز أهرمه المشيب ، ينسل من أحشاء الحشد منقاداً بين يدىّ صغير متقزم ، إبنه راضى .. صبى لم يتجاوز العشر ، ثم يتوقف فى صدارة الجمع المتكدس .. فلم يعن به أحد ، أنئذٍ ، وبرمقة تصفحت وجوه ناس الواحة فى تره ، إسترعى إلتفاتى تلك التمائم والقلائد الغريبة التى يعلقونها على أذرعتهم ومعاصمهم ورقابهم ، رجال ونساء وحتى الصغار ، أحجيات عجيبة مثل رأس ثعبان أو حافر حمار أو شظفة عظم وأشياء أخرى ، حينها كانت مخايل عربة كارو تجرها فرسة سوداء قد تراءت لعينى بعيداً ، خلف الصفوف ، تشق طريقها إلى الطريق الصاعد إلى الجبل ، إنتهبت إلتفاتى للحظات .

وفيما كنت شارداً ، أتلفت حولى كصغير تاه عن أمه ، إذا برجل ينبرى من بين الناس كأنه حشرة النطاط ، عليش (ذيل الكلب) ، مجذوب فى طور العشرين يتكلف الخبل ويدعى الجنون ، إقترب منى مخترقاً الجمع يجر خلفه حمارة معمرة ، لكنه فى طريقه مال إلى السمادونى (حكّاء الواحة) ، الذى وجده فى لُحمة الحشد متوشحاً بشال مطوى على نحو لا يعتاده البدو ، هامساً فى أذنه " **وتظن بهذا أنى لن أعرفك ؟!** " ، ثم سحب الشال عن رأس الرجل بغلظة ، فإلتقطه السمادونى مغمغماً قبل أن يسقط .. فوارى به وجهه إلا موضع عينيه ..

إستأنف عليش طريقه محدثاً العجائز " **أفسحى الطريق يا بهية الطلعة ، تأخر قليلاً يا أجمل من أنجبت الواحة** " ، ليمر بعجوز رث يقضم كسرة خبز فيوبخه " **يُبليك الله ، مثل بغل الوسية فى ذهابك تأكل وفى إيابك تأكل** " ، إلى أن كان بينه وبينى محض أشبار ، فقال لى مشيراً إلى حمارته " **ألن تلقى السلام إلى مربوحة ؟** " ، فدفعته بنفور متملصاً من رائحة عفنه ، فأمسك بذراعى عنوة ثم مال إلى حمارته " **سلمى على الغريب يا مربوحة ،**

أخبريه كم إنتظرناه " ، فنفرت الحمارة ، فلوى عليش عنقه نحوى هامساً ، بوجـه ينحسر عن لؤم خطـير " **لا تغضب هى فقط تخجل ، تقول لك أهلا بك .. بدونك كانت الواحة تنقصها بهيم** " .

هنا صاح الشيخ ياسين ضائقاً " **خلى سبيلنا يا مخبول ، دعك من الرجل .. لن يتحمل سماجتك** " ، فرمى عليش عصاة بيده بعيداً .. فإصطدمت بدغل النخيل ، ثم ركض ورائها يخجل ويرقص كالبهلوان ، مبغبغاً بهراء غير مفهوم ، وفى إثره حمارته ترتع وترفس .. والصغار خلفهما يتضاحكون فى لهو وعبث ، فحملقت مدهوشاً من سخافة الإستقبال .. قبل أن يقترب الشيخ ياسين ويحط يده على كتفى قائلاً " **تفضل معى** " ، ثم إستدار لتوه غير آبهٍ بى ، مستنداً إلى يد إبنه ، لأكتشف وقتئذٍ أنه كفيف ، إلا أن أكثر ما إستحوذنى ذاك الخاتم الغليظ الذى يُطوق إصبعه ، والطلسم الذى يتوسد فصه ، لم يرهقنى كثيراً لأميز نقشه .. جمجمة وثعبانين ! ، راعنى حينها تلك المضاهاة العجيبة ، شعار دزرائيلى فيلم ، خاتم الطائرة ، نقش البئر ، وأخيراً ذاك الخاتم وفصه الموسوم بالطلسم ذاته .. معلناً على أى شاكلة ستكون الأيام القادمة ! .

إستضافنى الشيخ ياسين داخل خيمة صيفية تتصدر واجهة داره ، المنشأه من حجارة الجبل والرمل المدكوك ، إلى جانبها الأيسر ، بناية بدائية يعلوها قبة مقعية مطمور نصفها فى الأرض كأنها جُحر ضب ، والنصف الأخر مستلقى بين زراعات عشبية مثل أكثر دور الواحة التى تتلاصق فى شبه تراحم وحنو ، جلسنا إلى بساط قطنى مغزول بلا تعقيد أيضاً مثل كافة طنافس الواحة ، حينها كان خادمه سلامة الكلاف ، والذى عرفت فيما بعد أنه حادى جماله وراعى ماشيته ومقتفى الأثر ، قد أوفد راضى سلة تمر ليضعها أمامنا ، بينما هرع هو إلى موقد النار بطرف الخيمة ليجهز إبريق قهوة بدوية ، طفق يقلب الخشب المتفحم أسفل دلاية القهوة بملعقة يستخدمونها لتحميص البن ، هى ذاتها البشعة أو المبشعة .. تلك التى يستخدمها البدو وقت أن يحتكمون إلى النار فى جرم لا يُعرف مقترفه ، إنتظر سلامة حتى طهى القهوة ثم حمل الدلاية إلينا وفى يده الأخرى

فناجين صغيرة ، صب ضيافته ، ثم جلس عند طرف الخيمة ينتظر تلويحة من الشيخ ، تنفر عن رقبته عروق بربرية تنم عن ضجر طول الإنتظار .

لم يسع الشيخ كثيراً من الوقت ليلقى إلىّ حديثاً أحترق لسماعه ، ويتوق لردى عليه ، فقد إصطرع حين سمع بكاء إبنته مريم عند باب البيت ، حينها هتف إليها فى لهفة لكنها لم تسمعه ، فاستحث الرجل خادمة أن يستتبعها ليتحرى أمرها ، فلحق به راضى ، ثم توجه نحوى ليربط على صدرى ، كأنما يستشف من إيقاع أنفاسى المتداركة هذا الفزع الذى كاد أن يذهب بعقلى ، فتمخضت عن إبتسامة باهتة ما أكذبها .

بظهور مريم وراضى أمام الخيمة ، وفى إثرهما سلامة الكلاف ، وما إن وقعت عينى عليها .. ضربتنى قشعريرة خلخلت بدنى ، إستجابت لها هى بإنتفاضة ذعر مباغتة .. قبل أن تُصرعنا بصراخها ، ثم نفورها إلى مربض الغنم ، حينها تحجرت مشدوها جاحظ العين ، هى ذاتها الفتاة التى نفرت عنها الشياه فى البرية .. شبيهة غادة ! ، وما راعنى سوى أنها تحمل إسم وشبه الفتاة التى مات والدها أمام المستودع ! ، لم تكن بحال أفضل منى ، فلقد خال لها لوهلة أنى ذاك الظل المجهول الذى صرعها فى البرية .. فبدد عنها شياهها ، إلى هذا الوقت لم أكن أعرف أن كلينا يرزح فى نفس القيد ، الدائرة ذاتها ، خوف من شيئ لا يُفسر ! .

هب ورائها راضى من فوره ، بينما دنا سلامة من الشيخ ، حين رأى أنه وقف قلقاً لحال إبنته ، فعمد إليه حتى إنتعل حذاءه ، ثم أخذ بيده إلى حيث كانت مريم تنكفئ دوماً كلما داهمها ما يكدر مزاجها ، فلم أملك وقتئذٍ سوى أن ألحق بهما فى ضمت ، وأمام المربض خلى الشيخ سبيلنا مقترباً منها ، فيما ظلت هى دامعة ، ملتصقة بجدار المعلف فى إنكفاء رضيع دون أن تتحرك قيد شبر ، وزيد إرتياعها حين لمحتنى واقفاً عند باب المربض حتى قدح فى جسدها إنتفاض وسخونة عجيبة ، فتواريت عنها حين رأيت أن ظهورى لا يثير سوى فزعها ، وفيما إستخبر الشيخ عن علة إصطراخها هتف سلامة ، الذى كان قد تحول إلى المربض يتحرى كل شبر فيه ليعود ممسكاً بقرنى كبش بالغ " **أغثنا يا شيخ .. لم ينكص من المرعى غير هذا**

الكبش " ، فسأل الشيخ مريم مدهوشاً " **أين الحلال ؟!** " ، ليتلقى الإجابة من سلامة " **لم أصدق حين قالت أن عفريتاً لحق بها فى المرعى ، وإنتهب الحلال كله** " ، آنها صاحت مريم بحديث يهرول على شفتيها " **الشياه كلها نفرت .. زعق فيها العفريت فلم أملك جمع شتاتها** " ! .
إنفلتت من الشيخ ضحكة لافتة مستكثراً جزعها " **هنيئاً مريئاً ، الشياه لم تكن لنا بالأساس .. وديعتهم وإستردوها ، صف لى هذا الكبش يا سلامة** " ، فأجاب " **كبش أكحل فى رقبته تميمة** " ، فقال الشيخ " **تميمة ! ، أعطنى هذه التميمة** " ، فنزعها سلامة عن نحر الكبش ووضعها فى يد الشيخ .. فدسها فى دثرة جلبابه دون حتى أن ينظرها ، ثم دنا من مريم .. فإنتصبت تسنده قبل أن يقع " **فداءاً لكى ألف جمل ، وليس حفنة خراف وماعز .. يتبلغ بهم سلامة دون شربة ماء** " ، فضحك الجميع ، ثم خرج الشيخ متأبطاً ذراعى مريم وراضى ، وخلفهم سلامة ، فيما بقيت أنا مشتت الذهن ، أردد فى نفسى " **وديعتهم وإستردوها !** " ، ولا أدرى آنها كيف سرقنى الوقت ، ففيما خرجت من المربض مسرعاً ، مقتفياً أثرهم .. وجدتهم قد إختفوا ، غير آبهين بكونى حديث العهد بواحتهم المنبوذة ، تلفت حولى .. فإذا بالطريق قد تاه عنى ، فتوقفت حائراً للحظات زثم سرت على غير هدى ، باحثاً عن خيمة الشيخ .

كانت الواحة مثل خريطة تتكرر دروبها ، شرقها كغربها ، فلم أتمكن من العثور على الوجهة التى غابوا إليها ، حينها ، وفيما كنت أذرع مدقاً فاصلاً بين الخيام ، يعلو ويهبط كالثعبان ، تحت أعين مشدوهة وألسنة تتلمظ .. لمحت عند ساحة خاوية بالقرب من جرف الجبل سيارة قديمة ، مرتدمة لنصفها فى الرمال ، فهرعت إليها غير مصدق .. لأجدها ضمن نوع بَطُل إنتاجه منذ الستينيات ، كان الصدأ قد زحف إلى جدرانها مثل جحافل النمل الأحمر حين تداهم ساق شجرة ، وقتئذٍ ، وفيما كان ناس الواحة لُمّة حول ساحة البئر إلتقطت أذنى حديث رجلين عن سامر سُيقام الليلة ، وعبر حديث أخر فهمت أنه سامر إعتاد الناس أن يلتفون فيه كل يوم حول السمادونى ، الحكّاء الشعبى ، فأخذتنى حملقة ، كيف لأناس فى عصرنا لا

يزالون ماكثون على عادات بادت وإنقرضت ، تلفت فإذا ناس الواحة بقضهم وقضيضهم ينزاحون فرادى وجماعات إلى الساحة ، رجال فى أبهى حُلة ، ونساء متدثرات بالسواد ، وصبايا بأسمال ملونة ، أما العجائز فحالهم مثير للعجب ، زاحفين ومحنيين ومتكئين على عصى .. يجسرون الطريق إلى أدنى محط من منصة الحكَّاء .

ويطوق الساحة جانبيها الباعة والسابلة حيث أبسطة التمر وأوعية الثريد وأقراص اللبن والكِشك البدوى ، حتى باعة الأقمشة وخباب الشعر وبسط الوبر والطنافس والنعال والسرج ، وعلى جانب بعيد باعة البهائم ، خراف وماعز وإبل حوشية ، وصقـور وأرانب وغزلان مجلـوبة من البرية ، كرنفـال عجائبى أشبه بأسواق مراكش الحفية ، والكل هنا يتعامل بالمقايضة .

وأثناء ما كنت مستنداً إلى السيارة المثقلة بالصدأ والأتربة ، أراقب المشهد من بعيد ، تطيرت فزعاً حين فوجئت بجمل ضخم يمر أمامى ثم يميل برقبته ويحدق فىّ بعين واحدة واسعة ، ثم يمضى ، ومن خلفه خايلتنى عربة الكارو تركض فى إثر الفرسة السوداء هابطة من الطريق الصاعد للجبل ، عرجت إلى الجهة الأخرى ثم توارت خلف الجرف العظيم ، فتحجرت للحظات فى بلادة ، جحظت جهة الجمل الذى أرعبنى ثم مضى غير آبهٍ ، ثم تسلقت بعينى المدق الوعر الذى يُحزم الجبل كنطاق من السفح إلى القمة حيث القصر الرابض هناك ، كان مشهد العربة من الإثارة أنه كلما رأيته ذكرنى بكابوس ما بعد سقوط المروحية ، حين هوت الفرسة من قمة الجبل آخذة معها واحداً من أربعة ذبحوا صاحبها ، لم يجل بخاطرى آنها أن العربة ما هى إلا طيف وهمى لا يوافي أحداً سواى ، دون أهل الواحة ، برغم أن شيء من هذا القبيل خالجنى فى لحظة أناة ، لكنى لم ألق له بالاً ، تطلعت جهة الجبل مبهـوتاً بجرفـه الهائل ، شديد التحـدر ، ذاك الذى يختزن بداخله كل ما حدث ، لعله يأتى يوم ويبوح .. ولكن هل رأيت يوماً جبلاً يتكلم ؟! ..

وبينما كان الشرود قد طاح بى إلى لجج تفوق فى شطوحها قمة كراكاو .. إذا

بى ألمح شيئاً ناهضاً فى كنف القميص ، جعلنى أضحك آسياً ، فحين تحسست الجيب تمخض عن علبة سجائر ، فغمرتنى نوبة هزء مُبكية للرحلة التى بادت ولم يتبق منها إلا أنا ، وعلبة سجائر نفحنيها ألبرت بالرغم أنى لم أكن يوماً مدخناً ، فرميتها ضائقاً كمن يُلقى بحجر فى نهر ، حينها فقط تذكرت شيئاً أخر ربما قد أبقته هذه السفرة المشئومة ، الهاتف الخلوى ، ذاك الذى أعطانيه أيضاً ألبرت ونحن بالطائرة ، كان فى حجم جهاز لاسلكى كبير ، وأوصانى حنيها ألا أتركه مهما حدث .. فدفنته فى جيب البنطال كفردة حذاء مهملة ، فإلى ذلك الوقت لم أكـن قد إقتنيت شيئاً من هذه الأجهـزة الخلوية الحديثة ، والتى لم يكن قد وافاها هـذا التطور الذى يحيلـها إلى أقـزام يسعها جيب قميص أو راحة يد ، كما حدث فيما بعد .

بروح من فقد إبرة فى فلاة ، دسست يدى عبثاً فى جيب البنطال متحرياً عن الهاتف ، وكلى يقين أنى لن أعثر عليه بحال ، فإذا بى أجده مطموراً ولكن دون هوائى ، فإنتشلته مكروباً أزيل ما علق به ، ثم طفقت أكبس أزراره كما علمنى ألبرت لأطمئن من سلامته ، وبرغم أن شاشته التى لا تتعدى بوصة ونصف نبضت بضوء خافت ، وبضع عبارات منسدلة تشير إلى أنه لازال يعمل .. إلا أنى لم أكن موقن أن جهاز الإستقبال لم يصبه تلف ، وأن بإمكانه إلتقاط إشارة فى هذا الموقع النائى ، ولكن كان على بالأخير أن أحاول ، فكبست أحد أرقام الطوارئ التى أتذكرها ثم أقمت مسماعه إلى أذنى ، علّه يأتينى بصوت يوقظ هذا الأمل الذى لقى حتفه على أعتاب الواحة ، لكن إستجابته تأخرت ، فدعوت متوسلاً ، إلا أن الهاتف لم يلتقط سوى تشويشاً وأصوات متداخلة ممزوجة بصفير ، حاولت عدة مرات دون جدوى .. ليس إلا صمتاً وصفيراً ، لا أتلقى شيئاً ولا صوتى يصل للطرف الأخر ، فرميت الهاتف فى ضجر كحجر غليظ معدوم الفائدة ، أو طوق نجاة ثُقب ، ففقد صلاحيته ، فساخ فى الرمل مخلفاً ضوءاً خافتاً يتردد .

فى كل رمقة إلى السامر والواحة كنت أدرك خطورة ورطتى ، أستوثق من فرصى التى تبددت جملة واحدة ، الأمر الذى حدانى قسراً أن أنحنى إلى الهاتف مُرجئاً هذا الإستياء لوقت أخر ، كبست أزراره عدة مرات ، مغمغماً

" **أفق من سكرتك ، إنظر هذا الوحل التى إغترقنا فيه** " ، وإذا به أخيراً يُقلقل أذنى بصوت خافت وإن لم يكن واضحاً ، بدأ بتشويش ثم ذبذبات ثم حروف آلية متقطعة .

تحركت بضع خطوات أستشرف مكاناً مكشوفاً .. يتسنى للهاتف خلاله أن يلتقط شيئاً مُفسراً ، وإن كانت الواحة كلها تلتحف بجبل راسخ يدرأ عنها أى إشارة قد يحملها الأثير ، حاولت مرة أخرى فتلقيت بضع عبارات منثورة ، ما كادت حتى تحولت إلى رعيد قاتم ، شديد الوضوح ، زحف إلى أذنى كحية راصدة ، مردداً " **عد إلى ديارك ، هذه الأرض مسكونة** " ، فنكصت مرتعباً ، وأخذتنى رجفة مباغتة أفلتت الهاتف عن يدى ، فسقط ، وما كاد حتى طرق سمعى تشويش ضاج قبل أن ينبض مذياع السيارة المدفونة بصـوت منهك .. إنقذف مثل قنبلة ألقت بأصدائها إلى قاع رأسى " **عد إلى ديارك ، هذه الأرض مسكونة ، ملعون من فيها ، ما وفدها غريب إلى إبتلعته ، سيأكلك ثراها كما أكل كثيرين قبلك ، ومن قبلكم جبرين الدقاق** " .

وإذا بهذا الرعيد ينداح عبر الأثير إلى البرية البعيدة ، دار حول جبل كراكاو ثم إنحدر إلى الصحراء قاطعاً شسعها المجدب ، ماراً بشعابها ووهادها ، ووديان نائية يرتعب فيها الجن ، وعجوز فى الخلاء بينها وبين الردى محض خطوات .. تطهو خبز منفوش على نار وقصعة مقلوبة ، ليعود الصوت فيطن فى رأسى مؤكداً أن الأثير ما تجشم حملها إلا لى ، فسرت فى جسدى قشعريرة حادة ، إصطكت لأثرها دفاف صدرى .. فخايلنى كأن الجبل يهتز ، وما كاد الأصداء المرتدة عن جرم الجبل أن تلتئم تارة أخرى ، حتى رددت " **ومن قبلكم غارت بجبرين الدقاق** " ، بشكل مكرور ، فإنساحت عن السماء سحائب مظلمـة .. لتغوص الواحة فى ليل فاحم كأنها بحر أسود ثقيل ! .

وفيما أظلم كل شيئ .. إذا بالأرض تميد أسفل منى ، ثم تعلو مثل جزيرة .. فتحملنى أنا والسيارة إلى إرتفاع طابقين ونصف ، كأن زاحف عملاق يتقلب تحت ترابها ، لأجد الواحة بالأسفل قد تكشفت أرجائها من أقصى إلى أقصى ، كأنما تسكنها قبائل غير منظورة .. ترمقنى من الغور عيون بارقة

مصفرة مثل عفاريت الظلام ، يطن فى ربوعها صوت واحد " **ستأكلك أرضها كما أكلت كثيرين قبلك ، ومن قبلكم جبرين الدقاق** " ، والرجيع يجوب ويشق الجبل فى شبه دوامة دائرة .. ثم يعود لينقذف إلى أذنى مجوفاً كما هو .

حينها إرتجت السيارة ، وطرق أذنى إصطفاق نوافذها ، فتحولت إليها فى ذعر .. فإذا هى تهدر ، مثل جاروش يطحن كيزان ذرة ، دارت إطاراتها المنهكة إلى الخلف ، ثم عرجت بمقدمتها فأصبحت أمامى مباشرة ، لتنثر ذيلاً من الغبارخلهفا مندفعة نحوى .. فى طريقها إلى السقوط ، فإستدرت واثباً ، إلا أنى تعثرت منكفئاً على وجهى ، وفيما أقمت رأسى مفزوعاً .. إذا بأضويتها الباهرة تضج فى حدقتىّ ، يسبقها دوىّ بوق غليظ أعياه الإستهلاك ، فجثوت غامضاً عينى ، راكناً راحتىّ إلى أذنى .

(٥)

" **يارجل ، يارجل ، قم يا أخى** " كان صوت سلامة الكلاف ، تنبه الشيخ لغياب ضيفه فأطلق خادمه ليبحث عنه .. فوجدنى ساقطاً بالساحة تفصلنى عن داره بضع خطوات ، وعن البئر قيد البصر ، للحظة قبل أن يمد لى سلامة يده فأقوم معه تجمعت فى رأسى عدة صور ، ألبرت ، الواحة المجهولة ، البئر ، الصوت ، جبرين الدقاق ، مريم .. وأشياء أخرى ، للساعة لم تكن الأفكار قد إختمرت ، إنما هى الريبة التى إعتملت فأشعرتنى بأن ثمة شيئ غريب فى الأمر ، ربما تأخر السؤال ، لكنه لم يخطر ببالى كما لا يخطر ببال أحد أن ثمة أمور كهذه تحدث ، هى أشياء إعتدنا أن نُطعم بها الحكايا التى نستهلكها فى جلسات الإثارة بين الرفقة والأصحاب ، لم أكن أعلم أن ما تجمع فى رأسى من صور محض شذرات لكابوس موحش لم أعش تفاصيله بعد ، هى فقط كانت بداية ! .

بعين منهكة لمحت مريم على بعد خطوات تنظرنى فى توجس وخوف ، لازالت تخشى الإقتراب ولديها أسبابها الوجيهة ، ولكن ماذا عن أسبابى ؟ ، ألست فى حِل من هذا الإقتراب وفى رأسى لها مئات الصور المخذية ، وقف ذيل الكلب خلفها يربت على كتفها ، كان الرجل يحدجنى بنظرات مقت غريبة ، دفعنى سلامة برفق نحو السامر ، حيث كان السمادونى فى صدر جمهرة من ناس الواحة ، يجلس على جذع نخلة مبتور إلى جوار البئر ، وعلى فخذه الأيسر تتوسد حرباء مخططة فى سكينة ودعة ، يقص إحدى حكاياه " **شرع يبكى ، فسمعه سليمان ينوح ويتوسل إليه على الملأ أن يُقرئه لغة شاة ، أو قط من القطط ، فنظره سليمان بقوة وقال له : وإن عدت تصرخ وتتوسل ، فقال الرجل : لا والله لن أفعلها ، فعلمه سليمان لغة القطط ، وكان ما كان ، فبينما كان الرجل مضجعاً فى صحن داره إذ سمع قطاً يتضور جوعاً ، يهمس له قط يرافقه : غداً يموت جمل الرجل ويلقيه للضباع ونأكل حتى ننتفخ ، فأخذ الرجل بقياد الجمل لساعته وباعه فى السوق ، وفى يوم مثله سمع القط يسر لصاحبه المتضور : إصطبر ، لديه خروفاً سيموت وستملأ هذه البطن التى تئط لحماً طرياً ، فصحى الرجل من باكر وباع**

الخروف ، فعاد القط فى يوم أخر يصرخ بوجه صاحبه الجائع : كفاك مواءاً صرعتنى ، عند الرجل ديكاً رومياً غداً سيموت وتأكل من لحمه حتى تنام ، فسمعهما الرجل فقام لتوه وباع الديك ، مرت أيام عدة والرجل يترقب حديث قطط الدار ، حتى سمعها تقول فى غداة مشرقة : إصطبر سنأكل من لحم صاحب الدار ، فغداً سيموت ، فصرخ الرجل وبكى حتى صار نواحه عويلاً مفجعاً ، فسمعه سليمان ، فقال : ما بك ، فحكى الرجل ما كان من القطط ، فنظره سليمان فى أسى : فداك الله بالجمل فبعته ، وفداك بالخروف وبعته ، وفداك بالديك وبعته ، لا تبك .. فأنت ميت لا محالة ، فأطرق الرجـــ ... " ، وهنا سكت السمادونى بغتة بعد أن ألقى بناظره إلى هذا القادم من بعيد ، تجهم مغمغماً **" أستغفر الله العظيم ، وها هو غراب البين جاء ليفسد لُمتنا "** ، وإذا بالشيخ ياسين يضج عند جانب السامر مستنداً إلى يد راضى **" يا ناس ، البئر مسكون .. والسامر ملعون "** .

فى عصبية ، دس السمادونى الحرباء فى جيبه متمتماً **" حسبى الله ، يا رب .. أعطنى الصبر لأتحمل هذه السحنات الكدرة "** ، دار الشيخ بين الناس ينهرهم غاضباً **" يا ناس ، بئر أبا الحديد مسكون .. والسامر ملعون ، كفاكم خبل ونوم ، كفوا أولادكم قبل أن تتلبسهم الشياطين ، بعهد الله إنى لأرى الجنان والمتشيطنة بين أرجلهم يعبثون "** ، حينها عرجت بعينى صوب الصغار .. فإذا بأسراب سود من قطط كركاو تحوم كالدخن بين أقدام رجال الواحة ونسائهم ، وتكثر بين الصغار .

لم يعبأ الناس بتحذرات الشيخ ، فقد سئموا نداءاته وحفظوها عن ظهر قلب .. حتى أضحت مزحة مُطربة تنفح سامرهم مذاقاً خاصاً ، وبات الشيخ نفسه أضحوكة العامة والجُهال ، فيما نظر إليه السمادونى هازئاً ، مُتلمظاً لكفاف بصره **" دعنا وخبلنا ياشيخ ، وتنّظر طريقك ، لست حِمل عثرة فسقطة "** ، فضربت الناس نوبة ضحك وقحة ، وإلتقم السمادونى مُضغة مخدرة يلوكها ، بينما طفق ذيل الكلب يتمايل بخطو عاجز ، هازئاً **" يا ناس ، بئر أبا الحديد مملوء ، والسامر متخوم ، كفاكم غباً وولوغ ، يا ناس بئر أبا الحديد منفوخ ... "** ، دائراً حول الناس واحداً واحداً ، يُقمص ويرتع على نحو يثير الضحك ، وأرسل حمارته بعيداً فعادت راكضة ترفس

كل من يعرقل مسيرها ، حتى أنها أطاحت فى طريقها بقط برى ينبح كأنه كلب .. كان منهمكاً فى نهش أمعاء غراب بالغ .
وقتئذٍ إندفعت مريم تلكز الضاحكين ، صارخة " **علام تضحكون ، بربى لو كان بينكم رجلاً تنبض فى عروقه كرامة لقطع لسان وجه البومة هذا قبل أن يخوض فى شيخكم ، بئس الناس أنتم** " ، ثم قبضت على يد أبيها تشده برفق " **هلم يا أبى ، من ليس فيه خير فتركه خير** " ، فإستمهلها الشيخ بضغطة من يده " **عيب يامريم .. يظلون أهلك بالنهاية** " ، ثم توجه صوب دجال الواحة " **أما أنت .. فمُساجلتُك لهو الخسران بعينه ، فلا تعقل مع من نُزِع العقل** " ، ثم واصل تحذيراته " **يا ناس بئر أبا الحديد مسكون ، والسامر ملعون .. كفاكم خبل ونوم** " ، فنزعت مريم يدها عن راحته غاضبة ، ثم رحلت مُدبدبة فى خذى ، تجر أذيال الخيبة كأنما تعاقب نفسها على خطيئة لم تقترفها ، وحدها أدركت مبكراً أن الفقيه بالواحة كالكاهن ، والدرويش كالساحر ، والحكيم كالعراف ، والناس حيال هذا العبث لا يعبئون بالشيخ المخرف ، ولا برعونة إبنته ، إلتفتوا إلى السمادونى الذى إستطرد من فوره " **بقدر قوته لم يتحمل ، دعا سليمان ربه أن يمنحه القوة ليتحمل سحناتهم البشعة ، وكان الخاتم هو الحل ، خاتم سليمان** .... " .

كنت أباشر مريم وهى تمط خطوها نحو البيت ، هى ذاتها إنفعالات غادة حين تصطدم بما يُكدرها ، غضباتها كانت مُضحكة بقدر ما فيها من سخط ، أنذاك كان ذيل الكلب يعد رمقاتى نحو مريم بحقد عجيب ، ينظرنى ملياً حتى بدت سريرته على نحو فاضح لما يُكنه نحو الفتاه ، كانت تُسعره تلك الرغبة الجارفة التى تنبت داخل كل ذكر حين يرى أنثى تتهادى برهف ، وفيما وقف محملقاً ، تقلبه نظرات مخدورة تارة ، وغيظاً عميقاً تارة .. ما قطع رمقاته الوغيرة نحوى سوى إفتزاعه فى وجه الصغار حين تعاضدت ثلة منهم وفتئت تخمشه ، وتنزع عنه أحجياته الغريبة وثيابه المهلهلة ، فأخذتنى لهنيهة الجلبة الدائرة حوله ، حينها كان الصغار قد جذبوا حقيبة يجرها بين رجليه ، فصرخ " **دعها يا وجه القرد أنت ، هى لى يا أنسال العفاريت** " ، وفى رمقة حانت منى فى وقتها إلتقطت عينى ذلك الشيئ

المسحول بين قدميه ، خال لى أنها خرقة مُطواه .. قبل أن ألمح هذه الشِية الموسومة على ظهرها ، كأنما شُبه لى ، لكنى حين حدقت ملياً تطير عقلى ، لم أملك زمامى فوثبت إليه وإنتزعت الحقيبة من بين قدميه كمن ينزع قطعة لحم من فم كلب ، فإنكفأ على ظهره ! ، الأمر الذى أثار إنتباه الناس فظنوا أنى أعابث الرجل .

هى بعينها حقيبة ألبرت ، تأكد حدسى حين رأيت النقش الموسوم على ظهرها ، على نحو لا إختلاط فيه ، (جمجمة يخرج منها ثعبانين) تُذيلها عبارة (**Desraeli Film**) ، حينها ودون مقدمات إشتعل وجهى بِشراً فضحكت كالمعتوه ، ثم طفقت أقلب الحقيبة على أوجهها غير مصدق ، وإذا بذيل الكلب يقف فى سعار عجيب ، ترجل نحوى مستشاطاً ثم دفعنى فى كتفى حتى إنطرحت ، مغمغماً " **بهيم** " ، ثم ركض خلف الصغار تخلفه حمارته .

آنها ، إسترعى ما حدث إلتفات مريم فقطعت طريقها أمام باب البيت ، مستغربة ، حانت منى نظرة جاءت مصادفة ، فعاينت لوحة هامتها وإلتماع عينها .. رأيت فيهما غادة حين يوافيها ما يجعلها تشده عجباً ، وإذا بأصابع صغيرة تتعلق بيدى راقدة فى صحنها .. لتجرنى برفق مُيممة شطر بيت الشيخ ، نظرت فإذا هو راضى ، برأس مخدورة وعين منوَّمة ، لا تبرح تلك العبارة المحتفرة على ظهر الحقيبة ، تحركت جهة الدار التى بدت فى هذه اللحظة كأنها قبر ، شيئاً ما فى هذا القزم إنتزعنى إليه ، ففيه ، فضلاً عن براءة الصغار ، ما يجعل الفرد يذعن له فى دعة تامة مهما كانت الرأس مزحومة .

لم تكد مريم ترانى أتحرك برفقة راضى حتى توقفت ، ثم توارت عند طرف الخيمة لتراقب عن كثب ، لزمت غرزنا خطوة بخطوة متلصصة من فرجات القماش ، حينها كف ذيل الكلب بدوره عن لهوه بين الصغار وطفق يتابعها بنظرات لا تخلو من عجب وغيرة ، كنت أباشر تحركاتهما المريبة بلحاظ عينى ، ولا أكثر من الأسئلة التى بدأت تنطرح حول مريم وذيل الكلب والسمادونى وغيرهم ، آنئذٍ ، ودون إرادة ، بدأت الواحة بغـرائبها تطفو إلى قشرة رأسى ، تتجاذبنى رغبة فى الخلاص ، وأخرى تربو

لمعرفة حقيقة هذه الأرض ، والأسرار الخافية وراء كل دار فيها .

أزاح الصبى بقدمه ذلك القط المقيت عن باب الدار ، ذاك الذى لا يفتأ يحوم حولها كأن أهلها ضيوف عليه ، فنظرنى القط شذراً قبل أن يُدخلنى الصبى برفق إلى صحن الدار ، ثم إلى غرفة الأضياف ، حينها لم أملك صبراً ، ففيما ذهب راضى ليجلب إبريق قهوة دون أن ينبس بكلمة .. طرحت الحقيبة أمامى ورحت أقلبها ، كانت موصدة بخاتم من الشمع ، فضضت الخاتم ثم حركت المغاليق ، وأفرجت مصاريع الحقيبة وأوثقتها على إتساعها ، وما هى سوى رمقة إلى بطاقة سفر كانت مودعة بأحد جيوبها حتى تأكدت أنها تعود لألبرت ، قلبتها رأساً على عقب ، فكان أول ما وجدت مخطوطة من الجلد الرقيق غمرت رأسى بسيل جارف من هواجس حارفة ، وثيقة منسوخة كُتبت بآرامية وعبرية قديمة ، منقوش عند حشيتها اليمنى رسم لجمجمة وثعبانين ، وكلمة (البئر) بعربية خالصة مكتوبة بالأسفل بخط اليد ! ..

تحريت عن أشياء أخرى فوجدت دفتراً مغلفا بإتقان ، له ظهر حديدى ، مخطوط باليد بالعربية والعبرية وعلى غلافه الإسم (**Albert Desraeli**) ، بالإنجليزية ، بدى أنها مذكرات تعود للمخرج ، وبضع مراسلات أخرى مكتوبة باللغات ذاتها ، ودون ذلك لم أجد سوى نسخة قديمة من الكتاب المقدس ، وبعض الأدوات المساحية ، وبوصلة دقيقة تبدو قديمة شيء ما ، لها رأس لامع لمقياس الزوايا ، بالإضافة إلى تلك العوينات التى صرعنى ألبرت بعدساتها السميكة لأكثر من خمسة أيام ، وقت التحضير لفيلمه العبثى .

حين أتى راضى بضيافته كانت رأسى قد شطحت بأفكار لا راد لها ، فبعض المراسلات والملاحظات بدفتر ألبرت لم تأت بشيئ ذا معنى ، كانت تتحدث عن بعثة أتت لأرض الواحة لأجل مهمة سرية ، كان المستكشف (هارولد إسحق دزرائيلى) أحد أعضائها ، ودون ذلك لم ترد سوى نتف من ملاحظات غريبة أتت على هذا المنوال ..

* الخطاب رقم (V) بتاريخ ٢٠ تشرى ١٩٦١ م ، المرسل بواسطة هارولد

دزرائيلى خبير الأثار ، يُفيد بأن المجموعة تمكنت من العثور على برية الآباء ببحر الرمال فى صحراء أرض السواد ..
* **" عثر أولادنا فى برية بحر الرمال على جنيزة الآباء "** ، نص جاء ضمن الخطاب رقم (VI) بتاريخ ٣ شباط ١٩٦١ م ، على نحو فاجأ العصبة بإقتراب المهمة ، أكثر الظن أنه أرسل بواسطة يجال دزرائيلى ..
* واكب النص السابق نص الخطاب رقم (VII) المرسل بتاريخ ٢٧ آيار ١٩٦١ م من قبل روبين دزرائيلى ، والذى يُفيد أيضاً بعثور المجموعة على الجنيزة أو جرنة الآباء ..

كانت الملاحظات تتحدث عن المهمة التى جرت على أرض الواحة بنحو قُصد طلسمته ، بالكاد إستطعت فهم بعض الملابسات ، فى إجمالها لا تؤدى إلى شيئ ، فقط ثمة أربعة أفراد جاءوا إلى الواحة خلال العام ١٩٦١م .. بغية البحث عن شيئ ما تقول الملاحظات أنه (الجنيزة أو الجرنة) ، وهى تعنى المقبرة فى العبرية الدارجة ، وبوضع هارولد كخبير أثار قد تكون مقبرة أثرية .. غير أن لفظتى (الجنيزة أو الجرنة) لا يُطلقان إلا على الدفائن اليهودية ، إذن هى مقبرة يهودية ، ولكن بمصر !! ، وهل جاء المخرج ألبرت أيضاً لإستكشاف مقبرة يهودية بتلك البرية النائية ؟! .
شعرت أن تلك الملاحظات لا تلتئم معاً لتعطى إجابة شافية .. غير أن ما توثقت منه أن ألبرت دزرائيلى كان من نفس عائلة الأربعة الذين قدموا إلى الواحة يوماً ما ، وأغلب الظن أن ثلاثة منهم هم (هارولد ، ويجال ، وروبين) دزرائيلى .. حسب ما تقول الملاحظات ، وإستحوذتنى لفظة (رابى) التى تسبق الإسم (إسحق دزرائيلى) ، وتعنى الحاخام ، وهو الرجل الرابع ضمن البعثة المذكورة .

فيما كانت أكثر الصياغات ملغزة إلى حد غريب كما سلف ، أعلنت بعض الوثائق والمراسلات عن مضامين هامة ، بدأت الأحداث تتراص إلى جوار بعضها البعض ، فهمت أخيراً اللعبة التى تورطت فى حبائلها ، عرفت أن رحلة الفيلم لم تكن إلا وهماً ، وأن ألبرت لم يقطع هذه المسافة لتصوير صحرائنا الكبرى كما أخبرنى ، وإنما لأجل إستكشاف هذه الأرض النائية ، واحة كراكاو ، أو بالأحرى للبحث عنها ، أزاحت المذكرات وخطابات

المراسلة الستار عن أربعة من عائلة المخرج ، عائلة دزرائيلى ، كانوا قد أتوا إلى الواحة قبل ثلاثين عاما فى مهمة خاصة ، تحديداً فى العام ١٩٦١ م ، لأجل كنز مدفـون بأرضها ، ولأجل هذا الكنز ذبحـوا مكارياً فقيراً يدعى (جـبرين الدقاق) ، ذاك الذى عاينت واقعـة ذبحـه حـين غبت عن الوعى بعد سقـوط الطائرة ، والذى طن مذياع السيارة المدفونة بإسمه حتى كاد يُصرعنى .

ولكن يظل السؤال .. من هو (جبرين الدقاق) هذا ؟ ، ولماذا قتلوه ؟ ، وما علاقته بالأساس بالكنز المزعوم ؟ ، والسؤال الأهم ، ما صلتى أنا بهذا كله حتى يتحرى عنى ألبرت ، ثم يحاصرنى ، ثم يُجرجرنى عبر بحر وصحراء مجدبة دون إشعار مسبق .. ليسكبنى سكباً إلى أرض غريبة لم أجد فيها سوى الوحشة ، وعزلة إستغرقتنى لأقصى عمق ، لا أعرف كم تفصلنى عن ديارى ، لأبقى وحيداً بين أناس لا أعرف عنهم شيئاً ، نازعاً كل فرص نجاتى بسقوط طائرته المنكوبة ، ثم إختفائها بمن عليها ؟! .

شردت للحظات شعرت خلالها أن رأسى ستنفجر ، الدائرة تتسع ، والأسئلة تجر فى أذيالها إجابات صماء ، لكنى تيقنت أن ثمة أسرار أخرى لم تتكشف بعد ، نظرت نحو راضى حين جذب ساعدى مُشيراً إلىّ بأن قهوتى قد بردت ، كان يرمقنى فى شده الصغار المعتاد حين ينظرون ، وقبل أن أستخبر منه عن بعض الأشياء حول ناس الواحة مستغلاً تلك الفرصة التى جمعتنى به منفردين .. داهمتنا طرقات الباب ، فنهض راضى ليفتح ، فهست لى نفسى .. لابد أنه الشيخ ، أتى بوقته .

كان على أن أسأله دون مواربة عن أشياء كثيرة ، كان لابد أن أفهم هذه الطريق التى إنسقت إليها كالبهيم ، ما قصة هذه الواحة ؟ ، وما علاقتها باليهود الأربعة ؟ ، عقدت العزم أن أسأله عن جبرين الدقاق .. هذا الذى تبدأ من عنده خيوط الحكاية برمتها ، أو هكذا خال لى .

ما إن أفرج راضى ضلفة الباب حتى صُد برجل ثلاثينى ، بوغت به واقفاً فى وجهه ، يحمل فى يده يربوعاً صغيراً ، فأفسح له الطريق ، وحين ولج به إلى غرفة الأضياف قُض مجلسى لفرط دمامة الرجل ، ولهذا الشيئ الذى يحمله

، كانت مخايله منفرة إلى حد لا يُطاق ، بشرة زنجية تغزوها البثور ، ينتؤ عنها أنف بربرية غليظة ، يعلوها عين ممسوحة والأخرى زرقاء ، وقرطين حول الوجنتين يتأرجحان مثل بندول ، تصفحت وجه الرجل فى إستنفار ، لولا يقينى بأن (جبرين الدقاق) قد ذُبح لساورنى الظن بأنه هو ! .

دون حديث ، فقط بإبتسامة مستفزة ما زادته إلا سماجة ، ضجع الرجل إلى حشية من القش تناظرنى مباشرة ثم إعتدل ، تاركاً اليربوع يحبو من كتفه الأيمن إلى كتفه الأيسر ، وفيما عرج الرجل بعينه المسيحة إلى راضى **" أين ضيافتك يا شيخ العرب "** ، وقف الصبى دون أن ينبس بكلمة ، ثم خرج كدمية ، لا أدرى لماذا جال بخلدى حينها أنه للحظة لم أسمع للفتى صوت ، هو لم يجر معى حديثاً بالأساس .. فقط محض إيماءات وإشارات ، فقلت لنفسى ربما كان أبكماً ، وعزز قصر قامته هذا الشعور .

عاد الرجل إلى ضجعته ثم طفق يرمينى بنظرات غامضة حتى حِدت بعينى عن مرماه حرجاً ، غارقاً فى الوثائق المفردة بين يدى ، هنيهة ، ودخل راضى يحمل سلة بها تمر ومقبلات ثم وضعها أمامه ، فرفع الرجل السلة بين فخذيه بفجاجة .. ثم انقض عليها كأنه لم يلُك طعاماً منذ سنوات ، ظل يلقم التمر فى فمه أربعة أربعة ، بشراهة مفرطة ، ثم يخرجها نوى عارية من دثرتها ، دون أن ينسى حظ يربوعه ، حتى أتى على التمر حبة حبة ، ليمتلئ الوعاء بكومة من النوى بدت فى صحنه مثل تبة صغيرة ، كنت أرقبه مستنكراً غرابة مسلكه ، إلا أن الدماء تصعدت إلى رأسى حرجاً للمرة الثانية ، حين إسترعتنى نظرات الرجل الطويلة ، فإنكببت إلى دفتر ألبرت أقرأ فى صمت **" جبرين الدقاق ، رجل يخطو بين الثلاثين والأربعين ، رفيع ، طويل كالرمح ، أفحج ، عريض الصدر والنحر ، زنجى بثر الوجه رائحته زنخة كأنه رائحة الدهن إذا تغير ، يعلق فى شحمتى أذنه قرطين ، إحدى عينيه ممسوحة والأخرى زرقاء "** ..

هنا شعرت برعشة تسرى فى جسدى ، العبارات كأنها تصف الرجل بدقة ، وقتئذٍ ، لم أكن أتذكر من ملامح جبرين سوى نتف باقيه عن كابوس مذبذب أتانى بين الوعى والغفى ، وفيما أقمت رأسى إلى الرجل أنظره بعين

جاحظة .. إتسعت حدقتيه هو الأخر محملقاً فى وجهى بأجفان ثابتة لا تختلج ، ثم ألقى اليربوع إلى الأرض ، قبل أن يدهسه بقدمه ، مُفرجاً فاه عن حلق عريض يكركر كالضباع ، وإذا بغراب فاحم يرف خلف منكبيه كأنما برز من قفاه ، ضرب بجناحيه على ألواحه ثم علا إلى رأسه حائماً حولها ، ينعق بصوت منكور ، فنظرت إلى راضى كأنما أسأله بعين مرهوبة " **هل ترى ما أرى ؟!** " .. لكن الصبى لا يبدى حراكاً ، متحجراً كأنه صنم ، يحملق إلى نقطة بالجدار كالنائم ، وما كدت ألتفت إلى الرجل حتى مالت رأسه إلى كتفه الأيسر كأن قدماً تضغطها .. فإهترأت شرايين عنقه ، مثل أنابيب مطاطية تتمزع تباعاً ، لتسقط رأسه إلى سلة التمر قبل أن تبغ أوردتها الممزقة الدم فى وجوهنا ، فإستحال كل شيء إلى أحمر قانى ! ..

وعلى حين غرة ، شد الرجل منزوع الرأس قامته واقفاً كالرمح ، فى حركة آلية ، دون أن يستند إلى راحة أو فخذ ، وما لبث حتى راح يدور حول نفسه بسرعة خاطفة ، محدثاً دوامة هائلة ثرثرت أثاث الغرفة ، كأنما ريح عاتية عصفت بغتة .. حتى ما عاد يرُى له أثر من شدة دورانها ، ألصقتنى موجاتها المرتدة إلى الجدار بعنف .. فيما تعلق راضى إلى جوارى ، لننكفأ سوياً على وجوهنا .. ساقطين كعودىّ قش يبستهما شمس الخريف ، وإذا بالدوامة تنحسر إلى أسفل .. ليظهر الرجل مومئاً ببنانه فيما يشبه ربع دائرة ، فمادت الأرض ! ، الأمر الذى جعل غرفة الأضياف تميل بزاوية قطرية كأنما إستجابت لحركة إصبعه ، لأجد نفسى أنحدر عنوة إلى جرف عميق .. حتى ارتطمت بركام وحجارة متكسرة .

لا يمكن وصف رعب هذه اللحظة بحال .. سوى أن الخوف ذاته يفقد تأثيره إذا ما وضع وجهاً لوجه حيالها ، إعتدلت فى ألم شديد ، تلفت حولى فإذا أنا فى غرفة الأضياف التى تشرذم أثاثها ، وإنهدم جدارها المطل على البئر .. ولا أثر للرجل ، ذاهلاً ، ألقيت بناظرى إلى الخارج حيث هرج السامر وضغضغة الناس ، لازال الشيخ ينعق بصوت جهور " **كفاكم خبل ونوم ، البئر مسكون والسامر ملعون ، كفوا أولادكم قبل أن تتلبسهم الشياطين** " ، فيما لا تزال المتشيطنة تسعى بين أرجل الصغار متدثرة فى

أشكال قطط كاراكاو ، وإذا بصراخ مريم يضج عند زاوية السامر " **غوثك يا أبتى ، لقد نزح راضى وراء الجبل مرة أخرى** " ، حينها فقط تذكرته ، وفيما عرجت إلى جوارى باحثاً عن الصبى ، فلم أجده ، إذا بغرفة الأضياف صحيحة كما هى ، لا جدار منهدم ولا أثاث مبعثر ! ، حينها جمدنى الذهول للحظات قبل أن أتساند إلى ما بقى من ألواحى ، ثم أنكص بعينى إلى الخارج ، لازال الشيخ يهتف غير آبهٍ بصراخ إبنته فيما لاح راضى بعيداً وهو ينتهب الطريق نحو الصحراء المفتوحة ،كان كدمية تتحرك دون أن يلتفت .

لا يمضى الزمن دوماً كما نود ، مرت عدة أيام على ما جرى بهذا النهار .. ولا شيئ فى رأسى سوى هذه الوقائع الغريبة ، الساعات هنا تمر بطيئة مقفرة ، ويزيدها الفراغ وحشة ، كأن الوقت إستمد من الصحراء سكونها وشسعها الكئيب ، الأمر الذى حدانى أن أبتدع الفروض وأخلق صوراً وهمية لكيلا أتحدر فى بئر التشاؤم ، ويا لا سخافة الحياة حين تُهمكنا فى أشياء عديمة المعنى ! .

كنت أشعر أن ثمة رابط بين كل واقعة وأخرى ، دون أن أجد تفسيراً مريحاً ، ولا أكثر من يقينى وقتئذٍ أنى فى طريق يدفعنى إلى شيئ ما ، ربما حدث أو مقابلة مخيفة ، شيئاً ما ينتظرنى ويتحين لقائى ، وإلا فما مغزى هذا التحذير الذى جاءنى عبر الهاتف تارة ، وعبر مذياع السيارة المدفونة تارة أخرى ، " **الواحة مسكونة** " ، وعربة (جبرين الدقاق) التى ما تنفك تخايلنى فى كل روحة وفيئة ، ليأتينى هو بالأخير ، بذاته ، متلبساً شبحاً ما زاد كدرى إلا كدراً ، ثم هذه الواحة ، والبئر ، والسمادونى ، ومتعلقات ألبرت .. كلها أشياء كانت تؤكد حدسى بأننى مرصود ومتبوع ، أُساق إلى قدر لا أعلمه ، بل وتؤكد أن حلم العودة إلى ديارى .. فكرة باتت مستحيلة .

فى هذه الآونة ، روادتنى كثيراً جلسات ألبرت ، وحديثه عن الرحلة ، وحلم الشهرة المنتظر ، أسئلة جمة بدأت تطن فى رأسى ، كيف توصل لى ؟ ، وما هذه الثقة الغريبة التى أبداها حيال إستحقاقى لمهمته المزعومة ، دون غيرى ؟ ، لماذا تجاهلت شعورى بالإرتياب وعدم الإرتياح تجاه جلسات التحضير السريعة ، الخاوية دون خطة أو مضمون ؟ ، ليأتى كل شيئ بعد

ذلك محض شذرات خاطفة ، همس مريب وجدالات جانبية كانت تتوقف بغتة لحظة ظهورى ، وعبارة سمجة كانت تطفو أمامى دوماً حيال كل سؤال أسأله " **الصحراء ستُبدى روعتها مع أول كادر نلتقطه** " ، ثم مرت الأيام بأسرع مما يمر الزمن نفسه ، لم تجاهلت كل هذا ؟! ..

شعور غريب ، لزم غرزى ، حتى هذا اليوم الذى لاح لى هذا النقش العجيب ، شعار (**Desraeli Film**) الوهمية ، لتُسفر الأيام عن منحوتة تضاهيه محتفرة على جدار بئر راقد بأحضان بادية منكورة ، أخر بقعة تصورت يوماً أن أطأها بقدمى ، ثم الحقيبة والوثائق ، ناهيك عن خاتم الشيخ ، وهذا الخاتم الذى طـوق إصبعـى فى المروحية قبل أن ينتشر ، ثم يضيع ، كان يحمل نفس النقش ، (جمجمة يخـرج منها ثعبانان) ، ما معنى هذا كله ؟! ..

فى كل مرة كانت رأسى تهيم وتشطح فى سماء هذه الملغزات .. أشعر بخيبتى الثقيلة التى أوقعت بى فى حبائل هذه المكيدة ، مثل فأر سقط فى مصيدة ، كان صوتها دوماً يأتينى موبخاً " **منذ متى وأنت تُحسن التصرف ؟ .. ما أجبنك** " ، كنت أستجديها أن تكف عن معايرتى ، وتذكيرى برهابى وخوفى ، بِجُبنى ، لكن غادة أبداً لم تكف .

فى يومى الخامس بالواحة ، صحوت فى غرفة الأضياف بدار الشيخ ياسين ، التى خصصها لى كإقامة مؤقتة لحين أتدبر أمرى ، على ضجة بالخارج ، وفيما فتحت الشرفة وتصنت .. عاينت السمادونى على رأس السامر يتجهز ليلقى إلى أدمغة الناس إحدى حكاياه الأسطورية ، كان الرجل يحمل ثعبان غليظ بين يديه ، يناوش رأسه بطرف بنانه ، والثعبان يدور بهامته حول إصبعه فى سكينة ودعة ، لملم طرفيه إلى وسطه ، ثم كمشه مثل قطعة صوف .. ووضعه فى حقيبته القماشية ، والناس يراقبونه فى صمت .. إلى أن نطق كأنما سيُلقى بياناً هاماً " **حين طُرد إبليس من الجنة .. بحث عن جنته فى الأرض ، ظل يتحرى شعابها وجبالها حتى عثر على الذهب ، ذلك المعدن الممسوس ! ، تميمة الشيطان ولعنة بنى أدم إلى يوم الدين ، ومنذ هذا اليوم وصار الذهب حِكراً على سلالة الجن ، له شياطين تتبعه وترصده ، وتحرسة أينما**

كان ، والنمرود هو أحد ملوك الإنس القدامى ، أول من رأى إبليس بعينه وقدم له الولاء ، وأول من لبس الذهب وجعله مصاغاً على صورهـم ، صور الجن ، ولأجلـه خاض حروباً ضارية مع الصناديد الأول ، أهل الخفاء من النواقم الواعرين ، وحين إبليس علم بتمرده عاقبه .. زرع فى كتفيه ثعبانين سود ، سُلطا على رأسه ليفتكا بها ... " .

" **ثعبانين سُلطا على رأسه ، جمجمة وثعبانين** " لفظتها هامساً ، وكأنما وجدت أثراً لضالتى ، ما كادت العبارة تلتئم حتى شعرت بفوران يروغ فى رأسى ، ففزعت منتفضاً ، خرجت من الغرفة إلى الباحة مسرعاً ، حتى أنى إصطدمت بالقبر الذى بناه الشيخ ياسين لنفسه بصحن الدار ، وحين ناهزت حافة السامر حاولت جاهداً أن أتسلل إلى الرجل .. لكن الناس يطوقونه على نحو مستميت ، لا يسمحون لبعوضة للمرور إليه ، فوقفت إلى نقطة بعيدة تسمح لى برؤيته ، حينها كان السمادونى يلوك مضغته المخدرة ، ناظراً نحو الناس فى سئم " **حرّقكم الله** " ، ثم نقل مضغته إلى جانب فمه ، قائلاً " **توسل النمرد للشيطان أن يعفى عنه ، فأمره بأن يُطعم الثعبانين برأسىّ رضيعين كل طلعة نهار ، لكل ثعبان رأس ، وإلا فلن يجدوا سوى رأسه ليتبلغوا بها ، فأمر النمرود حاشيته أن يأتوه برأسين كل صباح ، وكل صباح يُطعم بهما الثعبانين ، إلى أن ضربه السأم فجز رأسى الثعبانين ، لكنهما خُلقا مرة أخرى ، وكلما حاول نبتا من جديد ، وحين دخل النمرود فى حرب ضد شعبه .. سلط الله جحافل من البعوض على جيشه فأبادته ، وأكلت الجنود عن أخرهم ، سوى بعوضة ، تبعت النمرود حين فر من ساحة المعركة حتى لحقت به ، فتسربلت عبر منخاره وإستقرت فى مخه ، كان كلما تحركت يتألم ، فأمر حراسه أن يضربوه بالنعال على رأسه ، لكنها ظلت تطن ليل نهار .. فبات فريسة بين ثعبانين على منكبيه يتحينان الفرصة لإلتهام رأسه ، وبعوضة ضارية تنخر بقاعها ، وبالنهاية أمر النمرود أحد حراسه أن يضربه بالسيف على رأسه ، ففلقها نصفين .. ومات الثعبانين ، وهذه نهاية كل من يركض وراء الذهب ، وينقب عن الدفائن والكنوز** " ، ثم ذيَّل السمادونى عبارته الأخيرة بإيماءة من إصبعه ، لم يُفهم مغزاها ، شطر بيت قديم منحوت بدرك الجبل ، إلا أنى حينها سمعت أصوات مختلطة

لمعاول وفؤس تدق الصخر خلف باب البيت المرتدم إلى ثلثه ، آنئذٍ ، تفل السمادونى مضغته إلى جانبه ضجراً ، ناظراً إلى الوجوه الواجمة أمامه فى بلاهة " **أرانى الله فيكم يوماً يا رؤوس البقر** " ، فضحك الناس مرددين فى صوت واحد " **أحسنت يا شيخنا** " .

فى إثر لحظة شرود ذهبت بى إلى أصوات الدق المتناوحة خلف الباب ، وفيما كان السمادونى متكئاً عند حافة البئر ، أعلى النقش مباشرة .. كأنه يبارينى ، حاولت الوصول إليه بعد أن إنفض من حكايته ، لكن رجل أمامى إستدار فحدجنى بعين مسيحة كالمسحور ، فلفظت أهة فزع ثم إنطرحت ، وإذا برجلين يستديران وعلى وجهيهما الطلة ذاتها ، ثم ثلاثة ثم أربعة ثم رهط .. فإرتددت زاحفاً ، ثم إنتصبت راكضاً جهة دار الشيخ ، أتلفت حولى كالممسوس .

بحلول الليل ، هجعت إلى غرفتى ضائقاً ، وقد بلغ القلق منى مبلغة ، إذ لم أستطع بحال الوصول إلى السمادونى ، من وجهة نظرى كانت حكاية الثعبانين وترصدهما لرأس النمرود .. إشارة لا تقبل تأويل سوى أنها تلميح واضح للجمجمة والثعبانين ، ثغرة ربما أستطيع من خلالها الفرار من هذا العالم العجائبى ، ليست الحكاية فى حد ذاتها وإنما ما وارء الحكاية ، والداعى الذى جعل السمادونى يُلقيها إلى أسماع الناس فى هذا الوقت بعينه ، ربما كان قد قصها عليهم عدة مرات قبل ذلك ، لكنى رأيت فيها شيئاً أخر .. إلا أنى عجزت أن أجد رابطاً بين الحكاية وهذا الرمز ، وأن ثمة أربعة يهود من عائلة واحدة .. إستشرفوا الواحة فوجئوا عنق رجل لم يقترف ذنباً بحقهم ، فقط لأجل كنز مدفون بأرضها .

الرابط الواحد الذى خامرنى للوهلة الأولى هو الذهب ، وقد أشار إليه السمادونى أيضاً بتلميح واضح قبل ذلك ، فالنمرود هو أول من لبس الذهب ، وعوقب بسببه ، واليهود بطبعهم الشهير يهيمون عشقاً بالذهب ، يُزيغ أنظارهم ، حتى أنهم كانوا يحصدونه حصداً من أحشاء كل شعب خالطوا ناسه ، وكل بلد حلوا إليها ، أما عن النقش ، فالثعبان من أكثر الرموز التى تحدد مواقع الدفائن اليهودية ، وكل هذا مجتمعاً يؤكد أنه بالفعل ثمة كنز بالواحة ، لكن أيٍ من هذا لا ينفى أبداً أن هناك سراً وبيلاً

مدفوناً بهذه الأرض ، سر لم أستطع فك شفرته حتى الأن .. برغم شعورى الجازم بأنه فى طريقه نحوى ، وهذا أكثر ما كان يزيد توترى وخوفى ، ولا أقسى من تلك اللحظات التى لا يجد لها الفرد مناصاً سوى الإنتظار .

كان المكوث فى غرفة مغلقة ، فيما تروغ خارج جدرانها الأربعة كل هذه الأسرار ، أمر مثير للرهبة ومُقلقل للسكينة ، فى لحظة شعرت بإختناق شديد ، فإنتفضت واقفاً وأفرجت النافذة ، برغم أن المعاناة تختلف .. فإن الليل هنا لا يختلف كثيراً عن ليالى موناكو القاتمة ، كلاهما يمزق صاحبه على طريقته ، فى ظلماتها كانت الواحة تئن ، تصرخ من قاع البئر بصوت ليس من جوفها ، ولا ينتمى إليها ، كل يوم .. كانت صورتها تتوارى خلف سحاب غريب ، تظل تتطلع لأخر قبس من نور الصباح حتى يغشاها ليل أخر أكثر غرابة ، لا يُضيئه سوى أعين بارقة تنبع من غور الجبل ، ولا يسرح فيه سوى الحيات والهوام والعقارب ، وفيما لا يصدح هذا الليل سوى بنعيق البوم والغربان .. لا روح تنبت فيه إلا مع إبتعاث السامر ، بصخبه وخرافاته وأضواءه ! ، هدوء مريب ، ألقيت بناظرى جهة البئر .. لا أثر للسمادونى ولا السامر ، كلاهما إنفض وفض مجلسه ، الساحة برمتها خاوية ، ليس إلا ذيل الكلب الذى إفترش بساطاً عند زاوية المسجد ، تلفت حوله بنظرات مريبة ثم إنكمش ونام ، لكم أثارنى هذا الفتى الذى يُضمر لى مقتاً لا أفهمه ، ذاك الذى لا يُعرف متى أنبتته الواحة أو متى جاء إليها ، لا يُعرف له بالأساس عملاً ، فمما فهمت من ناس الواحة أنه لا يعدو كونه مطية سائغة لكل من أراد أن يمتطيه ، يظهر بغتة فى صدر كل حشد ، وينبت حول صخب البئر ، أثناء ساعات السامر ، كما ينبت النمل حول الموائد ، لوهلة خال لى أنه ربما يحمل فى طيه سراً خطيراً لا أدرى كنهه .. برغم أنه بالنسب لى كان فى أخر القائمة ، لكن يبدو أنى كنت مخطئاً ! .

(٦)

فى صباح اليوم العاشر ، نفرت عن الفراش فى ساعة مبكرة بعد ليلة كسابقاتها كدرة ، ويبدو أن الليالى هنا قد إصطبغت كلها بلون واحد ، كما أن الصباحات كلها تنهض بساعة واحدة ، الماشية والناس يملأون الطرقات كأن الواحة برمتها ، رجال ونساء وصغار ، قد نفرت مضاجعها وخلت الدور عن بكرة أبيها ، من يراهم الساعة يظن أن ليس بينهم عاطلاً ، ومن يرى لُتهم وتآجلهم إلى السامر كل غداة يظن أنهم حفنة من المتسكعين ! .

لم أكن مفيقاً ، للحظة تطلعت بعين جافاها النوم إلى هذه الأسراب السارحة إلى المرعى ، ثم أخذتنى قدماى فى شرود حتى ناهزت سفح الجبل ، بدلاً من المسجد ، والذى كنت قد إنتويت أن أرتمى فى صحنه أول ما أصحو ، توقاً إلى سِنة نوم واحدة ، لكنهما غفلةً سارتا نحو الجبل ، حين إستشرفت أجمة النخيل كانت النسائم الباردة لازالت ثقيلة تحمل رائحة الليل المنقضى ، عرجت بعينى جهة المرعى ، بعير وزمرات مرتحلة ، ومن خلفها تلوح مروحية سقطت منذ عشرة نهارات ثم تبخرت ، مثل دخن داهمته هبوب جامحة ، إلتفت يميناً ، وقبل أن أنطرح إلى حجر يحد بساطاً من حشائش منمقة تفترش سفح النخيل باغتتنى صيحة مفاجئة نزعت مرائى ، صراخ أعرفه " **أغثنى يا يوسف** " ، إنها غادة ..

إلتفت مرتعداً ، فإذا هى مريم ! ، أخذتها ما يشبه نوبة صرع فإنقضت على غادة تريد أن تفترسها بأنياب حادة برزت عن شدقيها ، كان من اليسير أن تُميز بينهما ، فإحداهما متدثرة بأسمال بدوية بالأعلى والأخرى يحتويها رداء حضرى بالأسفل ، ولكن من العسير أن تستوعب وجودهما فى آن واحد ، وعلى هذه الهيئة .

وقتئذٍ ، أحسست بشعورين يتناطحان فى صدرى ، يتنازعانى ما بين القبول والتدخل ، وأن أطرق رأسى بحجر علّها تستفيق من هذه الأوهام .. لكنى

لم أملك سوى أن أهب مفزوعاً محاولاً كبح مريم عما تفعل ، وإذا بها تفج فى وجهى مثل قطة برية بعينين غشيهما بياض مفزع ، ونابين شدخا صدغيها ، ثم لفظت عن حلقها صوت أشبه بصوت البعير ، فنكصت على عقبى جافلاً ، إلتهيت للحظة بحجر تعثرت فيه ، ثم أقمت عينى مبهوتاً فإذا هى مريم عادية كما ألفتها ، فقط كانت تفج فى شاة صغيرة بين يديها تداعبها ، فهززت رأسى هزة من يستحث وعيه أن ينهض ، ثم إنطرحت إلى الحجر أنظرها بعينين ضربهما الزيغ ، وما إن إسترعاها إمتقاع وجهى وأنفاسى المتقطعة حتى قالت فى دهشة " **ماذا بك ؟** " ، فلم أجد ما أقوله ، فإحتضنت شاتها وإتجهت صوب الدار .

ظلت مريم تباشرنى من شرفة حجرتها طوال النهار فى قلق وتوجسات لا تخمد ، تلك التى توطدت صلتى بها بأسرع مما كنت أتخيل .. فوجد الحديث بيننا سبيلاً للبوح والتناجى ، قبل غروب الشمس مرت مريم إلى دغل النخيل الذى لم أغادره منذ الصباح ، شارداً جهة الجبل لا أحيد عنه ، شعرت بخطوها الرهيف فأدرت وجهى ، تحركت بضع خطوات أرقب السامر الذى كان قد بدأ هرجه منذ ساعتى زمن ، حدقت فى وجه السمادونى بنظرات ساهمة هزمها القنوط ، حينها كان ذيل الكلب ملتهياً مع زمرة من العجائز والصغار ، حينها ألقت مريم بناظرها جهة السامر ثم دنت منى آسفة " **لم وحدتك هذه ؟!** " ، فأجبتها بشرود جم دون أن تحيد عينى " **وماذا بيدى أن أفعل ؟ ، حسبى سعادة ما إستشرفتمونى به ، منذ أن حطت قدمى ببريتكم هذه وأنا أتقلب فى شيئ غير ذا معنى** " ، ثم نفخت ضيقاً ، فألقت مريم بنظرة إلى اللُمة الصاخبة حول السمادونى ثم عرجت نحوى " **لا تفكر حتى فى المحاولة .. هو كالأثير لن تُمسك مهما دأبت** " .
فرمقتها بلحاظ عينى وقد إنفلتت منى إبتسامة مُستخفة " **كالأثير ! ** " ، فقالت " **هذا المخرف يظل متشبثاً بمجلسه حتى ينفض السامر ، ولا تعرف كيف يختفى ، ولا متى يظهر بعدها** " ، وفيما كنت أنظرها فى عجب ، غير مقتنع بهراؤها ، إذا بغشاوة بيضاء تمسح عينها ، ليتحول وجهها فى لمحة خاطفة إلى وجه عجوز الصحراء ، تلك التى صرعتنى بالبرية بعد سقوط

المروحية ، فتراجعت مرتهباً ، لكنها ما لبثت أن عادت لحالتها ، إبان ذلك كان ذيل الكلب قد أرجأ لهوه مع العجائز والصغار ثم سحب حمارته إلى جانب السامر ، وطفق يرقبنا من بعيد ، حينها كنت لا أزال أحدق فى وجه مريم مرتاباً ، فقالت مستغربة " **ماذا بك ؟! "** ، فخال لى أنها الهلاوس قد تمكنت منى لعِظم الإرهاق الذى تجشمته فى يومين متواصلين دون نوم ، ففركت عينى هامساً بصوت خدده التعب " **لست بخير .. أشعر بإرهاق شديد "** .

أنئذٍ ، غشيتنى دقيقة صمت أباشر ما يحدث بالسامر ، ثم قلت " **من هو أبا الحديد هذا .. وما صلته بالبئر ؟ "** ، فإنطلقت منها ضحكة واهنة ، دون داعٍ ، قطعتها بكف يدها فى حرج ، ثم تنحنحت فى جدية قبل أن أضيق ذرعاً " **لا أعرف عنه أكثر مما يموج على ألسنة العامة ، يقولون أنه جدنا الأكبر ، يشيع بين ناس الواحة أنه رجلاً جاء مع عقبة بن نافع أثناء حملات الفتح الإسلامى ، وعاش هنا ، ويقال أنه هو من حفر البئر ، وفى إحدى الأيام صحى أهل الواحة فوجدوه مذبوحاً عند حافة البئر .. فقط هكذا "** ، فنظرتها مستنكراً " **هكذا ! .. يجوز "** ، فإحمرت وجنتها ، ثم دارت بعينها جهة البيت ثم المسجد ثم دغل النخيل .. حتى إستقرت عند السامر ، فى حركات عبثية لم تستطع مواراة خجلها .

حينها كان السامر قد إنفض عن البئر بغتة آخذاً السمادونى فى طيه ، أخلى الساحة لرهط من مشايخ الواحة الذين ما لبثوا أن طوقوا البئر ، وطفقوا يتلون القرآن ، فنظرت إليها " **ماذا يفعل هؤلاء ؟! "** ، فردت بنبرة يملؤها الأسى " **ثمة جُرم إقتُرف فى الواحة ، وفى ظرف كهذا يقوم المشايخ ، وهم سبعة ، بتطويق البئر ، ثم يقرآون سور الفاتحة وياسين أربعين مرة ، وقبل أن ينتهوا يظهر المذنب صارخاً .. إسترونى لا تفضحونى رحمكم الله ، ثم يعترف بجريمته "** ، ثم أطرقت فى كمد " **ولكن منذ أمد بعيد فقد هذا الطقس مفعوله ، ورغم هذا لا زال المشايخ يتوسلون بالبئر "** ، ضقت بهرائها ، وقبل أن أشيح بوجهى عنها لمحت ذيل الكلب هناك ، لا يزال على ديدنه ، يرقبنا بغيظ ، وكعادتها عربة الكارو إنتهبت إلتفاتى صاعدة نحو

الجبل ، فالتفت إلى مريم مشيراً إليها " **وما بال هذه العربة صاعدة هابطة دون داع ؟! "** ، وما إن عرجنا نحوها حتى ألفينا الطريق فارغة ، زال أثر العربة تماماً ، فرمقتنى مريم مدهوشة " **عن أى عربة تتحدث ؟! "** ، فأخذنى ذهول جعلنى أتقلب بعينى بأرجاء الواحة ، ثم تنهدت ، وبصوت ثقيل فقد حماسه ، قلت " **لا .. لا شيئ ! "** ، وفيما تحجرت عينى عند الجهة التى صعدت منها عربة الكارو راحت مريم تنظرنى فى وجوم ، تحاول أن تقرأ رمقاتى الضائعة بين الجبل والسامر ، وذيل الكلب الذى يرقبنا من بعيد .

فى اليوم التالى ، عندما بدأ الصغار ، ونذر يسير من الشباب والعجائز ، يتسربلون حول البئر بإقتراب ساعات الظهيرة أذوناً ببدء هرج السامر .. كنت عند بسطة المسجد أترقب ظهور السمادونى ، لم أسمح لليأس أن يهزمنى ، عقدت العزم أن أواجه الرجل ، لعدة أيام وأنا على ديدنى هذا ، غير أن الأمر لم يتغير .. يطوقونه فى إستماتة كأنه ولىّ ، ثم يختفى فلا تُمسك له غرزاً ، فى كل مرة كنت أنتوى أن أنتبه له قبل أن يفر عن ناظرى .. يشاغلنى شيئ ما حتى لا أجد له أثراً ، إلى أن تدثرت يوماً برداء بدوى ثم إندسست بين الناس ، كنت كلص الموالد حين يطوف بين رواد الأضرحة خلسة بحثاً عن ضحية ، وأكثر ما راعنى أن أحداً لم يكشف الأمر ، الناس حول السامر كالسكارى ، وكأن العادة أن يظهر بينهم أغراب دون أن تختلج لهم جارحة ، حينها فقط بدأت أصدق أن الجِنان حقاً تندس بينهم متدثرة فى صور شتى .. حتى ما عادوا يميزون غريب من قريب ! .

للحظة ، وفيما أخذتنى لجة السامر بعيداً تذكرت هذا القط البرىّ غريب الأطوار ، كاراكاو ، برغم أن هذا النوع منتشر بوفرة بأرجاء الواحة .. إلا أن ثمة قط بعينه يثير حفيظتى ، بشع المنظر ، بالأساس لم أر يوماً قطاً أسود بعين واحدة زرقاء ، والأخرى مسيحة ، إلا أن أكثر ما راعنى فى الأمر أنه القط ذاته الذى رأيته عند حافة السرير بغرفتى بخربة موناكو ، فضلاً عن تلك الرؤى المتفرقة بالصحراء وبأجوار البئر ، والأدهى من ذلك أن جبرين الدقاق وشبيهه الممسوخ ، ذاك الذى داهمنى بغرفة الأضياف ، أيضاً

كانا أسودين ولهما عينين زرقاوين ، والأخريين مسيحتين ، الأمر الذى أثار داخلى خوف محقق .. فلم يخالجنى للحظة شك أن هذه القرية لا ريب مسكونة بجنىّ عتيد ، وربما أكثر ، يهيمون بنواحى الواحة فى صور هذه القطط ، وربما كان القط الأسود رئيسهم ، بل وخامرنى أن السمادونى نفسه على الأرجح هو الأخر جنياً ، وإلا كيف ومتى يختفى ؟! ، وفيما شدهت ، ولم أثن عزمى أن أعرف كيف يفعلها هذا الدجال .. لم أفكر للحظة أنى أرجأت كل شيئ وعلقت نجاتى برقبته ، والحقيقة أن علة الأمر هو أن الأمل الوحيد الذى برق أمامى كان متعلقاً بما لفظه الرجل .. دون أن أضع فى قائمة إحتمالاتى أن الأمر برمته ربما جاء بالصدفة ، إلا أنها فكرة لم تجد لها حظاً فى رأسى .

كنت أتطلع إلى الساحة وهى تُنبت الصغار فرادى وجماعات .. كأنهم يخرجون من جحور تحت الأرض مثل النمل ، أما العجائز ، فلا أكثر غرابة من أمرهم ، يذهب العقل حين تراهم فى زحفهم على أيديهم وأرجلهم نحو البئر .. كأنهم موتى أُبتعِثُوا من مرقدهم إلى أرض المحشر ، أما الشباب فهم يظهرون تارة ثم ينفضون ، لكنهم هذه اللحظة جاءوا راكضين يزاحمون العجائز والصغار ، فأكل الشك رأسى ، عرجت بعينى جهة البئر فإنتبهت لهذا الصوت الأخن ، لقد ظهر السمادونى ، كيف ومتى .. لا أعرف ؟ ، ويبدو أن لا أحد غيرى يعرف ، لكن الفكرة حين قلبتها فى رأسى خايلتنى بأنى الوحيد الجاهل بأمره ! .

أطل السمادونى بعينه نحو الحشد ثم تفل على يمينه " **جاءكم الوباء ، وجوه تغم النفس** " ، ثم أخرج من جيبه الرحيب ، مثل غور الجبل ، أرنباً برياً ، فضحك الناس ، ظل يناوشه ويجذب ساقيه فزاد ضحكهم ، فقال وهو يحدق فى وجه الأرنب " **أتعرفون حمارة القيالة** ؟ " ، فجاء الرد على أفواههم بغبغة مختلطة " **ماذا ؟! .. لا والله .. أعرفها .. حمارة القيالة !!** " ، فأزعجه ضجيجهم ، فألقى الأرنب فى وجوههم غاضباً " **حرَّقكم الله .. كفاكم حش فى الحديث يا بقر** " ، فران عليهم صمت غريب كأن على رؤوسهم الطير ، يوقرون الرجل إلى حد بالغ ما بقى معه إلا أن يركعوا له ، تمليت فى

وجوههم المتضرعة الساكنة ، كيف ينصاعون له وهو لا يكف عن الدعاء عليهم ، ولا ينعتهم سوى بالبقر والقرود ووجوه البهائم ؟! .
لم يستطع الرجل أن يوارى غضبه ، فتناول مُضغته فى عصبية حتى أسلم عينيه لغفوة لا تعدو بضع خفقات لجفن منتفخ ، ثم أزاح مضغته إلى جانب صدغه ، قائلاً " **فى زمن غابر ، كانت حمارة القيالة صبية ريانة .. تُسكر كل ذكر جُبل على شهوة ترنو إلى النساء ، بيضاء ناعمة .. كأنها الجمان ، مجدولة ، يُخبيها شعر كالليل حين يغتلم ، عيناها زُرقة ماء .. تجمح بك بين موج وسماء ، مات زوجها وهى فى ريعان الصبا ، وقبل أن تتم عِدتها ترصدها الشيطان فأغواها .. فزلقت فى المحظور ، فمسخها الله حمارة .. وباتت عورة عينها عليها أمارة ، تركض فى القيالة ، تتحرى عمن لفظه الظل إلى الحرور ، وعمن يتجسس خلسة ما يقال وراء الأخبية والدور ، ومن تجده فى طريقها تخطفه .. وتلقيه إلى ظلمة القبور** " ، ثم سكت السمادونى ، فداركه رجل " **ماذا .. إنتهت ؟!** " ، فأجاب السمادونى بنبرة لا تخلو من تهكم " **نعم إنتهت .. تنزح روحك ما ترد ، قول آمين** " ، فنطق رجل أخر " **هكذا فقط يا شيخنا** " ، فرد السمادونى وقد فاض كيله " **يكفيك هذا يا خِلفة العار** " .

حينها كنت أتملى وجه الرجل منصتاً ، وراعنى أن نوعين من السحر يُمارس على أذهان الناس ، فبينما كان السمادونى ينتهب أسماع الرجال والعجائز بحكايا تُلهب خيالاتهم عن عصور ، لم ولن يرونها يوماً ، فيُصيخو لقوله خانعين ، كان ذيل الكلب يندس بين تلافيف الفتية والصغار .. فيُذهل أعينهم بحركاته البهلوانية ، كأنه محض شخصية كارتونية ، يحجل ويحبو ويُفرد ظهره للصغار ، يموء ويثغو ويولول كالنساء ، ويقلد حركات العجائز العثرة ، ويغنج بأهازيج تستحى منها الصبايا ، ويلقى النكات السخيفة ويضحك عليها وحده ، ووحده يعرف أنه ما قصد إلا أن تكون سخيفة .. فيستحوذ على أنظارهم ، يحدقون إليه كالسكارى مسلوبى الإرادة ، وكل يوم تنبت فى رأسه حيلة .. يراوغها لتنبت أخرى ، ومريم بين الحضور تُثنى على حركاته ، وتبذل له ضحكات عفوية صاخبة .. فيزيد فى هرجه وهزله ، فيما تندس حمارته بين الناس كبصاصة الدرك ، تستطلع

أحوالهم وأقوالهم ، الأمر الذى قد يساورك لوهلة أنها ربما تغطى على شيء خبيث يفعله .
لكن شيئاً حدث فانتزع خيط أفكارى ، ففيما كان ذيل الكلب ينتهب أنظار السامر فرداً فرداً .. نفرت حمارته فجأة ففضت الجمع المتآزف حوله ، إلا رجل وصبى صغير ، أشار لهما ذيل الكلب أن يتبعاه .. فلحقا به عند سفح الجبل ، حينها لم أجد خيراً من هذه الفرصة المواتية لكشف السدل التى يتوارى خلفها هذا المجذوب المتغابى ، لأكتشف فيما بعد أنه داهية تتحرك على رجلين ، وبدأ الأمر حين إقتفيت أثر الرجل وصغيره ، فوجدت أن ذيل الكلب توارى بهما خلف صدع عظيم يشق الجبل ، كان فى سيره المكروب يتلفت حوله كمن يخشى أن يُكشف أمره ، وإذا به حين تخفى بهما عن الأنظار يُفرج دفتى خُرج حمارته .. ويُخرج قنينة صغيرة ، أقامها إلى فمه ، فنطق الصبى " **ما هذا الذى تشربه ؟!** " ، فنظره ذيل الكلب كأنما فاجأه السؤال " **هذه ؟ .. هذه مياه الإخفاء** " ، فرمقه الرجل بإستخفاف ، لكن ذيل الكلب بادره " **أدرى أنه حديث لا يُصدق ، لكنها حقيقة .. وهذا ما ستراه للتو بأم عينك** " .
مرر ذيل الكلب أصابعه إلى شدق الحمارة ، ضاغطاً ، حتى أفرجه ، ثم فتح صفىّ الأضراس عنوة ، وأدخل فوهة القنينة ورفعها .. حتى تجرعت الحمارة السائل بالكامل ، فإذا بها قد إختفت ، مثل سحابة تبددت حتى زال أثرها ! ، فإفتغر فاه الرجل محملقاً ، فإبتدره ذيل الكلب " **أترى .. ما عاد لها وجود** " ، ثم رمى القنينة ودس يده فى الخُرج " **لدى غيرها .. إذا راق لك أن تُجرب** " ، أعطى الرجل واحدة فشربها فى جرعة .. لكنه لم يختفى ، فقال الرجل مستاءاً " **ما هذا ؟!** " ، فبادره ذيل الكلب" **مهلاً .. حتى تأتى المياه بمفعولها** " ، وإذا بالصغير يحتد " **وأنا أيضاً أريد واحدة** " ، فحدجه الرجل " **لا يصح ، لازلت صغيراً** " ، فناهضه ذيل الكلب " **دعه يجرب .. قنينة واحدة لن تضر ، الصغار يفرحون بهذه الأشياء** " ، ثم دس يده وأخرج قنينة أخرى ، فكفكفه الرجل " **لا ، سأعطية أنا من قنينتى** " ، ثم وضع القارورة على فم الصغير ، هامساً " **جرعة واحدة فقط** " .
للحظات ، رأيت ذيل الكلب يرمقهما ، وهما يترنحان ، بنظرات خبيثة ،

وإذا بالصغير يتطوح ساقطاً ، وما كاد الرجل ينظره مفتزعاً حتى لحق به ، ظلا يحدقان بأعين سلبها الخدر حتى خمدا بالكلية ، وإذا بذيل الكلب يُصفِّر فتخرج حمارته من مخبئها بجانب الصدع ، فحملهما على ظهرها ، ثم إرتحل بهما جهة الصحراء خلف الجبل ، حينها توقفت أرقبه وهو يبتعد ، مشدوهاً ، لم أملك أن أقتفى أثره لخطوة واحدة .. فرجعت إلى الواحة أتلفت خلفى بين فينة وأخرى ، خشيت أن ينالنى ذلك المصير الذى ينتظرهما ، والذى لا يُنذر فيما يبدو بخير .

فى اليوم التالى ، صحت الواحة على صباح متقد ، صراخ إعتادت طرقاتها الضجيج به كل بضعة أيام ، كنت حديث عهد به ، واليوم دور إمرأة لم تتخطى الثلاثين ، كانت مذعورة ! ، تذرى التراب خلفها فى ركض متعثر وسير مكروب .. ميُممة جهة السامر ، تقلب وجوه المارة والصغار خاصة ، ما يلبث الركض أن يُخمدها حتى تضج فى رأسها فورة .. فتهب واقفة تارة أخرى ، يستشيط على لسانها عويل مكرور أخرج الكل مفزوعاً ، بما فيهم مريم والشيخ ياسين ، آنها ، وفيما كنت فى ذيل الركب اللاهث أتكهن عِلة إفتزاعها .. كانت على ديدنها ، تردد " **ولدى وزوجى يا خلق الله ، كانوا بالسامر البارحة .. وما عادوا من وقتها ، من رآهم يرحم قلبى ويخبرنى ، ولدى وزوجى يا ناس** " ، وإذا بها تجثو ، وتحثو التراب على رأسها " **ليته سمع حين حذرته بأن البئر مسكون ، لكنه سد أذنه بحفنة طين .. وأخذ الصغير فى طريقه** " ، فتجمع حولها النوادب يولولون .

كان بديهياً أن أفكر فى ذيل الكلب أول ما أفكر ، ترى ماذا فعل بهما ؟! ، أكنت على حق حين قررت ألا أتبعه ، أم أنى فوَّت فرصة لن تتكرر ؟ ، ولكنها تتكرر .. هذا ما تناجى به رجلان حين أعرضا عن المرأة ضائقين ، الغريب أن ناس الواحة الذين تثرثروا خلف المرأة متأثرين .. تثرثروا عنها أيضاً بعد ساعات إلى السامر ، لتذهب الواقعة إلى طى النسيان ، فاض كيلهم حتى تبلدوا حيال حالات الفقد المتكررة ، ومن لم يغب من آله أحد عاد إلى السامر كأنه لم يغب أحد ، نسى كما تعود أن ينسى .
ضاعت عينى يميناً ويساراً .. وهى تبحث بين الناس عن ذيل الكلب ، فلم

أجده ، غاب الليلة ، وفيما عادت المرأة المنكودة تتحرى عن زوجها فى زحام الحشد المركوم .. لم يبالى الناس أن يزجو بها إلى طرف السامر ، ليلتقطوا كل كلمة يفوه بها ساحرهم الأثير ، ذاك الذى يأتيهم كل مرة بحديث عجيب .. أنى لهم أن يكونوا فى هذه البقعة الحارفة قد سمعوه ، تلك الأرض المجهولة فى الزمان والمكان ! ، فلا الخرائط تعرفها ولا البوصلة تميز وجهتها .. ولا يمكن بحال نسبها إلى نقطة ما ، كأنما إنبثقت من جوف الأرض بين يوم وليلة ، أو أن الزمن ذاته حط عندها ففقد وجهته فى ركضه اللاهث ، لوهلة خال لى أنه ربما يكون عالم موازٍ ، يُشاركنا الأرض والزمن .. لكنه لا يشعر بهما ، أو ربما نحن من فقدنا بوصلة هذا العالم ، وفيما سمعت وقرأت كثيراً من قبل عن مثل هذه الحيوات والفضاءات الموازية ، فلم أؤمن بها ، هل يجوز اليوم أن أصدقها ؟! .

للحظة ، خامرنى أن السمادونى وحده الذى يعرف الفجوة التى تفضى إلى هذا العالم ، عالم كاراكاو ! ، ثغرته وبوابة الدخول إليه ، فدرج أن يتسلل من عالمنا ، ناهباً معه حكايا سليمان والنمرود وغيرها ، ليسحر بها أذهان هؤلاء الناس المغمورين لآذانهم فى الوهم والخرافات ، ليأتى السؤال ، هل هذه الثغرة هى التى يجيئ الرجل ويهرب منها دون أن يشعر به أحد ؟! .

كادت هذه الأفكار أن تفتح باباً لأفكار أخرى .. لولا أنى لمحت السمادونى يتدثر فى زمرة من نساء متوشحات بالسواد ، متسللاً خلسة نحو الجبل ، مستغلاً هرجاً ماج بالسامر جراء إحتراب رجلين على شاة شردت بالبادية ، ما إن تخفى وراء الصدع حتى عاد النسوة وطوقن المرأة المنتحبة ، يواسونها بأعين خائنة تتناثر نظراتها هنا وهناك ، كانت أيضاً فرصة مواتية ، حدتنى أن ألحق بهذا الماكر .. الذى ينسل عن الزحام حين يتيقن أن الأعين قد خدَّرها عرق البلح ، حين تزيغ فلا تدرك من ذهب ومن حضر ، فالسامر طوال إنعقاده كبالون يمتلأ ويفرغ ، وفى كنف السُكْر وغياب العقل لا طائل لإحصاء من شغله ومن إنفض عنه ، وإن كان السمادونى نفسه ! ، رأس السامر وسدة رأيه .

زادت ريبتى حين تجاوز السمادونى الصدع وطفق يركض مكروباً عبر

مدق يُطوق درك الجبل ، يتخفى من كنف لأخر ، مختلساً النظر خلفه كاللصوص ، كنت فى غرزه أتلصص شبحه الذى ما يلبث أن يظهر فأراه .. حتى يندس كفأر متبوع ، وبرغم أن عينه وقعت فى نصف عينى لم أمنحه فرصة الغياب ، تقاربت الخطوات حتى كدت ألحق به .. لولا أن صوتاً مختلطاً لرجال يتنازعون ، ومعاول تدق الصخر تسلل إلى سمعى من غار مررت عليه ، فتحجرت متوجساً ، ولا أعرف ما الذى حدانى آنها أن أدنو بخطوات خليسة نحو الغار ، ثم أدخل ، فلم أجد شيئ ! .

وفى غمرة ترقبى ونظراتى المرتابة ، إذا بيدين معظمتين يغلفهما جلد رقيق تتسربلا زاحفتين نحوى من باطن التراب ، وفيما إمتدت إحداهما لتمسك بقدمى أحسست بهذا الحفيف النابض أسفل منى ، فإنتفضت ناظراً ، لكن اليدين تملصتا إلى التراب ثم غاصا ، لينتزعنى شيئ إلى ظلمة الغار على نحو خاطف .. فلم أدر بحالى إلا وأنا أهب واثباً ، لافظاً أهة خوف بعد سقوط غالبنى ، درت حول نفسى كالملبوس ، وما لبثت حتى كنت ، فى وثبة أخرى ، أمام باب الغار أتلفت حولى مذعوراً ، آنها شردت عينى إلى قاع المدق حيث غاب السمادونى ، فلم يعد له أثر ، وفيما عضضت على نواجزى غيظاً ، صافقاً كف بكف ، إذا بصوت يطرق أذنى خلخل ركبتىّ **" أين ذاهب يا ولدى .. الجبل ليس بأمان "** ، فإستدرت مرتعداً .. لأجد الشيخ ياسين أمامى مباشرة ! .

تلعثمت ، وأحسست بالنفس يتردد فى صدرى مكروباً ، فزاغت عينى ، عرجت إلى موضع الحفيف الذى نبض أسفل منى ، ثم إلى الغار ثم إلى المدق الذى إبتلع السمادونى ، ثم إلى الشيخ الذى إقترب وأسند يده إلى ساعدى عنوة .. ودفعنى للسير إلى الجهة الأخرى نحو الواحة ، تحركت معه بخطى ثقيلة .. فيما لم أملك القدرة على أن أدرأ عينى عن الإلتفات خلفى ، علّى ألمح شبح الرجل ، على الأرجح لابد أنه تخفى فى كنف أو عطفة بالجوار ، لم أفق من سكرتى إلا حين نطق الشيخ **" ألم يخبرك أحد أنه لا يجوز أن تتمادى حتى تصل إلى هنا ؟ ، من يذهب وراء الجبل لا يعود "** ، فتلفت حولى فى خوف ، ثم عرجت إلى النقطة البعيدة بالمدق .. أحدث نفسى **" لكن السمادونى يذهب ويعود "** ، نظرت إلى الشيخ فى ريبة **" وماذا**

وراء الجبل ؟! " ، فلوى رأسه إلىّ ، فاركاً فص خاتمه ببنانه ، فإرتجف الفص على نحو هالنى ، بدا كدهاة السحرة حين يذرعون حواف خواتمهم بأطراف أصابعهم .. إذ يحيكون أمراً خبيثاً ، آنها تذكرت وقت أن سمعت هسيس رجلين بالسامر بأن الشيخ يأتيه رئى من الجن يخبره بطوايا من يباريه .. برجفة واحدة من فص خاتمه ! .

رمى الشيخ بنظرة مبهمة نحو نقطة بعيدة كأنما يستقرئ تاريخ هذه الأرض ، قائلاً **" كثير .. وراء الجبل بَحْرة الخسّ ، أنسال الجن "** ، نظرته مشدوهاً **" أنسال الجن ! "** ، فرد **" وهل تظن أن البرية والجبل لا تحتضن سوانا ؟ "** ، حينها تمعنت فى وجه الرجل أستنطق تلك النظرة التى تتناوح فى عينه بين الهزل والجد ، أطرق لبرهة ثم قال **" منذ زمن بعيد وجن البوادى يترصدون المراعى النائية ، ويتسللون خلسة حول منابع المياه المخفية عن الأعين ، يتحينون الفرص وأوقات الغفلة .. ويخطفون بنات الواحة إغتصاباً ، وكل فترة ، وبعد إختفاء ربما يدوم لأيام وشهور ، تعود صبيَّة تدفع أمامها بطن منتفخة ، تعود وفى جوفها نطفة شيطانية ، وما إن تضع وليدها تسترده الجن تارة أخرى ، تخطفه من بين قدميها ، فتُربيه وتُنميه ، وحين كثرت أولادهم وتفاقمت ذراريهم .. سكنوا وراء الجبل فى بَحْرة واسعة ، بَحْرة أنسال الجن "** ! .

أصابنى حديثه بخوف لا يخلو من ريبة ، كدت على إثره أن أناهضه عبثاً .. لكنه ابتدرنى **" أعرف أنه حديث ملغز .. قد يعصى على التصديق ، ولكن حين يكون الغجر فى الأمر .. فلابد أن تصدق "** ، فتطلعت مدهوشاً **" الغجر ! .. ومن هؤلاء أيضاً ؟! "** ، فأدار الشيخ رأسه متأففاً ثم واجهنى ، يُطل من وراء كفافه بوادر سخط وضيق **" هؤلاء هم اللعنة التى بُلينا بها ، منذ سنوات ليست ببعيدة كانوا معنا .. يشاركوننا الأرض والعيش ، ولهم بطون بيننا ، لكنهم تعلموا السحر على أيدى هؤلاء الأغراب الذين كانوا يهبطون الواحة من عام لأخر ، فسولت لهم أنفسهم الشر .. فإستخدموه ضد ناس الواحة ، فكان لهم من الأذى ما أحرق الزرع وأهلك الضرع ونشر الأمراض وأزهق الأرواح ، وحين زادت مصائبهم تحتم علينا إستنفارهم ، فطردناهم شر طردة ، ولأنهم كانوا مُخاويين ..**

سكنوا وراء الجبل ، مع الجن وأنساله " ، آنها تذكرت تلك العجوز التى صرعتنى بالبرية قبل أن أدخل الواحة ، وقبل أن أستعلم عن خبرها أجابنى ، كأنما يقرأ ما أفكر به **" هى أم الصبيان ، ساحرة أنسال الجن "** ، فتحجرت ، محملقاً فى وجهه .. غير أنه سحبنى غير آبه بما ألم بى ، ولا أعرف لمَ شعرت آنها أنه يرانى ، خايلنى أن أقصوصة كفافه ما هى سوى أكذوبة يخدع بها ناس الواحة .. من جملة أباطيل كثيرة تموج بها هذه الأرض .

فى هذه اللحظة .. لم يجل بخاطرى سوى سؤال واحد ، وكان لابد له من إجابة ، إن كان وراء الجبل بحرة مفعمة بالسحرة وذرارى الجن ، كما يدعى ، فما الذى يحدو إبنه راضى والسمادونى وذيل الكلب أن يسلكوا طريقاً محفوفة بالمخاطر والمجاهل كهذه ؟! ، ولماذا خدَّر ذيل الكلب ذاك الرجل وإبنه وسحبهم إلى هناك ، كما تسحب الجنيات الرجال فى غبشة الليل ؟! ، وفيما كدت أبوح له بما جاءنى من خبر السمادونى وذيل الكلب .. لا أعرف ما الذى ألجم لسانى فخشيت أن أنبس ببنت شفة ، بدى الأمر من الرهبة والخطورة أن يجعلك تبتلع لسانك ألف مرة قبل أن تتلقى إجابة مقضة ، لن تهنأ بسِنة نوم بعدها .

أصابنى الأمر بتره وحيرة جعلتنى أشرد مبهوتاً ، أحدث نفسى **" أى أرض ملعونة تلك التى وقعت فيها ! "** ، وفيما كنت قد ناهزت مشارف الواحة خامرتنى هزة إنفعال ، سرت إلى بدنى .. حين خال لى أن ظلاً يسير وراءنا ، فتشبثت بعباءة الشيخ وإستدرت مذعوراً ، فإذا بصوت يتردد إلى جهتى اليسرى ، على بعد خطوات **" إلى أين يا ولدى .. الجبل ليس بأمان "** ، إلتفت إليه .. فإذا بى أرى الشيخ ياسين مستنداً إلى راحة مريم ، فأخذتنى رعدة جعلتنى ألوى عنقى إلى جوارى ، حيث الرجل الذى لازلت أشعر بقبضتى على طرف عباءته ، وبدفئ يده على معصمى .. فلم أجد أحداً ! ، فوثبت فزعاً .

ولا أعرف ما حدث لى بعدها ، ولا كيف حدث ! ، كأن خدراً أخذنى إلى عالم أخر ، كالممسوس بسحر أرض غريبة كانت تنتظرنى ، سحر كراكاو ، دارت عينى ضائعة على طول سفح الجبل المتاخم للواحة ، جابت أوله

وأخره .. حتى إستقرت عند باب البيت القديم المنحوت بالجبل ، حينها سمعت صراخاً مفجعاً يشق أحشاء الحجر ، فتذكرت أصوات المعاول التى سمعتها تدق الصخر .. إبان حكاية السمادونى عن النمرود والثعبانين ، وكأنى لم أر الشيخ ، ولم أقتفى أثر السمادونى .. شخصت عينى شطر باب البيت المرتدم إلى ثلثه ، ولم أدر بقدمى وهى سائرة تجوس الطريق بخطو رهيف ، مُيممة نحوه ، دون أن يساورنى الخطر المتربص جراء الإبتعاد عن الواحة فى هذا الظلام ! .

كابوسٌ جثوم

وسط الزحام ، والطريق المركوم بظلال وتهويمات تجيئ وتروح .. كانت الأصوات تعلو كلما إقتربت ، رنات إيقاعية لمعاول ومطارق تدق الصخر ، الرؤية ضبابية ، خيالات وأطياف تحوم حول رأسى محلقة ، تمرق أمام عينى ثم تختفى ثم تعود فتظهر ، هامات ليس لها ملامح ، وجذوع وخصور دون أذناب ، وهمس هستيرى يدق أذنى بالكاد أميّز منه عبارة " **عد إلى ديارك** " ، حيات كالدخن تطوق رجلىّ وتتسربل بينها صاعدة ، كلما إقتربت زاحمتنى بزنها وحراكها المسعور .. فأطوِّق أذنى وأصرخ دائراً حول نفسى كالمجنون ، بالكاد أزيحها ، دنوت أكثر .. الباب مُغترق إلى أذنه بالتراب ، طال شرودى قبل أن أجثو إلى ركبتىّ وأغرس كفى فى الرمل .. وأقيمه حِفن أنثرها ورائى ، مرة وأخرى ، وعدة مرات .. حتى تنحى الردم عن سدة المدخل ، وبقوة اليد والقدم حاولت نزع الباب وزجه فلم يتحرك ، إنتظرت فإنفرج وحده ، دخلت أتحسس طريقى ، فإذا به ينغلق خلفى .. فلم أتلفت .

مدق ضيق يشق بطن الجبل ، أقرب إلى نفق من أى شيئ أخر ، كلما سرت فيه إتسع ، الأنفاس هنا تخرج بصعوبة .. بالكاد تنتفخ رئتىّ ، الهواء راكد لا نسائم فيه ، والشهيق يلفه صمت وهسيس مدغم .. كأنه محبوس فى قاع بئر ، كل شيئ خانق بحيث لا ينذر بخير ، من حين لأخر يصدر صوت غريب كأنه قرقعة شيئ ما إرتطم بالأرض ، أو رفرفة طير يحلق فوقى ، أصوات لا أعرف حتى أن أصفها ، خايلنى أن أصواتها فائقة أكثر مما يجب ، كلما سمعت صوتاً أقف وأستمع ، حابساً أنفاسى ، منتظراً حدوث شيئ ، لكن لا شيئ يحدث ، ولم يكد الشرود فيها يخامرنى حتى ضج صراخ مفجع ، ثم تردد الصوت عبر الممر الصخرى عائداً برجع مخيف ، فتناوح الخوف فى صدرى يتخطفنى من جانب إلى أخر ، تكرر الصوت ، جلَدت موجاته الحجارة الناتئة إلى أخر المدق حتى كاد يغيب .. لكنه عاد راعداً على نحو يهز البدن ، كلما تردد الصدى إنكمشت جسدى وإرتج .

تلفت حولى موهوماً ، كأن ظلاً يلاحقنى ، نظرت فإذا نسخة منى إلى

جوارى .. تحدجنى برمقات هى أشبه إلى التحدى ، يوسف أخر ، حدقت فيه .. فحدق فىّ ، مشيت .. فتحرك معى ، كأنى حيال مرآة تنقل حركاتى ، أطرق الشبيه للحظة ثم نظر إلى الأمام .. فنظرت مبهوتاً ، ثم مشى برقع وئيد فجذبنى سيره ، فسرت ، وما لبث أن أسرع فى خطوه .. وأنا إلى جواره لا أدرى ما الذى يدفعنى معه خطوة بخطوة ، وبقوة الجذب أطلق ساقيه وحلق راكضاً .. فركضت معه ، كأنه سباق ، لهاث محموم ورغبة جارفة للإندفاع ، عضلاتى تصرخ ، بالكاد كنت ألتقط أنفاسى حتى باتت رئتاى على شفير الإنفجار ، وإذا بصوت يهبط كالصاعقة .. ثم ينثال إلى أرجاء الممر ، كأنه يتردد فى قاع جمجمتى **" عد إلى ديارك ، هذه الأرض مسكونة ، ملعون من فيها " ! .**

إلتفت فى فزع ، رغم ذلك لم أملك أن أتوقف ، عدو جنونى ورعيد يصم الأذان ، عرج الشبيه نحوى بقدمه محاولاً عرقلتى ، زاحمنى بإقترابه حتى كدت أنطرح عدة مرات ، ولكن بعد كل عثرة كنت أعتدل .. فأعدو ، مُشتت الذهن بين الأصداء الصاخبة التى بدأت تدق رأسى من جانب إلى جانب ، تُفرغها ، ثم تتركها ضائعة فى الفضاء ! ، أصداء تتلاحم ثم تتناحر .. كأنها تعويذة رصدها القدامى على جدران مقبرة منسية ، مرددة **" عد إلى ديارك ، هذه الأرض مسكونة ، ملعون من فيها ، جبالها مردة ووديانها جحيم ، ينداح ثراها كالأفاعى الهائمة ، وفى وديانها يعشش الخوف وينام ، هنا يرتعب الجن ويرطن بألف لسان ، هنا كراكاو ، ستبتلعك حتى قبل أن تنظرها ، هديرها دم دم دم ، وصمتها صم صم صم "** .

ركض ورعيد ، وما بين ذاك وذاك .. توقف الشبيه بغتة ، فأوقفنى معه قسراً ، كدت أسقط قبل أن ألمح ذكر عقرب أسود سارح على كم قميصى ، فنفضت ذراعى فسقط ، حينها كان الشبيه يحدق فى أخر الممر ، نظرت ، فإذا خمسة أشباح على هيئة (جبرين الدقاق) .. يتقدمون نحونا متجاورين بخطو حثيث ، إقتربوا ، فتبينت أربعة منهم على هيئات اليهود الأربعة ، كل إثنين على طرف فيما بقى الأوسط على حاله ، جبرين الدقاق ، والذى تقدم نحونا فازعاً .. فى حين إستدار اليهود راجعين فى حركة دائرية ، كل إثنين

معاً على جهتيهما يميناً ويساراً ، ليتحولوا إلى دخن ما لبث أن إختفى ، حينها كان الأوسط قد إقترب مندفعاً .. حتى بات بينه وبيننا قيد ذراعين ، وثب نحوى .. فنكصت فى جفول ، لأجده قد هوى بقبضته على وجه شبيهى فخدده ، فسقطا إلى الأرض .. تلك التى تحولت بغتة إلى سطح مائى ، إرتطما .. فإنتثرت موجة هائلة من رذاذ وزبدٍ أغرقت وجهى ، فرجعت خطوة مصدوماً ، لتشرئب عن الماء زعنفة ظهرية كبيرة بدى أنها لقرش ، حامت حولهما فى دورة كاملة .. قبل أن يغوصا ويختفيا تحت الماء ، فتتبعهم الزعنفة إلى أسفل ، فلم أجد لثلاثتهم أثر ! .

تحسست بقدمى صفحة الماء .. فإذا هى أرض جامدة ، شردت للحظات أستجمع لباب ما رأيت ، ثم إلتفت نحو المدق .. فإذا (جبرين الدقاق) يتقدم نحوى بخطو دراك ، فنكصت على عقبى مكروباً ، أطلق زأرة قصيرة أشبه برغاء البعير ، كأنه يستخف برهبتى .. فإنطرحت على ظهرى ، فإستدار لتوه مغادراً ، غير آبهٍ ، إنفجر حلقه بكركرة مستفزة ، قبل أن تنحدر رأسه عن عنقه ساقطة .. فيميل إلى الأرض ويلتقطها ، ثم إختفى ، مرت دقيقة وأنا أحدق إلى الجهة التى غاب منها ، ثم لحظة سكون ، قبل أن أتلفت حولى فأجد نفسى ساقطاً أمام مدخل البيت المنحوت بالجبل .. كأنما لم أتحرك خطوة ! ، وعلى بطنى يتهدج العقرب الأسود ، ذاك الذى ألفيته سارحاً على كم قميصى ، زحف حتى وصل إلى منطقة الصدر ، ثم نخر بكلاليبه حتى شق ثغرة .. إنسل منها إلى داخل جسدى ، ثم إختفى ، فإنتفضت مذعوراً أتحسس قميصى .. فلم أجد شيئ ! ، لكنى وجدت يداً ممدودة نحوى ، رفعت عينى ، فإذا هو سلامة الكلاف يقول " **قم ، ألم أقل لك خذ حذرك ، ها أنت قد سقط** " ! .

كان الباب مُفرجاً ، يُفضى إلى غور المدق .. حين أقمت راحتى عن صدرى موشاة ببقعة دم ، أسلمتها إلى يد سلامة الممدودة ، نظرت فى وجهه ذاهلاً ، تموج فى عينى وجوه الشيخ ومريم وجبرين الدقاق .. حتى تبينت ملامحه ، ذاك قبل أن ينطق بصوت سمعته أبطأ ما يكون ، وأغلظ ما يكون " **حذارى ، فهذا أقل ما قد تعانيه فى هذه الأرض المسكونة التى تحرسها الشياطين** " ،

" **شياطين !** " ظلت تتكرر فى رأسى عدة مرات .. قبل أن يتراجع سلامة بخطو يطوى خذى ظاهر ، يروغ روغان الثعالب ، قائلاً " **أكمل وحدك ، سأعود إلى مربض الغنم ، الجبل واعر .. ما ذهب أحد إلى بحرة الجن وعاد سالماً** " ، ثم أشار بإصبعه جهة الممر " **هذا النفق هو أقرب درب يمكنك سلكه ، ولكن إحذر هلاوس الطريق** " ، ثم أشاح بوجهه مغادراً .. كأنما تملص من مسئولية تخوَّف من حملها ، تابعت شبحه الغارب بعين تلفظ أخر قدرتها ، فإذا كتفه قد تقلصت وإستحال جسده إلى نحولة ذيل الكلب ، إلتقط زمام حمارته ، ثم وثب وثبة خفيفة .. راح بعدها يتمايل فى قفز راقص رتيب ، كثعلب قنص دجاجة بعد طول إنتظار ، قبل أن يتخطفه الظلام فيذوب فيه .

آنها ، ماهت عينى وشعرت بذهول حاد .. لم أدر معه إقبال من إدبار ، رأسى تدور بين صحو وإغفاء ، لا هو صحو ولا هو إغفاء .. لكن شيئاً من الوعى لازال يقاوم ، لويت عنقى جهة الممر .. فلم أجد الباب ، وجدت نفقاً سارحاً ينتهى إلى عطفة مظلمة وأنا غارق فى متنه ، تنوء جمجمتى بشجرة أفكار مشرذمة ، " **متى ينتهى هذا الكابوس ؟! ** " ، تلفت يميناً ويساراً ، الإتجاهان سيان ، دون بدايات ولا نهايات ، حدقت كالتائه إلى جهة ممتدة دون إنحناءات قبل أن أستدير إلى الجهة الأخرى ، حيث العطفة المظلمة ، لاح إلتوائها المفضى إلى فراغ خافٍ كأنما ينتهى إلى باب الممر ، ومن ثم إلى الواحة ، لكنه الوهم لازال يعبث برأسى ! .

سير دراك ، وذهن مشحون ، وعين أذبلها إختلاط كل شيئ ، النفق متاهة متفرعة بجوف الجبل ، العطفة أفضت إلى ممر ثم إلى عطفة ثم إلى ثغرة .. لينحسر النفق المتجذر عن فغرة رهيبة ، تجويف هائل بحجم واحة كركاو ! ، إن لم يكن أكبر ، محتفر بقلب الجبل ، لا يحده سوى سقف حجرى شاهق فى الأعلى ، ودرك لا يُرى له قاع فى الأسفل ، حملقت فى وهن أيقظته الصدمة وإبتلعته الرحابة الموحشة ، منشأة ممتدة ببطن الجبل .. كأنها بلد إبتلعتها أحشاؤه ، حينها طن فى أذنى صوت الشيخ " **بحرة أنسال الجن** " ، ترددتْ ثم ترددتْ .. ثم سكنتْ حين تراجعت فى وجل خشية أن أسقط

عن حرف الثغرة الشاهق ، نظرت قيد ذراع من قدمى ، فإذا هى هاوية سحيقة ، وبرمقة أرسلتها بعيداً ، غرقت عينى فى بحر من سحب وهلام كثيف .. لا يكسر تهويماته سوى تباب ونتوءات صخرية عملاقة ، منحوتة بوجوه آدمية ومسوخ بشعة ، تتخللها أشجار متشابكة .. تحمل ثمار تتحرك كأنها رؤوس وأذرعة وطاويط ، تلوح خلالها أعين بارقة مخيفة ، وفى الأسفل يشق القاع نهر أسود بلون القار ، يتصاعد منه دخن رمادي قاتم لينضم إلى الضباب السارح فى الأعلى .. والذى يغشاه أسراب سابحة من كواسر الطير والعقبان والبوم ، وأبابيل حوامة أخرى لا علائم لها سوى أجنحة متعددة ، وأعين قاسية حادة المضاء .

حدقت بفاه مفغور ومحجرين بارزين ، ما رأيت شيئاً أفظع وأكثر خيفة مما كان فى هذه اللحظة ، مسوخ تتحرك بالأسفل ، وأسفل الأسفل ، تخرج من الغور والشقوق والحفر ، وتنبلج فى الظلمة ثم تختفى ، أشباح متشيطنة كأنها أمم متعملقة ومسخوطة .. أشبه ما يكون بالطناطل والغيلان والسعالى ، أكثرها ذوى أبدان محنية وأعواد نحيلة ، تنتأ عنها عظام ناشذة تكاد تكون مقلوبة ، وجلود محرشفة بلون السخام .. على أشكال الخيل والإبل والضباب والفيلة والخنازير ، وسائر الحيوانات ، إلا أن السواد الأعظم منها بأشباه القطط ، وقردة لها أظفار كالمناجل ، تكثر فيها الأنياب والمخالب والحوافر والأظلاف ، وخراطيم وأذناب وقرون معقوفة ، منها ما له رأس الإنسان وأبدان كالحيات ، وأخرى لا رأس لأبدانها ولها أفمام وعيون على الصدر وأذناب تتلوى ، وصنف له رأسان وآذان مثل آذان الفيلة .. يمشى على أربع أو ثمانى ، وبعضها بيض وسود وشقر ورقط .. يحمل خراطيم دقيقة وشعر كلبد الأسود ، وزغب أحمر ، ولها أجنحة تطير بها ، وكثيرين من لهم رؤوس آدمية وقرون طويلة ، وتحمل على ظهورها حجر سلحفاة ، ومنهم من لا عظم له ، يزحف زحفاً ، ومنهم من له نصف رأس ونصف بدن .. يمشى على رجل واحدة كأنه إنسان قُد إلى نصفين ، ومئات الأصناف الأخرى .

هالنى المنظر ، كأنها أمـة يأجوج ومأجوج فى سجنها العظيم ، حديثها نواح

وعزيف وثغاء ونقيق .. لا تفقه لبغبغتها شيئ ، لوهلة شعرت بأنى قد إغترقت لأذنى فى حضرة زخم مهيب .. يقلبنى شيئ غير الخوف ، لا هو أعظم ولا هو أقل ، شيئ مختلف .. أشبه بمن يراقب محاكاة لوحوش ما قبل التاريخ خلف لوح زجاجى ، هى فقط الدهشة ! .
وفيما كنت تائهاً فى جمود تام أراقب المسوخ وهى تتحرك .. إذا بيد ممصوصة تظهر عند حافة الثغرة ، لتنغرس أصابعها الطويلة بالحجارة أسفل منى .. قبل أن تمتد بساعد معروق وتحط أمام قدمى مباشرة ، ليشرئب بعدها مسخوط أقرع أشبه بقرد مضعضع ، له عين مسيحة وأسنان مُطرمة ، ناعقاً بصوت مخيف ، ما لبثت عينه ترقبنى حتى تقدم نحوى زاحفاً ، فإلتقط حجراً ، قبل أن يأخذنى جمود حاد ، فألقمته إلى وجهه المثقوب كأنه مومياء .. فتحول إلى ألسنة من الدخن سريعاً ما تبخرت ، ليظهر المسخوط زاحفاً على جدار النفق .

تراجعت للوراء بخطو مرتجف حتى لا أثيره ، وما كدت حتى برزت دويبة بحجم ورل طاعن من جانب الهوة الأخر ، علّقت كلابتها بالحرف الحجرى .. فلمحت إصطكاك ركبتىّ بعدسة عينها الكبيرة ، فنكصت خطوة أخرى حتى تعثرت ، وما إن إنطرحت أرضاً حتى مالت إلى الخلف محلقة عبر الضباب .. مرسلة صفير راعد من أقصى الفغرة إلى أقصاها ، فرفعت المسوخ رؤوسها دفعة واحدة ، وثارت همهمة ضاجة ترددت ببطن الجبل ، حينها لفظت الشقوق مئات الأبدان الشائهة ، تراكمت كأنها أسراب جمال تعثرت فتكومت فوق بعضها ، جميعها تنظرنى .
آنئذٍ ، وفيما إلتفتت مخاليق الفغرة إلىّ جملة واحدة ، لم أجد بداً من الركض ، فإستدرت سريعاً أبحث عن مفر فى هذا الأنبوب الخانق .. وإذا بى ألمح ثلاثة كلاب ضابعة ، تبرز من أحد الطيات القريبة بالنفق كالديادب ، سود ، تشظ حدقاتها ببريق سباع محمومة ، كانت تعدو نحوى واثبة تذرى التراب بأظفارها ذرياً ، وتتلاقف فيما بينها نباحاً غليظاً مستعراً من شدق إلى شدق .. كأنها مسُوقة بحد الثأر ، تلك المسوخ المستكلبة تشم رائحة الأغراب ! ، حينها جفل المسخوط مضطرباً فتقهقر فى خزى ناكصاً على

عقبيه ، وما كاد حتى إستدار مندفعاً فسقط إلى الهـوة ، تلفت حولى فى توتر ، أتخبط جيئة وذهابا كالمسوس ، الفغـرة أمامـى والكلاب خلفى ، جمحت عينى هنا وهناك تتحـرى عن مسلك هـروب أو ملاذ يعصمنى ، وفيما لمحـت صدع يشق حنية بين قائمين بارزين .. رأيت أشباحهم فى ظلال المشاعل الراقصة على الجدران تتواثب نحوى ، فعرجت إلى الصدع بخطو لاهث ، لا أعرف لماذا كرت بى الذاكرة وقتئذٍ إلى هذه الظروف التى حاصرتنى فى موناكو حتى حطأت بى الأرض ، هى ذاتها الكلاب الضابعة ، تشرست حتى لم أجد منها فكاكاً ، لزمت غرزى ، لبضع دقائق ظلت هذه المتشيطنة فى إثرى بركض حثيث ، ونباح راعد ، لم يُثنيها حائل عن اللحاق بى عبر إلتواءات متاهية كأنها أحشاء ثعبان ، من حنية إلى حنية ومن عطفة إلى أخرى لم أستطع التفلت منها ، إلا أن النفق تفتق عن ثغرة أخرى ، فى مفارقة أغرب ما فيها أنى حين يممت شطرها محلقاً بصدر يفح قيظاً .. وجدت نفسى خارج الجبل ! .

أفضت الثغرة إلى أرض مجدبة ، لم أكد اتحقق من علائمها قبل أهب إلى درج حجرى .. واثباً إلى صخرة ناتئة أعلى الفتحة ، متخفياً عن مرمى الكلاب ، ولكن فى وقت متأخر ! ، فقد عاينت بريقها يحيد إلى الجهة الذى فررت منها .. إلى أن لمحتها تقف عند شفير الثغرة تتطلع إلى سلالم الدرج ، حتى رمانى أحدهم برمقة مرعبة قبل أن يقذفنى بعدة نباحات مستعرة ، لبرهة ظلت الكلاب تتنابح وتحاول الوثوب نحوى ، لكنى فى الأعلى تواريت ، إنكمشت فى بعضى وضممت رأسى إلى أسفل الحجر .. لكنها فتئت تنبح وتدور حول بعضها فى سعار ، كانت رائحتى لا تزال تفغم أنوفها ، فراحت تتشمم الدرج وأنحاء الثغرة حتى تخافض صـوتها فى يأس ، وتشظت رمقاتـها هنا وهناك ، ثم عادت أدراجـها تتلفت بين فينة وأخرى ، بعـواء متناوح أشبه بعـويل رضيع ، وما هـى سوى هنيهة حتى إبتلع الجبل كل شيئ ، فيما يبدو أنه غـير مسموح لهم بتتبع الأغراب خارج جرم الجبل ! .

حين زالت الجلبة ، وتلاشت دائرة الهلع .. برزت من مخبئى ، دنوت بخطو

حذر عبر الدرج الصخرى ، وبرمقة ألحت بى إلى الإمعان بغور الثغرة إطمأن قلبى لإنحسار الخطر ، رسخ الظلام آخذاً معه المتشيطنة والمسخوط والدويبة الطاعنة ، وسجى الرطن المختلط والعزيف المبهم إلى جُهمة لا أخر لها .. ليطرق أذنى همهمة جماعية إرتج لها جرم الجبل ، إستدرت مرتاعاً ، تهس لى نفسى بتكهنات سيئة ، فإذا بمسوخ أخرى عند درك الجبل البعيد ، على مرمى البصر ، مسوخ بشعة ، لها هيئات البشر بتمامها لكن بشرتها بلون الذهب .. ولا تخلو من ندوب ووشم وقتب ، يبدو أنها صنيعة جوائح فاجعة لم تصمد لمحوها الدهور ، الغجر فى لُة غزيرة .. كأنهم سيقوا على وجوههم إلى أرض المحشر ، الأمة الذهبية كما يُنعتون ، تراصوا فى صفوف تقوم وتركع كأنها صلاة ، وأكثرهم جاثيين على ركابهم ومشرعى الرؤوس جهة شيئ واقف بالأعلى ، تقدمت خطوة ورفعت ناظرى .. فلمحت طريقاً صاعداً ، فيما بدى إلى قمة الجبل ، يتوارى خلف الجرف الشاهق الذى يحد الثغرة من جهتها الغربية ، وثمة أناس يصعدون عبره ويهبطون مطأطئى الرأس ، آنها ، وبرمقة حانت إلى أعلى نقطة برأس الجبل ، لمحت ظلاً أسود ناصباً قامته بباحة القصر ! .

لم أحتج إلى التحديق كثيراً لأكتشف أن الواقف هو ذاته الشبح الذى داهمنى بغرفة الأضياف بدار الشيخ ياسين ، (جبرين الدقاق) ، هذا الحاضر الغائب ، الذى ما عدت مستوثقاً إن كان حياً أم ميتاً ، لكنه اليوم حياً .. حاضراً بكل مافيه ، مُشرع الرأس عن هالة بارقة تتوسط هامته ، كأنها عين ! ، فى وقار لا يخلو من خيلاء وتكبر ، بدى كملك من ملوك الجن ، يعلو ذؤابته تاج لامع وقرنان معقوفان ، وتحوم حوله غرابيب عملاقة ناعقة كأنها عقبان ، يتردد نغيقها حاداً فيما يشبه دنين ذباب ، وثمة أشباح قاتمة تنتصب حوله مطأطأة الرأس ، تطوقه حاملة مشاعل نار كأنها حاشية حول ملكها ، لحظات من الوجوم ، وحملقة بليدة إلى أعلى وإلى أسفل .. لا أدرى ما بال هؤلاء بهؤلاء ، مشهد أسطورى ! ، ما نزعنى عنه سوى أن الهائمين بالأسفل قاموا جميعاً من ركوعهم فى وقفة وهمهمة واحدة ، وإذا بثلة من الغجر ظهروا خلفى بغتة .. كأنما الأرض إنشقت ومجتّهم ،

حاصـرونى فـى شبه دائرة قبل أن يهم أربعـة منهم بوثاق فقيدونى ذراع بذراع وقدم بقدم ، حينها لاح سلامة الكلاف واقفاً خلف رؤوسهم الناهضـة ، فخايلتنى ملامـح مكيدة أسقطت فيها دون أن أدرى ، وخالجنى أنه ربما تجاوزت حدود محظورة لأرض فيما يبدو إنطلقت منها كل اللعنات ، ولا أدرى حينئذٍ من أين ظهرت غادة وإنتصبت على مقربة مُغترقة فى أسمال مريـم ! ، حدجتنى برمقات تشفٍّى قاسية ، ثم همست فى أسف **" ما أجبنك ! "** .

وما أسرع ما جرى بعد ذلك ! ، رُفعت على أكتاف الرجال مربوطاً على محفة خشبية يحملونها ، ثم إنحدر بى الركب عبر درج ملتوى يُعرقب عنق الجبل ، والمشاعل مُشرعة حولى كأنها شهب دائرة ، كلما مِلت برأسى جانباً ، منافحاً تباريح كتفىّ المنهوكين بأوثقتهما ، بادرتنى أمواج من كثبان رملية متلاطمة ، وحفيف أقدام تحفن التراب فى سيرها المكروب ثم تذروه لتنغرس قدم أخرى ، غاص السائرون فى ليل دامس قبل أن يهدأ كل شيئ إلا من صفير الصحراء ، ونعيق يتردد ، وادٍ موحش ، أسلموا المحفة إلى أرضه المجدبة ثم فضوا أوثقتى ، أوقفونى عنوة ، حينها لمحت أربعة رجال يتلتلون حجر غليظ غير مشذب عن فغرة بئر ، وما كدت أدرك ما هم مُقترفون بحقى حتى بوغت بهم يحملوننى إلى الحافة ، وقتها أيقنت أن ساعتى لا ريب قد حانت ، ما إستطعت أن أقاومهم ، حاولت كبح قدمىّ فى الرمل فساحتا إلى الهواء قبل أن تنغرسا ، وفيما شارفت قدمىّ حرف البئر فج فى وجهى سرب من وطاويط أسيرة ، قبل أن يلفظ القاع أصوات مفجعة لأناس تتعذب ، صراخ وصياح موجع ، فحجّرت قدمى إلى الحافة .. لكنهم أقاموا رؤسهم شطر الواقف هناك عند باحة القصر ، وبإماءة منه زجوا بى دون كلمة واحدة ، وعلى نحو لا أناة فيه ، فهويت إلى قعر مظلمة شديدة السواد ، ولازالت عينى تجتر منظر قط كراكاو ، مسيح العين ، كان واقفاً عند حافة البئر يرمقنى شذراً قبل أن أسقط ، كان عواءه المنكور الممزوج بنعيب بومة بالجوار يطن فى أذنى على نحو يخلع القلب ، لكن صوتاً أخر تردد فإنتهب صخيخهما ، جسد يسقط إلى جوارى فيما كنت

أهوى لأسفل ، حينها إلتقطت عينى فى لمحة خاطفة وجه غادة محتقناً ، مرت جوارى صارخة " **أغثنى يا يوسف** " ، لتسبقنى تشق طريقها عبر الظلام بإتجاه القاع .
وما أسوأ السقطة المكرورة حين تلح ، وتتكرر ، لكنها اللحظة أسوأ بكثير ، ظلامها أرسخ ورعبها طاعن ، فحين لاحت لى الأوتاد المغروسة بجدار البئر كانت عينى قد بدأت ، رغم الظلمة ، تستجمع الأبدان المعلقة عليها ، ذيل الكلب والسمادونى وسلامة وراضى وكثيرين من ناس الواحة ، منحورى الرقاب ومدقوقين من أذرعتهم وسيقانهم بخوازيق بحجارة البئر ، تُمزعهم إنفراجات موحشة وإلتواءات بربرية ، كلما هويت لمحت رجلاً ، الشُجة تبضع رأسه عمودياً كأن فأساً قصمتها ، والرعب يلوح فى المحاجر المفقوءة جحوظاً مفجعاً ، نساء وصغار وعجائز ، نزف وتمزق وعقر غاشم ، لينتهى الأمر بظلمة .. ثم بجسدىّ الشيخ ياسين ومريم مُتدليين بوتدين رُشقا فى منحريهما ، فهزتنى رعشة صادمة ، إختنقت بالهواء الذى احتُجز بصدرى تباعاً خلال دقائق السقوط .. فشهقت ثم زفرت ، ثم أخذتنى نوبة سعال طويلة .

إرتجفت رجفة مفيق من النوم على يد جاسية تشد حبلاً ملفوفاً حول عنقى من الخلف ، أفرجت جفنىّ بصعوبة ، القاع كأنها غرفة وأنا مُقعد فى زاويتها أحتضر ، ألفظ أخر رمق ، تملصت برأسى يميناً ويساراً ، أنظر هذا الذى يشد على وثاقى ويعصر مخنقى عصراً ، لكن عينىّ أظلمت .. فغرقت فى تشنج صفق رئتىّ برعشة قاسية ، كأنما يُفرغ ما بقى فى صحنهما من هواء ، كان بينى وبين الإختناق محض أشبار ، قبل أن أتحول برأسى لأعلى .. فأرى هذا الواقف خلفى ، فإذا هو على نفس صورتى ، وجهه محتقن .. مُرقط بحمرة وصفرة لاهبة كأن فى رأسه أتون مستعر ، وعينيه جمرتان تنضحا ناراً وشرذاً ، يُطوق هامته قرنان ملفوفان .. كأنه شيطان ! .
كاد الذعر يقتلنى وأن أراه يشد على منحرى بوغر عجيب ، مائلاً برأسه للخلف .. يصرخ بجئير مضغم أشبه بجرجار بعير ، تشبثت بالوثاق حتى طوقته بيدىّ .. ثم جذبته بعيداً قبل أن أختنق شنقاً ، إلتقط شهيقاً ثم لفظته

سريعاً ، للحظات ظل صدرى يعلو ويهبط مكروباً .. ويدىّ تحاولان نزع الحبل الضاغط على رقبتى قبل أن يقصفها ، وإذا بى أرى أخر مرئيات كابوس جثوم .. تشبث أن يُتم مرويته الآبدة إلى أخر رمق ! .
إنتفضت رعباً ، حتى أن الحبل إنفلت من يدىّ ، حين إنحسرت الغرفة المظلمة عن خمسة جثث متهدلة بزوايتها البعيدة ، كأنها محنطة ، الشيخ ياسين ومريم وراضى والسمادونى وذيل الكلب ، نسيج العنكبوت المخيم على وجوههم المثقوبة ، وأرديتهم المهترئة ، كأنما توحى بأثر أشباح ترصدتهم .. فأرسلت سدنتها لينزعوا أرواحهم أحياء ، ولا أقسى من هذه الرمقات المفتزعة التى لاحت فى أعينهم المحملقة فى جحوظ مخيف ، إختصرت كل شيئ ، أيقظت فى ذاكرتى المحمومة صرخات ذعر مريعة ، وفى الوقت الذى شعرت فيه بأن الوثاق قد زال عن منحرى ، وفيما تلفت مرتجفاً أنظر هذا الشيطان الذى كاد يُزهق روحى ، إذا بأربعة منهم جاثمين حولى ، ووجه مريم حيال وجهى مباشرة ، همست بصوت خفيض إنتهى إلى صيحة " **ألازلت نائماً** ؟ .. **قم** " ، فإنتفضت مرتعباً .. لأجد نفسى ممداً على مصطبة تستند إلى دار الشيخ ياسين ، على مقربة من الباب ، مغترقاً فى عرق متصبب بارد ! .

تلفت حولى برمقات ذاهلة ، تتناثر هنا وهناك ، صباح متقد نهض منذ ساعة زمن أو أقل ، صباح ككل صباح ، أطلال حول البئر تفوح برائحة سامر الأمس ، وليل بهيم منقضى ، ورجال مرتحلين نحو المرعى ، وصغار فى إثر الماشية تزجرها بعصى صغيرة ، وعربة كارو تجرها فرسة سوداء صاعدة بإتجاه ذروة الجبل ، عرجت ثم إختفت ، لتأخذنى معها للحظات إلى الجهة التى غابت إليها .. قبل أن أفتزع برأس سلامة الكلاف ساقطة أمامى دون بدن ، وإذا بصياح مريم آتياً من خلف الدار ، مغضن بالهلع " **أغثنا يا أبى ، الرجال وجدوا سلامة مذبوحاً فى مبرك الجمال** " ! .

للحظة شعرت بإختلاط كل شيئ ، الهلوسات مثل دخن ينسحب من رأسك إلى رأسك نازعاً عنها حدودها الفاصلة ، الكل تماهى مع الكل حتى لم أعد قادراً على التمييز بين ما هو واقع وما هو محض خيال ، الوجود

والعدم مثل صغيرين يلهوان ، يتبادلان مواقعهما كيفما شاءا ، كل الأحداث باتت أشباه أحداث ، تماماً مثل ضلالات الحمى ، وأوهام ما بين اليقظة والنوم .. حين يتذبذب الحد الفاصل بين حقائق الأشياء ، لا تكد تمسك بخيط حتى يستحيل بين يديك إلى عدم .. لينبت خيط جديد ، وبين ذاك وذاك من المتعة والألم الكثير ، ما تكاد تستشعر بمتعة حتى تجدها ألماً .. وما تلبث أن تشعر ألماً حتى تجده متعة ، هى الحقيقة والوهم فى آن ، محض إستدراجات شيطانية تعرف جيداً مقاصدها ، ولا تخطئها أبداً .

(٧)

كنت من الإنزعاج بحيث بات كل شيئ محتمل ..
" **مات سلامة الكلاف !** " ، حجر الزاوية فى كابوس تلك الليلة الدموى ، والذى برغم عجيجه بالهلاوس والضلالات كان فيه من الدلالات ، فيما يخص عالم كاراكاو ، ما يزعزع النفس ، ويثير الخوف والريبة ، ففيما كان كل شيئ بالواحة حارفاً .. أصبح كل عادىٍ فيها غريباً ، أو بالأحرى غامضاً ، أدركت هذا ربما متأخراً فيما إغترقت فيه لأذنى ، وبرغم أنى كنت أدرك أن الناس لا يتورطون فى المآسى بسبب عيوبهم .. وإنما بسبب فضائلهم ، تساءلت حين فات أوان السؤال .. أين عساى الأن أن أذهب ؟! .
" **مات مذبوحا !** " ، فاقت هواجسى وجموح أفكارى ، هذه المرة ، عدد الموتى والمناظر المقززة التى شاهدتها .. حتى بات الخوف ذاته سطراً مروعاً بدأ يُثبت حضوره فى مروية الواحة ، الأمر الذى زادنى وثوقاً بأن أسرارها الوبيلة أشد تعقيداً مما تخيلت ، إلا أن أكثر ما أثار ضيقى أن هذه الأسرار لم تكن تتكشف جملة واحدة ، وإنما تباعاً ، فى صورة أقاصيص غريبة ، وأنباء متشرذمة .. تؤلف ، إذا ما إجتمعت ، حكايتها الكبيرة .

منذ إنقضت هذه الليلة وبات الأرق غيمة قاتمة تخيم على روحى .. حتى فاقت حدته هوسى وجنونى لسبر أغوار هذه الأرض ، وخبايا ناسها ، والأهم .. سبيل النجاة منها ، وهو الأمر الذى إسترعى إنتباه الشيخ ياسين ، فطفق يروّح عنى بشتى الطرق .. دون أن يعلن لى عما تخفى طواياه ، كان فى جعبته الكثير ، وخال لى أنه الوحيد الذى يعرف بواطن الواحة ، وما وراء جبل كركاو ، وسر هذه العزلة عن العالم ، عن الصحراء ذاتها .. والإنغراس فى بقعة نائية خارج الزمن ، قفراء مرعبة مثل جسد هامد لا صوت فيه سوى السكون ، ورغاء البعير ، والرياح العاصفة هنا وهناك ، بيئة مفرغة من الصخب والعنفوان .. نهارها جامح وليلها موحش حد الصمت ، حتى أنى كثيراً ما تساءلت " **كيف جاء هؤلاء إلى هنا ؟! ، كيف دبت الحياة فى هذا الجسد الهامد ؟!** " ، هل ضلوا الطريق فبحثوا عن ملجئ آمن ؟ ، أم إستقروا هنا على أثر رحلة طويلة ؟! .

برغم أنى بوحت للشيخ بكل ما لدى ، عن مصر وموناكو ، ورحلة الطائرة وسقوطها ، إلا أنه فى كل مرة كنت أحاول أن أستنطق خبيئ صدره .. كانت مراوغته وحديثه الحانى يسبقانى فأحيد إلى وجهة أخرى ، وحده كان يقصدها ! ، كانت أولى خطواته تجاهى ، رعاية لى وتقديراً لغربتى ، أن إستضافنى فى داره .. فى إقامة دائمة وليست مؤقتة بغرفة الأضياف ، وذاك بأن خصص لى واحدة تطل على صحن داره .. غير عابئ بعادات البادية ومألوفات ناسها التى لا تُجيز الأمر ، متحدياً بذلك أقاويل أهل الواحة ، وألسنتهم التى أضحت تسلقه جيئة وذهابا .

مرت الأسابيع تجر فى أذيالها نهارات طويلة ، وليال أطول .. كنت أجوب خلالها ربوع الواحة ملازماً للشيخ ، أو برفقة صغيره وإبنته ، كنت كطفل فقد أثر أبيه ، آنها ، تكشفت لى الكثير من عادات البدو .. غير أنها فى إجمالها كانت غير ذى قيمة ، لم تُسفر سراً أو تفتح لى باباً ، حتى حانت ساعة ضقت فيها بكل شيئ ، وقتئذٍ ، كنت بصحبة الشيخ وإبنته .. نجسر مدق ضيق يطوق الجبانة ، المفضية إلى ما وراء الجبل ..

فيما كان الشيخ يتأبط ذراعى فى حديث هادئ يتناوح بين الخفة والشرود ، وقد تعلقت عينى بعقاب ينقر وجه قط للتو لقى حتفه ، منقاره أشبه بفأس تعزق أرض ، كانت مريم تخلفنا على بعد خطوات .. منهمكة فى إنتقاء بعض الأعشاب الجبلية من جانب الطريق ، ووضعها فى جراب قماشى معلق برقبتها ، يستخدمها الشيخ فى مداواة ناس الواحة ، آنئذٍ ، وبينما كانت مريم تمر بجوار قبر منسىّ يطل على الطريق .. همست " **السلام عليكم** " ، وما لبثت تنقل قدمها غير آبهة .. حتى جاءها صوتٌ يهتف بإسمها ، فعرجت بعينها جافلة ، وإذا بحائط القبر يتشقق ، ثم ينخسف إلى كومة تراب .. ما لبثت أن بعثرتها ريح عابرة ، إنحسر الحائط عن عجوز هرمة راقدة فى كفنها ، أقامت جذعها جالسة .. فجحظت مريم فى ذهـول " **أمى** ! " ، وبزغت مآقيها بدمعة نبضت لتوها ، حينها نطقت العجوز بصوت أبح أنهكه النسيان " **إشتقت إليكى يا روما .. أما إشتقى لى ؟** " ، فضجت عينىّ مريم بدموع حارة ، صامتة ، قبل أن تردف العجوز " **ما بقى بيننا**

سوى تحية الأموت .. حتى هذه ما عدتى تتذكرينها " ، وما كادت حتى إنفجرت مريم بنهنهة خرجت رغماً عنها ، آنها إسترعانى نشيجها فعرجت نحوها مندهشاً ، كانت تبدو كمن يهس لنفسه ، إبتسمت مريم حين أغلقت العجوز سرارها ، قائلة " **كل حين أنتظرك يا حبة قلبى .. فلا تنسينى** " ثم عادت إلى مرقدها ، فتجمع التراب من أحشاء الريح ، وإرتص فى صورة قوالب مدكوكة حتى أُغلق جانب القبر ، حينها فزعت مريم صائحة " **أمييى ! "** ، فتصلبت مدهوشاً " **ماذا دهاها ؟! "** ، فقبض الشيخ على ساعدى " **لا عليك "** ، ثم حدانى للسير عنوة .

" **لا تنسى الحلفا والسِدر يا روما** " قالها الشيخ مُلمِحاً بلحاظ عينه ، فتقدمت مريم حتى كانت بمحاذاتنا مجيبة " **لا عليك يا أبتى ، أحضرت كل شيئ** " ، ثم إلتقطت يد الشيخ الأخرى فحرر ساعدى ، حينها ظلت عينى مرتحلة بين مريم والشيخ ياسين بنظرات خليسة ، مرتابة ، وما إن شعرت مريم بإلتفاتى المتكرر حتى إحمرت وجنتها فتظاهرت بإنهماكها فى تفنيد أعشابها ، فأغضيت بصرى عنها ، وفى إلتفاتة حانت منى بمحض المصادفة إلى تخوم الواحة خال لى ذيل الكلب يجر حمارته متجهاً نحو البحرة المجدبة خلف الجبل ، ينوء ظهر دابته برجل تترنح أطرافه فيما يبدو أنه كان مخدوراً ، فتوقفت أرقبه ، حينها غرقت عينى فى منتصف عينه لهنيهة زمن ، فتحجر مغتاظاً حين رمقنى ومريم سائرين معاً ، غير مدرك لوجود أبيها الذى يتوسطنا ، ضرب كفل حمارته بغتة فأسرعت فى خطوها .

وقتئذٍ تنبهت مريم وقتئذٍ لوقفتى شارداً فضغطت بأصابعها على يد الشيخ ، فلوى عنقه نحوى قائلاً " **أين ذهبت بك الدنيا ؟ "** ، فإلتفت إليه ، ثم عرجت سريعاً جهة ذيل الكلب .. فوجدته قد إختفى خلف الجبل ، وإذا بجثمان القط ، الذى كان العقاب ينهش وجهه ، يقوم .. فنفر العقاب محلقاً ، فحَّ فى وجهى فيما كان يحدجنى بعينه المسيحة .. ثم تواثب مبتعداً إلى نفس الجهة التى غاب إليها ذيل الكلب ، آنها تقدمت فى ذهول ، مجيباً سؤال الشيخ متأخراً كأن بى خدر " **لا .. لا شيئ** " ، ثم أمعنت بأساريره ، قائلاً بنبرة يشوبها الكثير من السخرية والأسى " **أوٍ لو كنت أعرف مكاناً أذهب إليه .. ما ظللت هنا منزرع كنبتة لا تعرف لها جذر** " .

حينها ألاح الشيخ بوجهه نحوى " **صَبْرُك يا ولدى ، تجالد للشدائد تَهون** " ، فتردد صوت غادة محتداً فى رأسى .. حتى طفى على لسانى " **هو ذاته الحديث الذى لا يجدى نفعاً** " ، ثم أطرقت " **ليتنى فقط أعرف بأى أرض أنا هنا .. ولا يهم أن أهلك بعدها** " ، فنطق الشيخ بصوت يغلفه شيئ من الزهد " **كلها أرض الله** " ، فقلت " **إذن أجبنى بربك .. أين ذهبت المروحية ؟! ، أين إختفى طاقمها ؟! ، كل ما أتذكره أنها سقطت ها هنا .. أيعقل أن يغيب جميعهم هكذا فجأة ؟!** " ، وفى رمقة حادت جهة البئر قلقت هواجسى حيال السمادونى " **وما بال أهل الواحة هؤلاء ! ، لا أصدق .. كيف يثقون بهراءات هذا المخرف !** " .

فأطرق الشيخ لبرهة ثم رفع هامته جهة البئر ، كأنه يراه " **المشكلة ليست فى السمادونى أو غيره ، الخطر الحقيقى يكمن فى البئر** " ، وكأنها فرصة حاولت بها أن أستنطقه ، قلت " **البئر .. أوٍ من البئر! ، حكايته عجب ، ما تبقى للناس سوى أن يقيمون لأبا الحديد هذا ضريحاً ويصلون له** " ، فحدجتنى مريم مضطربة ، كأنها ترجونى أن أسكت ، لكن الشيخ بادرنى مزعوجاً " **كذب ، كل هذا كذب** " ، فتحجرت مدهوشاً " **كذب !!** " ، ثم تقدمت حتى إنتصبت حيال الشيخ مباشرة " **ماذا تقصد بكلمة كذب ؟! ، وإن كان كذباً .. فما هى الحقيقة إذن ؟، من هو أبا الحديد هذا ؟ ، وما صلته بالبئر ؟ ، ولمَ يتهافت الناس إليه على هذا النحو ؟ ، كلما تفكرت بالأمر .. شعرت أن رأسى بينها وبين الإنفجار محض برهات** " ، فرمقنى الشيخ ضائقاً ، ثم ند زفرة طويلة " **جبرين الدقاق ، أبا الحديد هو جبرين الدقاق .. لا أكثر ولا أقل** " ، ثم تقدم بخطو مكروب ، فتسمرت فى مكانى ذاهلاً ، أردد بصوت إرتد إلىّ رجيعه بصوت غادة عدة مرات " **جبرين الدقاق !** " .

حينها شردت للحظة شطر الجهة التى غاب منها ذيل الكلب فتيقظت ذاكرتى ، تقدمت بخطو دراك حتى كنت بمحاذاة الشيخ قدم بقدم " **وماذا عن الذين يغيبون عن سامر السمادونى بغتة ؟!** " ، فواجهنى الشيخ ياسين ، وإذا بسحنته تتحول إلى صورة (جبرين الدقاق) بعينه المسيحة ، فى لمحة خاطفة أفزعتنى ، ليعود لصورته تارة أخرى ، بأسارير متذمرة " **نقول طور يقولون إحلبوه ، ذاب لسانى وأنا أحدثكم بأن البئر مسكون .. ولكن لا**

أذن لكم تسمع ، كأنى أحدث أصناماً " ، ثم إندفع بجذعه للأمام متقدماً غير عابئ بى ، غرس إصبعه بساعد مريم يحدوها للسير ، فى إشارة مضمرة لإنهاء الحوار ، لكنى كنت قد توجست خيفة من الرجل ، فصورة (جبرين الدقاق) التى إنطبعت على ملامحه كانت لا تزال تزاحم عينى ، تملؤها ، بحيث كان من الصعب أن أبدد هذا الخوف الذى إنزرع فى صدرى هذه اللحظة ، فأذيل حديثى بسؤال أخر .

" إذن هو جبرين الدقاق " ، اللغز الحقيقى ، آنئذٍ ما ساورنى شك فى أن مبدأ الحكاية ومفاتيح الأسرار تنهض من حكاية هذا الرجل ، تكمن فيها ، فليس معقولاً ، أو حتى من باب المصادفة ، أن يأتينى فى كابوس مزدحم بالمريعات ، مما ليس له علاقة بى لا فى الزمان ولا فى المكان ، فقط ليقص لى واقعة ذبحه ، عبثاً ، ثم يجرى إسمه عبر رسالة حملها الأثير لى خصيصاً ، تلك التى باغتتنى عبر الهاتف ، لتحذرنى بألا أنجر إلى ذات المصير الذى حطأ به ، عبثاً ، ثم تُسفر وثائق المخرج عن مكنونها بأن أربعة من عائلته قد قدموا قبل ثلاثين عاماً إلى الواحة فذبحوا الرجل لأجل كنز مجهول ، عبثاً ، ثم تبوح لى مريم بأن أبا الحديد ذُبح عند البئر .. ليعلن لى الشيخ لاحقاً أنه هو ذاته (جبرين الدقاق) ، عبثاً ، ويأتينى الرجل متشبحاً فى غرفة الأضياف على الصورة ذاتها التى رأيتها فى منامى ، والتى طالعتها فى وثائق المخرج ، عبثاً ، ويخايلنى بمشهد مكرور ، ممتطياً عربة كارو فى صعود وهبوط عبر مدق الجبل ، وعلى ذات الصورة ، عبثاً ، ولا يمكن أن تكون رؤيتى لهذه العربة دون غيرى .. أيضاً عبثاً .

ناهيك عن تلك الغرائب التى طالعتها بالواحة وجبل كركاو وبحرة الجن ، وأوابد ذيل الكلب والسمادونى ، حتى الشيخ ومريم وراضى كانوا فى دائرة ريبتى .. التى إغترقت فيها منهوكاً مستهلكاً ، كثور سقط فى ساقيته بعد سنوات اللف والعمى ، لا يُعقل أن تقع كل هذه الأحداث عند أخمص قدمى عبثاً ، أو بمحض المصادفة ، ولا أكثر خيفة من هذا كله سوى إدراكى بأنى ذا صلة مبهمة بهذا العالم المثير ، وأنى مجبر لإفساح الطريق لتتسلل أشباحه الجامحة إلى عالمى ، سواء فى جنح الليل أو فى وضح النهار ،

كما يحلو لها ، بعد أن زُج بى عنوة .. لأفرج لها كل الأبواب .

لم يهنأ لى نوم هذه الليلة ، فبعد ساعة من حلم **راودنى** على ضوء شعلة خافت .. قض القلق مضجعى ، وأبى الإغفاء أن يدق أجفانى ، حلم غريب تام التفاصيل .. إستقى فيما يبدو بعض وقائعه مما دون بمذكرات ألبرت ، إذ زحف بى إلى الوراء ثلاثين عاما .. فإنتزعنى إلى وكر زاوى بقبو القصر ، حيث إجتمع سراً الشيخ (حسيب) كبير الغجر بأربعة يهود ينتمون لعائلة درزائلى ، هم (إسحق دزرائيلى) حاخاماً ضالعاً .. يدين بالولاء لمنظمة سرية بريطانية ، وإبنه (هارولد إسحق دزرائيلى) مستكشف وخبير أثار إنجليزى ، وإثنان أخران ، هما (يجال دزرايلى) صائغ ومالك ماركة يجال الفرنسية ، و(روبين دزرائيلى) هولندى ، وصاحب مراكز دزرائيلى للصرافة ، كانوا يطوقون طاولة إجتماعات .. كحلقة أفاع تتناوح كيف ستوقع بعصفور صغير ، سرار خبيث ، إختلطت فيه النواياً لوجهة واحدة .. هى الإيقاع بمكارٍ فقير بواحة كاراكاو ، كان الأغراب الأربعة قد بذلوا وعوداً سخية لكبير غجر ما وراء الجبل ، لحبك مكيدة داهية ، حتى يتسنى لهم إصطياد الرجل وقتله ، دون أن يفوح لمصرعه رائحة ، وبرغم تعمد الأغراب إضمار نواياهم والتكتم على الأمر .. إلا أن حسيب ، كبير الغجر ، كان قد إستنبط شيئاً منها ، فأخذ إحتياطه .

إقترب إسحق دزرائيلى من مقعد الشيخ حسيب ، رمقه بلؤم يهودى طاعن ، قائلاً بلهجة بدوية متعتعة " **ولم القلق شيخ حسيب ! .. أليس بالواحة عبد أسود ؟! "** ، فأجاب حسيب " **هم كثيرون "** ، فداركه هارود " **لا نبتغى من بين هؤلاء الكثيرين سوى واحد ، كما تقولون هنا .. مقطوع من شجرة ، ولكن تذكر .. لا نريد أن يتسلل الأمر لأهل الواحة فيؤلبهم علينا ، لا نريد إثارة المشاكل "** ، فأطرق الشيخ حسيب للحظة قبل أن يرفع رأسه قائلاً " **ثمة نفر معدوم الأهل ، لا سدنة ولا نسل ، مقطوع من شجرة كما تريدون "** ، فإستضاء وجه إسحق " **هلا أخبرتنا من هو هذا الرجل "** ، فرفع الشيخ حسيب كفه فى إشارة مراوغة " **نتفق أولاً ، ما هى إفادتى من الأمر ؟ ، وما هو غرضكم من الرجل ؟ "** ، فإحتد يجال الجالس عند طرف

الطاولة " **هذا شأننا ، وما ستطلبه ستأخذه** " ، وأردف روبين " **حبيبى .. لا عليك من الأمر كله ، لا تزج بأنفك فى أمور لا طائل لك بها** " ، فإشتم الشيخ حسيب رائحة تهديد لم ترق له ، فقال بنبرة يشوبها شيئ من التحدى " **هذا شرطى ، وجودكم بيننا بات أمراً مثيراً للريبة .. وأنتم لا تعرفون إلى أى مدى قد يصل سخط ناسى إن تفشى الأمر بينهم** " .

إنتفض روبين واقفاً مقطباً حاجبيه ، لكن إسحق أشار له ببنان فرزح إلى مقعده فى صموت ، عاد إسحق إلى مجلسه محدقاً فى عين الشيخ حسيب بنظرة فاحصة " **تسأل عن الإفادة ، خير لا طائل لك بحصره ، فى واحتكم المقفرة هذه كنز تليد .. والمطلوب عبد أسود** " ، فإبتسم الشيخ حسيب متقداً " **فهمت ، ولكن هل لى أن أعرف قسمتى فى هذا الكنز** " ، فرد إسحق دون تفكير " **نصف ما نتحصل عليه لك وحدك حبيبى** " ، فإتسعت حدقتى هارولد مستنكراً إلا أن إسحق حدجه برمقة ذات مغذى ، ففهم الحيلة ، آنها إلتمع وجه الشيخ حسيب بِشراً ، فقال " **هو رجل واحد ليس غيره .. جبرين الدقاق** " ، فتلاقف الأربعة رمقات مكر متأصله .. تنم عن نوايا وغيرة ، قابلها الشيخ حسيب بإبتسامة أكثر لؤماً وحيلة .

شعرت بشيئ يتحرك أسفل منى فإنتفضت جالساً ، فإذا هو جرذ كبير يقضقض أطراف البساط الذى أضجع عليه ، ما إن شعر بتقلبى على الحشية حتى لملم ذيله منسحباً ، فتنهدت ، ثم أفرجت النافذة المواربة أعلى دكة الحجر التى أنام عليها ، أرسلت بصرى شطر الجبل ، والبئر المرشوق عند دركه ، أتنسم بعض هواء السحر البارد ، لم أبال بهذا الحفيف الذى أسمعه من آن لأخر ، كنت أعلم أن مريم تراقبنى من فرجة الباب ، لمحت ظلها يتحرك على جدار القبر المقعى بصحن الدار ، كانت تلك عادتها كلما تململت فى نومى ، تقض مضجعها ، وتنفر من غرفتها ثم تنتصب أمام الباب ، وترقبنى من فتحتة المواربه حتى أغفو ، لم أكترث يوماً أن أبحث وراءها ، كنت أناهض شعوراً قد بدأ يجوس بصدرها تجاهى منذ أن رأتنى ، لم أكن مفيقاً لها ولا لغيرها ، لم أكن مفيقاً لشيء ! .

كانت العـلامات التى تهوى فوق رأسى تباعاً أقوى من أن أتجاهلها ، فحلم

هذه الليلة أسفر عن سر أهم بكثير من موقع (جبرين الدقاق) فى حكاية واحة كراكاو ، الكنز ! ، ذاك الذى لأجله جسر الأغراب الأربعة مئات الفراسخ ، من أخر بقاع الأرض ، فوجئوا عنق مكارياً فقيراً ، ولأجله أيضاً كانت رحلة الفيلم الوهمية .. تلك التى جرجرتنى فى أعقاب حفنة من المجانين كشاة تساق إلى الذبح ، ولا ريب أن بعثات أخرى ربما قدمت فى زمن ما لواحة الرعب هذه ، ولذات السبب .

إذن هو الكنز .. السر الحقيقى والأهم فى تاريخ الواحة ، حجر الزاوية ، وليس (جبرين الدقاق) كما تخيلت ، إذ لم يكن الرجل سوى وسيلة .. لا غاية الأمر ، الكنز هو الباب الواسع الذى قد أنجو خلاله من تيه كركاو ، رغم صدوده ، الأمر الذى جعلنى أتندم كثيراً على هذا الوقت الذى أهدرته عبثاً ركضاً خلف أشياء لا تجدى ، السمادونى تارة ، وذيل الكلب تارة ، وجبرين تارة ، وغيرهم ، والحقيقة طوال الوقت كانت من الوضوح كالشمس لذى عينين .. فيما كنت منصرفاً بالكلية خلف هراءات العامة وتخاريف شيخهم .

آنها كان على أن أتحرى بين الناس عن قصة هذا الكنز ، وأكثر ما يشاع عنه من حكايا وأقاويل ، كان على أن أبدأ ، أن أتخير نفراً من أهل الواحة أنطلق من ناصيته ، وما إن إمتطت رأسى صهوة الفكرة حتى تصدر ذيل الكلب ، رغم نفورى منه ، جملة من فكرت بهم ، إلا أن صورته ما إن جالت بخلدى حتى تجهمت غادة فى أذنى بلهجة بدوية محتدة " **ضاقت بك الأرض فلم تجد سوى هذا ، حذارى من ذيل الكلب** " ، كررتها عدة مرات " **حذارى من ذيل الكلب** " حتى ضقت ذرعاً ، فأشحت برأسى شطر الباب الموارب ، لاتزال مريم واقفة ، وفى اللحظة التى رددت فيها غادة تحذيرها للمرة الأخيرة .. كانت ملامح مريم المواراة خلف مصرع الباب تملأ عينى ، فإختلط علىّ وجهيها بين طيات شرودى ، فصرخت فى وجهها متململاً دون وعى ، ظاناً أنها غادة " **إيييييه .. كفاك دنيناً فى أذنى** " ، فإنتفضت مريم خلف الباب وركضت إلى غرفتها مذعورة ، وفيما خرجت ورائها ، محاولاً اللحاق بها ، بدى الأمر لى منكوراً وشائناً فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فعدت أدراجى آسفاً ، وما إن تجاوزت عتبة الغرفة ، وعلى بعد

خطوة من الباب ، فوجئت بمريم جالسة على دكة الحجر .. فوثبت مرتعداً ، وفيما تلفت خلفى ، حيث غادرت مريم ، إذا بباب الغرفة ينغلق بغتة برقعة مدوية .. فأخذتنى رجفة صفقت نوافذ صدرى ، وما إن إستدرت إليها حيث تجلس .. وجدتها قد إختفت ، فسقط قلبى إلى قدمى ، فتقهقرت مرتعداً حتى رزحت إلى الحائط ، مغترقاً فى جفول وحملقة طويلة .

زادنى هذا التمادى السافر عزماً على الفرار بجلدى ، آنئذٍ أصررت ، وبعناد مبهم ، على جعل ذيل الكلب ناصية إنطلاقى ، إذ لم أجد من هو أهون منه جانباً ، ربما لسهولة مجاراته فى مراوغته وإدعائه الخرف والجنون ، وللإستفادة من هذا السجال الصبيانى لإستقطار معلومة من هنا أو هناك ، فما أكثر ما يمكن أن يزلق به لسان من يظن نفسه الأدهى ، والأكثر فطنة ، خاصة إذا أوقعه حظه العاثر فى شخص يكشف طواياه ونواياه الخبيئة ، لكن هذا ما كنت أظنه ، ويبدو غبائى كان جامحاً إلى حد أسلمنى إلى وهم لم يرسخ فى رأسٍ سوى رأسى أنا ، فما أسوأ ما جلبه لى هذا الإختيار من رعب لم أجد حياله عزماً ولا صداً .

فبينما كنت أطوف بحدود السامر بأعين مترقبة كشبح راصد .. أتحين فرصة للإقتراب ، كان الفتى منهمكاً فى مخاتلة صبيٍ صغير ، لم يتجاوز الخامسة ، بإحدى حيله البهلوانية ، إقتربت حتى كنت خلف ظهره مباشرة ، ربت على كتفه .. فإستدار مدهوشاً ، لكنه ما إن رآنى حتى تغضن عابساً ، ونكص كقط أنوف ، لكنه تدارك سريعاً فإبتسم ، ونفسه تهش بلؤم مكشوف " **يا حبة قلبى ، بقدمك تأتينى .. تعال** " ، كنت أسمع هسيسه الساخر فى تعبيرات وجهه المُفتضحة ، وعين كذوبة كنت أستنطقها حرفاً حرفاً ، أدركت منذ الرمقة الأولى أنه بدأ لتوه سجاله معى ، وحكأ فى هنيهة زمن خطة خداعى ، إنفعاله الفائض وحركاته الزائفة كلها كانت تتكلم وتبوح بإسهاب ، ولا أكثر من إسستشرافه المباغت ووثبه كمعتوه ، ما راعنى منه سوى لعابه الذى ظل يتأرجح على وجهى حين إقترب ليقبلنى ، وفيما أبعدته ماسحاً أثر قرفه بطرف قميصى إستدار مدبدباً كقرد السعدان ، ثم إقترب تارة أخرى قائلاً " **أريد طبق كِشك** " ، وقبل أن يأخذنى

الإستياء ، إبتسمت مرغماً " **طبقاً كاملاً ! .. أول ما تشطح تنطح** " ، فرد بدعابة " **وهل حُرِّم على حسين البيض ! ** " ، فنظرته مستغرباً " **حسين من ؟! ** " ، فرد بسفور " **زوج أمك** " ، ثم أطلق ساقيه غارقاً فى لُحمة السامر ، فإبتسمت رغماً عنى .

أنئذٍ ، لاحظت أنه يركض حافياً ، وإسترعى إنتباهى أنى لم أره ينتعل حذاءاً قط ، وكانت هى الثغرة التى تذرعت بها ، ترجلت نحو بساط الإسكافى المندس بين باعة السامر ، ثم قايضت الرجل بالسترة التى أرتديها مقابل نعل جديد من زعف النخيل ، كان ذيل الكلب آنذاك يباشرنى متظاهراً بقفزات صبيانية أشبه بوثب القرود ، توجهت نحوه ، لأصطدم بمريم فى طريقى قبل أن أناهزه بخطوات ، تهمس كحية حضرية " **حذارى من ذيل الكلب** " ، فإرتبكت ، وغمرتنى نوبة ضيق بهذه الضلالات التى نزعتنى القدرة على التمييز بينها وبين غادة ، رغم ذلك أزحتها ثم أكملت طريقى بخطو عنيد ، غير عابئ بها أو بغيرها .

ألقيت النعل بين قدمى ذيل الكلب " **ما رأيك ياصاحبى ؟ ، هذه النعل من الساعة لك** " ، فمال الصبى وإلتقط النعل لاهجاً ، طوقها بين كفيه فى سعادة مصطنعة ، ثم أطلق ساقيه راكضاً ، بقدم حافية ، حتى ناهز طرف السامر ، ثم عاد مرة أخرى ، حينها تلفت حولى كاللصوص ثم دسست يدى فى جيب القميص .. وأبرزت علبة سجائر ، تلك التى نفحنيها ألبرت ، ووجدت ثلاثة منها بحقيبته ، أخرجت سيجارة ثم قدحت طرفها ، وسحبت نفساً ، خاض حتى لامس معدتى ثم نفثته دخاناً غزيراً أغرق وجهه ، كنت أعرف أنه حتماً سيطلب واحدة .. ذاك الذى يتعلق بكل غرض جديد ، وبخاصة تلك الأشياء التى تضن بها بريتهم ، وقد كان ، رمقنى ببلادة " **أريد واحدة** " ، وما إن أبرزت العلبة حتى إنتزعها من يدى برعونة .. فسقطت ناثرة ما بها ، فجثوت لأجمع ما إنتثر ، فجثا معى وراح يبعثرها فطرقت يده حتى كف ، لملمت السجائر وأبقيت واحدة ، ثم إنتصبت محذراً " **لا يجوز أن تدخن أكثر من واحدة ، وهاك العلبة كلها لك** " ، فنزع السيجارة وإلتقمها مقلوبة ، ثم دس العلبة فى نطاق حول

خصره ، فناهضته وعدّلت السيجارة بفمه " **هذه تُشرب هكذا ، لا تقضمها .. إنتظر** " ، ثم أشعلت طرفها مردداً " **إسحب .. إسحب مرة أخرى** " ، فنفث غيامة كثيفة بعد أن إستهلك نصف السيجارة فى نفس واحد .

كان من شراهتة أن تبلغ بخمس سيجارات قبل أن تمر ربع الساعة ، حينها كان الخدر قد بدأ يزحف رويداً من أخمصه إلى ذوؤابة رأسه ، فوقع ضحية سيجارة معجونة بسائل مسكر .. كنت قد إنتهبته من إحدى قوارير الشيخ ، حدق فى وجهى بعد أن أذهله الخمول ، وشعر أن السامر يدور به " **كم أنت كبييير ! ** " ، فإبتسمت هازئاً " **حفظك الله ، وأنت على أفضل ما يُرام هكذا ، هيا أقم صلبك لتتحرك** " ، ثم أسندته ممسكاً بقياد حمارته ، تلفت حـولى ثم دفعت جسده المنهك جهة الجبل ، كان يتحـرك بخطو ثقيل بالكاد تعثر قدمـه على موطئ خطـوها ، متمتماً بصـوت همكه السُكر " **أنت كبير وأنا كبير .. فمن إذن يسوق الحمير ؟! ** " ، فقلت فى ضيق" **نسوقها معاً ، لا تتطوح هكذا .. ستسقط أبادك الله** " ، حينها كنت أتلفت وجلاً خشية أن يلمحنا أحد فيُفتضح الأمر ، ولا أكثر من توجسى من مريم والسمادونى ! .

ما إن ناهزنا السيارة المرتدمة ، حتى سقط ذيل الكلب إلى قمرتها المكشوفة ، جاراً فى يده الخُرج عن ظهر حمارته .. لينطرح مِلئه إلى الأرض ، فرفست الحمارة بغتة ، ثم أطلقت ساقيها للريح فى ركض أهوج ، فإنتفضت ناظراً إليه خشية أن تكون السقطة قد أفاقته ، لأجده يغط بقاع السيارة مخبخباً ، كنومة أهل الكهف ، فنفخت " **أهلك الله نسلك ، رجل رذيل** " ، ثم تحريت الطريق خلفى فى إضطراب .. لكن الأرجاء كانت خالية ، لم يساورنى شك آنها أن مريم كانت ترقبنى فى خفية دغل النخيل ، إنقضضت إلي أردية الرجل أقلبها .. فلم أجد شيئاً ذا قيمة ، فردة حذاء ، مِزع أقمشة ، فتات خبز وأشياء أخرى ، فتفلْت فى وجهه مستاءاً " **مقلب قمامة ! ** " ، أطرقت حائراً للحظة قبل أن أعرج بعينى جهة الخُرج ، المنطرح كصاحبه ، فلمحت رقعة من الجلد بارزة عن فمه ، عند حشيتها وسم بائن لـ (جمجمة يخرج منها ثعبانين) ، فإنكببت إليها ثم سحبتها ، وكانت الصدمة ! .

أخر ما كنت أتوقعه أن أعثر على الرقعة الأصلية للوثيقة المنسوخة ، التى وجدتها بحقيبة ألبرت ، بحوذة رجل تافه مثل ذيل الكلب ، رقعة يقارب عمرها زهاء الألفى عام ، لم أشغل بالى إن كان قد سرقها أو عثر عليها ، وقتئذٍ ، ما أهمنى شيئ سوى أنها الأثر الوحيد الباقى عن الأربعة الذين ذبحوا (جبرين الدقاق) ، والأغرب أنى عثرت على خريطة قديمة للواحة ، مرسومة بخط اليد ، تصف كل بقعة فيها .. البئر والجبل والقصر ، وخطاب مراسلة وحيد ، يبدو أنه كان فى السابق مسوجراً ، مكتوب عليه بإنجليزية واضحة (سرى جداً) ، فتحت المظروف ، كان ممهوكاً بعرق أيادٍ كثيرة تناقلته وجعدته ، إنحسر عن خطاب قديم مكتوب بالعبرية ، وورقة مُصفرة صغيرة ، بالإنجليزية ، أكل الزمن عليها وشرب ، كانت من الصغر والهشاشة أنى لم ألحظ سقوطها فى ظلمة هذا الليل ، إلتقطتها ، كانت مصبوغة بحروف زال بعض حبرها وبرش بعضه الأخر ، لم أميز منها سوى عبارتىّ (الهيكل ، أرض الميعاد) ، الأمر الذى كر بى إلى تلك الفقرة التى قرأتها بكتاب ألبرت ، الذى إختلسته من حقيبته أثناء جلسات التحضير ، والتى تنوه أن كنوز قمران إنما إدُخرت ودفنت لأجل بناء الهيكل الذى سيتم فيه إستقبال المخلص ، برغم أهمية المعلومة إلا أنها لم تكن ذات أهمية فى الوقت الآنى ، فضممت الورقة إلى الخطاب داخل المظروف .

تحريت فى الخُرج عن شيئ أخر .. فوجدت قطع شطرنج ، وألة تصوير صغيرة ، وطلقات نارية قديمة الطراز ، وأشياء أخرى لا قيمة لها ، فأودعتها حيث كانت ، وإذا بى أسمع خشخشة شيئ يتحرك بقاع السيارة ، فإنتصبت رويداً ، وفى حذر .. لأجد ذيل الكلب حاسراً أجفانه عن عينين ممسوحتين ، جاحظاً نحو السماء بنظرات مخيفة كأنها لقتيل ، فإرتجفت ، فطويت الخطاب والوثيقتين بحركة خفيفة .. ثم دسستهما فى دثرة القميص ، ثم إستدرت سريعاً لأفجأ بقط كركاو الأسود فى وجهى ، واقفاً إلى جانب السيارة ينظرنى شذراً بعينه المسيحة ، تراجعت خطوة ، ثم تجاوزته ماراً بحدود السامر خلسة دون أن ألتفت ، ثم عدوت جهة دار الشيخ ياسين ،

فبرزت مريم عن دغل النخيل ترمقنى فى عجب ، آنها ، وفيما مررت بزاوية الدار .. كان الشيخ مسترخياً بخيمته ، كنت من الغفلة أن دخلت وأغلقت الباب .. غير آبه بأن الرجل قد إلتفت لقدومى ، فإعتدل فى جلسته .

(٨)

بينما كنت فى غرفتى مستغرقاً فى المقارنة بين وثائق ألبرت ووثيقتى ذيل الكلب ، أفتش عن شيئ جديد ، شعرت أن الوثائق تنغلق على مكنونها ، وكأن الأشياء تفقد قيمتها إذا ما تمزقت الصلات بينها وبين أصحابها ، تماماً مثل القطط التى تموت ، أو يتغير سلوكها .. فى إثر موت مُقتنيها ، وبقدر ما كانت الأسرار تتكشف رويداً فيما سبق ، بدأت الضلالات تتمادى إلى حد مرعب ، ففيما كنت أزج إحدى الوثائق بطرف إصبعى ، ثم ألتقطها ، فى يأس عابث ، وفى غمرة عصف ذهنى حاد قلبنى .. إذ بالحروف والرموز ، المخطوطة بحبر أسود قديم على الصفحات المفردة أمامى ، تنسل عن متونها كأسراب نمل راكضة ، ثم تتشابك فيما بينها فى شبه خيوط دقيقة ، تقاربت ، ثم إلتفت حول بعضها فى حزمتين .. كأنهما حبلين مجدولين ، زحفا نحوى فى حركة متعرجة كحيّتين ماكرتين ، آنها كنت من البلادة أن فقدت أي ردة فعل ، كنت أحملق وحسب ! .

أفرجت الجديلتان ، المؤلفتان من مئات الحروف المصفوفة ، مقدمتهما مثل أطراف الأصابع ، وإذا بهما تتحولا إلى معصمين مهترئا الجذع ، كأنهما معصمىّ مومياء بالية بلون القار ، ما لبثا حتى قبضا على يدىّ بغتة ، فإرتجفت مفزوعاً ، مفيقاً ، لأجدهما قد تفككا سريعاً .. حتى إستحالا تارة أخرى إلى خيوط دقيقة ، ثم حروف ورموز منثورة على صفحات الوثائق المفردة ، ومن ثم تآكلت المسافات بينها حتى إنتظمت كما كانت ، ذلك قبل أن تتحجر عينى عند لفظتين متجاورتين عند الجانب الأيسر من الخريطة ، (الكنز ، البئر) .

آنها ، كان الشرود من الحدة أن ماهت عينى فأطرقت للحظة ذاهلاً ، وما هى سوى هنيهة حتى إستفقت ، كان علىّ أن أجد ما يفض طلاسم هذه الملغزات ، أرخيت الوثائق كلها أمامى متراصة بالترتيب (المخطوطة ، الخريطة ، مذكرات ألبرت ، المراسلات) ، رغم إقتضابه ، أسفر الخطاب المسوجر ، المدعوم بعبارة (سرى جداً) ، عن أشياء جديدة لم أكن أعرفها ، فبرغم ما جاء عن الغجر الذين ساعدوا الأغراب فى قتل (جبرين الدقاق)

.. كشف الخطاب بصراحة بالغة بأن الكنز الذى دارت حوله كل هذه الأحداث مدفون بالبئر ، وأن اليهود إنما ذبحوا (جبرين الدقاق) خصيصاً لأجل تقديمه كقربان لفتح حجر البئر ، ولكن بالعودة إلى مذكرات ألبرت نجد أن اليهود قد إختفوا فجأة ، وفى ظروف غامضة ، بعد قتل الرجل ، ويبدو أن ألبرت كان قد إرتاب بأن الغجر غير مبرئين من دمهم ، إذ ذكر صراحة بأن الغجر البربريين تخلصوا من أجداده .. دون وجود إشارة واحدة تشى بأن الكنز قد خرج من مكمنه ، لا بواسطة اليهود ولا الغجر ، لكن الأهم من هذا كله هو ما أقرته عبارة دخيلة ، أُقحمت بحشية الخطاب المسوجر على إستحياء ، بأن الكنز المقبور بقاع البئر .. هو ذاته (دُرْج قمران المفقود) ! .

مما يعنى ، على نحو لا يحتمل الشك ، أن الكنز يعود لـ (جماعة قمران) ، الطائفة الخفية التى تناولتها فقرات الكتاب الذى إختلسته من حقيبة ألبرت أثناء جلسات التحضير ، حين كان منهمكاً فى حديث جانبى مع المصور ، تلك التى ميزها بلون خاص ، أتذكر أن جميعها كانت تتحدث عن تاريخ هذه الجماعة ، وأن ثمة فقرات بعينها كانت تصف مخطوطين غاية فى السرية .. عبارة عن دُرْجين تم صبهما من نحاس سميك مطروق ، دُون بهما قائمة بالأماكن التى قبرت فيها جماعة قمران دفائنهم وكنوزهم ، والتى تُقدر بمئات الوزنات من الذهب والفضة ، وأن دُرْجاً منهما كان قد سُرق بواسطة جماعة من الكهنة الذين كُلفوا بحفظه ، كانوا قد فروا به إلى برية مجهولة بصحراء مصر ، ثم خبأوه بجُرنة سرية بواسطة طقس خاص .. أعانهم في عقده زمرة من أوعر سحرتهم ! .

كانت الأسرار من البوح الصارخ ، والصراحة المؤرقة .. أنها أصابتنى بدوار بارح ، شعرت بدوامة أفكار تنداح فى قاع جمجمتى ، طوحتها من الداخل إلى الخارج كإعصار جامح .. فأزحت الوثائق عن الطاولة فى جمود وخدر ، كدستها أمامى فى رصة واحدة قبل أن يحدونى ، رغماً عنى ، تثاؤب لحوح ، رزحت على إثره إلى الجدار خلفى ، والذى بدى فى هذه اللحظة أكثر علواً من جبل كاراكاو نفسه ، أنئذٍ كنت أقاوم خيالات ثقيلة تنداح إلى

رأسى تباعاً ، ألبرت واليهود الأربعة والوثائق وثلة قمران وذيل الكلب ، ووزنات الذهب والفضة ، إلى أن غالبنى نوم دهوم .. فإستسلمت له .

.....

٧٠ ميلادية - الأردن / كهوف البحر الميت

قبل بزوغ شمس الصباح بساعة زمن ، ولج (يهوذا) الصغير إلى (متيّا) ، جده الذى تجاوز عامه الثانى بعد المائة ، فى غرفة النسخ والكتابة ، رغم كهولته ، التى نهشت من روحه أرداحاً ، إعتاد الكاهن المتهدم كأنه دمية الإنزواء وقت الصبح بين رقاع الجلد ، ودواة غمست فيها ريشة صقر .. يدون أحد أسفار الكتاب المقدس ، بأرامية وعبرية قديمة .

تلك الغرفة المحرمة التى يُمنع على صغير مثله دخولها ، واحدة من قاعات كبيرة مفتغرة ببطن جبل قمران ، لها إطلالات على مجرى البحر الميت ، فيما يشبه الكهوف ، خصصت لأغراض السكن والطعام والإعتكاف والخدمات ، تحتوى قاعات النسخ منها على طاولات ممتدة ، ومقاعد مثبتة تحد القاعة يميناً ويساراً ، قُدت جميعها وصُقلت من حجارة الجبل ، ترتص فوقها أكوام من مخطوطات الجلد ، مفردة ومطوية ، وثمة رفوف ومناضد منفصلة خُصصت لنفس الغرض .

تقدم (يهوذا) من الشيخ الواهن ، تحدوه رجفة إضطراب ووجل " **ما بالك مُبكر يا جدى ؟! ، لازلت مريضاً** " ، كان موقناً بأن هذه الأعراض التى ألمت بجده فى الآونة الأخيرة لن تتركه حتى تفتك به ، حينها لم يستطع الكاهن الموقر أن ينهض لينهر صبيّه ، الذى أذاقته سبعة أحوال منصرمة مرارة اليتم بيد عدو لا يرحم ، كافر بتعاليم المُخلص ، هى حصيلة عهده بهذه الحياة ، لم يملك سوى أن يومئ له بالخروج " **ما الذى أدخلك إلى هنا ؟ ، ألا تعرف أن قاعة الكهان محرمة على الصغار** " .

قاعة الكتابة كالمحراب ، مخضبة بدماء طاهرة ، لا يدخلها سوى طائفة الكُهان .. حتى الملوك يحرم عليهم الإقتراب من عتباتها ، ولولا بكور الوقت على جيئة الكُهان لعاقبوه أشد العقاب ، دون الإلتفات لإسهاماته طوال سنواته المائة ، لإختراقه حرمة الخلوة ، والمحاذير الصارمة التى رسختها تلك الجماعة ، التى نبتت فى خفية من الزمن نفسه .. لإرساء

طقوس الكتابة والتدوين ، والتى تقتضى عدم التسلل للقاعة فى غير وجود بقية الكهان ، حتى لا تساور ضمائرهم هنيهة عوار حول دقة وقدسية ما يُدون ، وحتى لا تُصبح قاعة الكتابة مشاعاً لكل من يرغب فى الدخول ، أو إختلاس النظر .

تحجر (يهوذا) للحظة ثم إقترب بحذر ، قال متعتعاً " **إنتهبنى القلق .. فلم أطق صبراً ، كيف أصبر وأنا أراك تهمل صحتك على هذا النحو ؟! "** ، كان الخوف قد جمح بقلب الأم المنكودة فأرسلت وليدها ليطمئن على جده الأرمل .. بعدما قضى ليلة شاقة ينازع فيها ألاماً شديدة أحاطت برأسه ومعدته ، ذاك الوباء اللعين الذى ما لبث يُطيح برؤوس الطائفة رجل تلو الأخر .

حين تطلع (متيّا) إلى وجه (يهوذا) ، فلمح فى أساريره مخايل ذعر وجفول لم يرها من قبل .. أشفق عليه ، فأشار له بالإقتراب ، وما كاد الصغير يدنو حتى إلتقطه بين دفتيه وزفر دمعة ، مسحها بطرف إزاره قبل أن يدفعه برفق ، يحدثه كرجل بالغ " **لن يهنأ لى بال قبل أن أدون ما بقى من سفر الخروج ، إن توانيت أنا .. فلن يتوانى الموت "** ، وما إن سمع (يهوذا) سيرة الموت المقبضة .. حتى تجاسر على خوفه فتقدم وإلتقط الريشة ووضغها فى دواة الحبر ، كاد يسكبها ، فإستمهله (متيّا) " **على رسلك "** ، ثم أطرق للحظة " **حسناً دعنى أغلق المخطوط أولاً "** ، حينها أطبق (متيّا) دفتى المخطوط الضخم الذى أمضى عاماً كاملاً يدونه ، أوصده بقطعة شمع ذائبة أفردها على غلافى الدفتر ، ثم دمغها بخاتم خاص ، حُفر عليه عبارة (متيّا ، سفر الخروج) .. حتى لا يتمكن أحد الكُهان من فتحه ، أو الإطلاع على نصوصه ، إذ كان كل كاهن يختص بكتابة سفر بعينه ، أو قطع منه .. مما يقتضى الكثير من الحرص والأمانة .

أقام (متيّا) يده الكليلة ثم أرساها برفق إلى كتف الصغير ، قائلاً " **خذنى أولاً إلى ذروة الجبل لأعاين ما بقى من خرائب قمران .. علّها النظرة الأخيرة "** ، حينها تجالد الصبى حتى أخذ بيد جده عبر درج صاعد يُفضى إلى ساحة مستوية ، تسمح بالوقوف والنظر ، كان المشهد من أعلى يمنح من الراحة بقدر ما فيه من جلال ورهبة ، إلى اليمين إنحدار تبة قمران العظيمة

، من هنا تبدو الكهوف كأنها فُغَر خلية نحل .. ويمكن أن تلمح كاهناً أو أكثر قد تسلل إلى صوامع تخزين المخطوطات ليطمئن على سلامة الخاتم الذى دمغ به ما كتب ، وإلى اليسار البعيد يتمطى البحر الميت .. غور أسود مخيف ، يمتد إلى الجانبين بلا بداية ولا نهاية .

نظر الكاهن شطر هذا الميت ، المتمطى فى إسترخاء وسكون ، يحدوه أسى غريب ، تنهد قبل يشير ببنان راجفة " **هنا ، قبل ميلاد هذه القاع السوداء ، جاء جبرائيل الملاك يرفع جناحاً ويحط جناح .. سكب قوم لوط فوق بعضهم البعض ، لم يهابهم ولم تزعجه كثرتهم .. كانوا كثُلة نمل إجتمعت على قطرة ذرفتها جبينه ، إن كان لجبينه قطر ! ، هنا كان الصراخ يغشى باحة السماء ، جئير وصياح ، وديكة تتناوح فوق الرؤوس ، وتهتهات رخيمة محشرجة أعجزها الرحيل المحتوم ، هنا وقف جبرائيل .. يعلم الله وحده كان ضاحكاً أم آسياً ، أم غشيه شيئ عظيم ، مال بجناحيه ثم إرتفع ، ثم كب الظالمين كباً ، فى هذه القاع يا بنى تموج أبدانهم ، هنا ترقد أمة فى السابق عصت ربها ! "** .

ثم أطرق (متيّا) للحظات قبل أن يستدير فيواجه الصغير ، كأنه سيُفضى إليه بوصيته الأخيرة ، قبض على منكبيه ، ثم أشار إلى خربة قمران وتلك السهوب الممتدة حولها " **وهنا يا ولدى ، فى هذه الأرجاء .. قبر الكُهان إرثكم الحقيقى ، كتاب نبيكم ودفائن أجدادكم ، طمروا كنوزكم فى جرون خبيئة .. طرحوها فى بقاع شتى فى طى هذه السهوب والوهاد** " ، ثم عرج نحو الكهوف البادية بإنحدار الجبل " **وها هنا ، فى هذه الغور المعلقة ، خبأوا مخطوط من نحاس مطروق .. نقشه صغار الكُهان بلغة آباءنا ، هو دليلكم إلى تلك الجرون الخبيئة التى دفن بها الكهان كنوزكم ، مواضعها ، ومقادير ما قُبر فيها** " .

ثم جثى (متيّا) قبل أن يرفع هامته للسماء ، يمعن فى قبتها تارة ثم يحدق فى وجه الصبى تارة أخرى " **إذا جاءكم المُخَلِص يابنى .. فلا تنس أن تضع لى حجراً فى هيكله ، ولا تنسى حظك وحظ أمك .. وجدتك ، إذا إمتد بك العمر لهذا اليوم .. تضرع له ، قل له أنى إنتظرته كثيراً ، لكنه لم يأت ، قص له كم عانت أمتنا وذاقت مر الأيام ، ولم نقنط أو نكفر بعقيدتنا ، لم تُسفينا**

الدهور كما فعلت فى الأمم السابقة ، كلما ثرثرتنا الأيام .. عدنا فلملمنا شواردنا ، إحك له ، إن كان لديه وقت ليُصغى ، كم تجالدنا وقاتلنا لأجل هيكله ، وإستشرافه فى أرض الميعاد " ..

ثم تطلع (متيّا) للسماء .. يرنو إلى شيئ بعيد المنال ، لثم قلادة معلقة بصدره قبل أن يُرخى أهدابه ، ثم يجثو على أربع ، ويسجد سجوداً طويلاً لم يقم منه ، فمال إليه (يهوذا) يهزه ويستنطقه ، فلم يحرك ساكناً ، فإنفجر حلق الصبى صارخاً " **جدى** .. " ، ثم رفع بصره مكموداً نحو هذا الماكن فى السماء لا يتحرك ، قبل أن تغترق عينيه فى دوامة من الدموع ، غشيته ، ثم غاصت به إلى يم من البكاء والجفول ، إنسحقت إلى قاع جبال قمران ووهادها .. قبل أن يغمرها ظلام ثقيل لم يبزغ بعده صباح ! .

.....

فى اللحظة التى فقدت فيها عينى قدرتها على الرؤية .. أحسست بأن ثقلاً رهيباً يشد كتفى إلى عنقى ، فتشنجت ، وإنفجر حلقى بأهة دقت جنجرتى ، لكن صوتى كان محشوراً بقطعة لباد تمنع مروره ، وفيما راعنى هذا الظلام الراسخ ، الذى يعم كل الأرجاء ، طن فى أذنى اليسرى صوت صبى يصرخ ، يهتف بإسم جده الذى لتوه باشر طقوس ذبحه ، ليتلقفه صراخ أخر جهة اليمين ، صغير بأردية كهنوتية يبكى جده الذى حطأ الأرض .. فلم يملك سوى أن يرفع بصره لهذا الماكن فى السماء دون حراك ، وإذ بصياحهما يدق جانبىّ أذنىّ على نحو ضاج مخيف ، كلاهما يبكى عزيز أسلم روحه أمام عينه ، إنداح هديريهما ساقطاً إلى صحن جمجمتى حتى إختلطا فى قاعها .. كأن الصوت لصبى واحد ! ، لتنسل صورة (جبرين الدقاق) إلى مؤخرة رأسى ، بعينين برئتا من عوارهما ، قادمة من الأفق البعيد المظلم .. متماهية مع قسمات (متيّا) الكاهن ، بكهولته ومخايل وجهه المتهدل ، هى ذاتها الملامح وجحظة اللحظة الأخيرة ، الخِلقة الدميمة والأنف الجبلى ، حينها شعرت بضيق يسد شراييني ، وشهقة تدب على الأعتاب ففزعت لأنهض ، لكن جسدى متحجر ، ملتصق بالأرض فى رزاحة عنيدة ، مكتوف من

جانب إلى جانب ، ومعقود برقاعٍ ومزعٍ تلفه من الإخمص إلى الهامة ، هو بعينه ، الكفن ! .
بصراخ مخنوق يبحث عن سم خِياط يمر منه ، أطبقت جفناى فى كمد محاولاً فك ثياب الردى التى تطوقنى ، بالكاد أعتقت رأسى ، نزعهتا عن عقدة الهامة وأربطة القماش ، لافظاً اللبادة التى تسد حلقى ، رئتاى تستغيث لأجل نفس واحد ، حينها إنفرج مصراعىّ عينى على إتساعهما فى فزع وجحوظ ، فأوصدتهما عنوة صارخاً بجئير غيظ .. أجاهد لتحرير يدىّ ورجلىّ ، وإذا بطرقات الباب تدق جدران دماغى .. فإنتصبت واثباً ، تلفت حولى فى ذعر ، فإذا بى واقفاً فى صحن حجرتى بدار الشيخ ياسين ! .. فنفخت ضيقاً وحرجاً ، سئمت هذه الضلالات التى جثمت على روحى .. كقرادة نشبت بجسد مهترئ فتعهدته بالنخر والبلى .

حين يضيق بك الطريق وتشتد عليك الظلمات ، حين تتفاقم الموجعات إلى حد يجعلك تمل معه حتى من التوجع ، حين لا تجد سوى الصمت بديلاً لكل شيئ ، حلاً إجبارياً عليك إبتلاعه ، أيضاً فى صمت ، عليك فقط أن تتأمل تمزقك .. فعلى كثرتها فإن الآلام لا تمل ، وسبحان من جعل القلوب فيها تتعلق وتأنس .. تتألم وتستوحش ، تغيب حين لا يغيب شيئ ، ثم تعود ، وإن باتت محض مضغة جاسية يبسها الزمن ، سبحان من جعل الأشياء تحترق لتُبعث من جديد ، وجعل تثرثر الحكايا دليلاً دامغاً على ولادتها ، وإجترار الذكريات .. أذوناً بوقت تصبح فيه بلا ذاكرة ولا حكايا .

فيما تثاقلت إلى الحشية ، ألتقط بعض أنفاسى المهدرة ، طرقت أذنى دقات الباب مرة أخرى ، فتيقنت أن الصوت ليس بهلاوس ، كانت الأجواء آنها تنم عن إنقضاء منتصف الليل منذ ساعة أو أكثر ، وقفت ، ثم ترجلت نحو الباب بخطو واهن ، هدته الأحاجى والأباطيل ، كان الشوط من الغرفة إلى باب الدار ، من الوهم والتيه ، أن أحال المسافة بينهما بحجم رحلة من (موناكو) إلى (كاراكاو) ، كانت الأسرار التى تتكشف كأطياف خاطفة .. أينما نظرت خايلتنى ، أفكار ما تلبث أن تنبو حتى تطفو إلى السطح ، ما عاد عندى محض شك فى أن الكنز مخبوء بالبئر ، ذاك البئر

المنحوت بشيّة هى ذاتها دليلة وعلامة وصول ، بل والعلاقة المبهمة التى من شأنها وحدها أن تربط بين واحة كاراكاو وجُرنتها السرية .. وفرق البحث الوافدة من كل مكان ، شيّة مميزة .. رُمِزَت بها حقيبة ألبرت وشركة الأفلام الوهمية ، وتوسدت خاتم الشيخ ، وخاتم (جبرين الدقاق) ، ونظيرهما الذى طوق إصبعى بغتة إبان وجودى فى المروحية ، قبل أن يضيع للأبد ، هـى ذاتها العلامة التى أشار لها السمادونى فى حكايته عن النمرود ، الجمجمة والثعبانين ! .

ولكن ، طالما أن ألبرت كان على علم مسبق بخبيئة البئر .. فما الذى كان عساه أن يمنعه من إنتشالها ؟! ، ربما سقوط الطائرة الذى باغته فأفسد مساعيه ، وكأن وقوع الحادث كان عمداً ! ، ولكن أى قدرة هذه التى بإمكانها أن تفعلها ! ، ربما جن البوادى ، كانت الفكرة وحدها من الهول أن جعلتنى أنتفض ، وغمرتنى رعشة مفاجئة ، وفى لحظة لا يمكن بحال أن تُعول للمصادفة ، طن فى رأسى هدير هذا الصارخ بقاع البئر .. فإرتجفت فرقاً ، قبل أن يدق الباب مرة أخرى ، فأفتح ، يحدونى خوف غريب ، لأجد أمامى ذيل الكلب فى حال مزرية ! ، ذاك الذى خليت سبيله مخدوراً منذ ساعات ، جاءنى مدفوعاً كأن على رأسه شيطان .

لم أره بهذه الهيئة الموحشة منذ وطأت قدمى أرض الواحة ، طالعنى بوجه مختنق ، وعينين تومضان كأنهما قبس من نار ، كان متصلباً كصنم ، وخلفه حمارته تخبخب وتخور بصوت مقبض ، ما إن رأيته حتى إصطكت قدماى ، وشعرب بإضطراب يعصر معدتى ، فتقهقرت مرتعداً ، لكن الرجل وقف للحظات يحدق فى وجهى على نحو مخيف ، متجمداً كأنه نائم ، وما لبث أن إنسحب أخذاً بقياد دابته ، فتسمرت لبرهة قبل أن أستطلع أمره .. خيفة أن يباغتنى شيئ إن تقدمت خطوة للخارج ، لكنى حين خرجت كان ذيل الكلب قد عرج من زاوية الدار البعيدة حتى توارى تماماً ، كانت الواحة آنئذٍ تعمها حالة من الصمت مريبة ، لا صوت لإنسان ولا حيوان ، حتى النخل كأنما تصنت ليسمع ، ركن الناس إلى دورهم كأنما ينتظرون صوت نفخة الصور الأولى ، ولا أعرف لماذا خايلنى حينها أن ثمة من يراقبنى ،

مخلوق ما .. لا أنظره لكنه ينظرنى ، يعد أنفاسى ويحصى خطواتى ، وما كدت أقتفى أثر ذيل الكلب ، غير عابئ بهذه الخيالات ، حتى لمحت الشيخ ياسين واقفاً أمام البئر ، يومئ بيده يميناً ويساراً على نحو راعنى ، فترجلت بضع خطوات نحو جذع نخلة عند حافة الخيمة ، ثم تواريت خلفها أستطلع هذا الذى يفعله .

لم تكن هيئة الشيخ المقبضة ، وحركاته المريبة تنذر إلا بأنباء وبيلة فى طريقها إلىّ ، من يراه لا يظن أبداً أنه ضرير ، بدى الرجل كأنما يمارس طقساً سرياً .. هجع لأجله متخفياً فى دثرة الليل ، يشير بحركات وإيماءات مبهمة على حجر البئر ، كأنه يرى شيئاً غير منظور ، إقتربت حتى أصبحت على بعد خطوات من مجلس السمادونى ، فخال لى أنه يرسم طلسماً قبل أن يطالعنى هذا الدفق الدخانى الأبيض متسربلاً عن إصبعه مع كل حركة يمر بها فوق حجر البئر ، حتى أن الناظر ليستطيع أن يُميز هذا النقش الذى يرسمه ، لا أظن أنه ستوافينى لحظة نسيان ، فيغيب ، مهما حييت ، (جمجمة يخرج منها ثعبانان !) ، ولا أدل عليه من هذا الضوء الذى إنبعث مع كل حركة ، وخط رسمه .

بعد أن أنهى الشيخ ما يفعل .. تأخر خطوة للوراء فتزحزح الغطاء ، وإذا بحزمة من ضوء باهر تنطلق من فتحة البئر ، ثم تنتشر حتى تناهز باحة السماء ، فضج البئر بصوت رهيب صاعد من القاع جعلنى أرتجف مخضوضاً ، هو ذاته الصراخ المضغم ! ، تردد مدوياً برجيع مخيف .. فنعقت البوم والعقبان نافرة عن أعشاشها ، والناس فى سكرتهم وسكونهم كأهل الكهف ! ، تلفت حولى مدهوشاً ، ظننت أن الساحة ستعج لتوها بناس الواحة ، لكن الدور مظلمة كأن أهلها مسحورين ، إستدرت نحو الشيخ ، فوجدته يحدق بفغر البئر مُرسلاً إلى القاع حديثاً أشبه برطانة مبهمة ، كان يهمهم بهمس مطلسم خفيض ، وإذا بأسراب هائلة من القطط البرية ، كاراكاو ، تتسلل إليه من غور الجبل وأكنافه المعتمة واثبة كنمار بالغة ، لتحوم حوله فى شبه دائرة ، كاد منظرها وهى تصطف فى عجة سوداء أشبه بنساء الجنائز ، تتلاقف مواء ونعيب مُقضّ ، كاد أن يوقف قلبى رعباً ، لا أنا بقادر على الثبوت ولا المغادرة .

شخصت عينى ، كنت أشعر بأن إحدى هذه القطط سترانى فتنقض نحوى جارة فى ذيلها عشرات القطط ، إرتخت أطرافى عنوة .. فتهدلت إلى الأرض متكئاً على رجلىّ وذراعىّ ، آنها إسترعى إلتفات الشيخ هذا الحراك الدائر خلفه ، بدى ذلك من رعشه مباغتة غمرته ، كأنه مفيق من النوم ، تلفت حوله مكروباً حين شعر بأن أحداً يرصده ، وقبل أن ترتد عينه إلى صفحة البئر .. إنحسرت حزمة الضوء الباهر ساقطة إلى القاع ، فتواثبت القطط مفتزعة تتلاقف نظرات خوف مفجعة ، وتتخبط فى بعضها البعض ، حتى تشرذمت بأرجاء الجبل ، فتزحزح حجر البئر وإنغلقت فوهته ، وما لبث أن خطّ الشيخ طلسمه على الغطاء ، ثم عرج إلى الطريق يتفقده ، وغادر بخطو حذر جهة الدار ، فتخفيت فى حنايا الخيمة .. حتى دخل وأغلق الباب .

بعد زهاء دقيقة زمن ، خرجت من الخيمة أمعن النظر جهة البئر وأنحاء الجبل ، أصغيت لبرهة ، أتحسس هذا النعيب والهمس المطلسم الذى زحمت به الساحة قبل ثوان ، أو هكذا خال لى ، كان الهدوء يلف المكان قبل أن تلتقط أذنى رقع حوافر لاهثة .. قادمة من بعيد ، صهيل متوحش يشق الظلام شقاً ، تلفت خلفى مرتعداً .. فإذا عينين بارقتين تقترب ، ودفق من بخار تلك الليالى الباردة تنفثه فيما يبدو أشداق عاتية ، وما إن تبينت الحافرين ، واللمعة الرمادية على الوبر الأسود الناعم حتى تأكدت أنها هى ، فرسة (جبرين الدقاق) ، جثوت رعباً حين رأيتها تحثو التراب حثواً راكضة نحوى ، لم تدع لى هنيهة للفرار ، ألصقت وجهى بالأرض يدق أذنى صوت نقرها العنيف ، قبل أن يعلو صهيلها بغتة ، فأرفع هامتى ، لأجدها واثبة نحوى ، ثم لاشيئ ، عجة من غبار كالدخن .. تكاثف ثم إندثر ، إعتدلت أستطلع الظلام حولى .. فلم ألمح لها أثر ، كانت محض خيال ! .

تساندت إلى جذع متخدل ، وأطراف متهدمة .. ألتقط بعض أنفاسى المنهكة ، كنت من الوهن بحيث لم أملك أن أتحرك خطوة نحو واحدة الدار ، لثوان طفقت أتصفح غلس الليل بعين راجفة ووجه ممتقع .. قبل أن أركن إلى قائم الخيمة صامتاً فى جفول ، مُصغياً ، تمكن الخوف منى حتى لم أعد أميز خلاء من ملاء ، ولا أقسى على الإنسان من الليل حين يتشرس

فيحاصرك بأشباحه ، كنت أشعر بحفيفهم فى كل مكان ، وللمرة الأولى التى يخايلنى يقين جازم بأن الواحة ما هى إلا وهاد آبدة يعشش فيها الجن ، كنت أدور ببصرى كالمسوس ، أتتبع هذا الهسيس المتسلل من حنايا الظلام .. قبل أن أسقط مرة أخرى مستسلماً ، ضاماً رجلىّ بين ذراعىّ ، أرتعش لكل همس ينبض بغتة ، كنت على يقين بأن مسوخ الجبل تترصدنى ، وأنها على الأرجح تكالبت .. تنتظر لحظة إنقضاض ، ولا أدل على ذلك من هذه الأعين البارقة من الغور القريبة والبعيدة ، **" ربما كانت القطط "** هكذا هست لى نفسى ، وما كادت الفكرة تختمر برأسى حتى ضجت ضحكة طفل صغير خلف باب الدار ، وإذا بها تتحول إلى ضحك هستيرى متمازج ، أصوات صغار وصبايا ورجال ونساء بالغات ، وأنفاس لاهثة تنتهى بشهقات إحتضار ، أصوات مشوشة لا مائز بينها .. ما لبثت حتى بدأ صداها يتردد بأرجاء الواحة ! .

حينها كان الجبل قد بدأ يلفظ مخلوقات غريبة ، إذ طفقت القطط تتسربل من الغور منتشرة إلى نواحى الجرف العظيم .. لتربض فرادى وجماعات ، تلقى برمقاتها الفسفورية نحو الواحة ودورها ، كانت تتلفت حولها بطريقة موحشة .. كأنها تتأكد أن لا أحد ينظرها ، إمتزج عوائها المتشرذم بالضحك الهستيرى المختلط ، النابع من دار الشيخ ياسين ، حتى أحالا الواحة حقاً إلى قاع مرعبة ، تئن بعزيف الجِنان والعفاريت ، وما كادت القطط حتى بدأت تهبط كل أربعة أو خمسة على الأكثر ، ثم ثلل وجماعات غزيرة ، كلما كثرت أفواجها إنتصبت بأجسادها واقفة ، متحولة إلى هيئات بشرية متقزمة ، بوجوه وأجرام مختلفة ، ثم راحت تتواثب مخلفة ورائها أطياف بيضاء تتكرر ، فبدت جحافلها المتدفقة كأنها شلال من الدخان يهبط عبر الجروف ، هاوياً إلى درك الجبل ، ظلت تتكاثف وتنتشر حتى تجمدت فى محطى أنظرها فى حملقة ووجوم ، سوى أنى تماسكت فى اللحظة الأخيرة فهرعت نحو الدار دافعاً الباب بقوة ، ثم أوصدته سريعاً ، وما كدت أفعل حتى إنقطعت الأصوات تماماً ، فإستدرت أبحث عن غرفتى لألوذ بأقرب غطاء يقع أمامى .. لأصطدم بذيل الكلب ، بعينه المتقدة وخوار حمارته ، فى

مواجهتى مباشرة ! ، ينظرانى برمقات ميتة ، فنكصت إلى الوراء حتى إصدمت بالباب .
ظلا يحدقان فى وجهى بأعين فاض بياضهما ، وما إن شعرت بخطوهما الوئيد نحوى حتى تنحيت جانباً مرتكناً إلى القبر المنصوب بصحن الدار ، لكن ذيل الكلب مد يده ، فأمسك بقياد حمارته .. ثم خرجا فى جمود كأنهما مُنومان ، إنتظرت لبرهة حتى زال أثرهما عن باحة الباب ثم خرجت أتتبعهما ، كانا يسيران بإتجاه درك الجبل .. يشقان طريقاً بين جحافل أنسال الجن المتآزفة ، وفيما عاينت هذا الزحف المركوم ، الذى بات بينه وبين الدار قاب قوسين أو أدنى ، حتى تراجعت مرتعباً ثم أغلقت الباب ، وإذا بى حين إستدرت أجد نفسى فى الخلاء أمام البئر مباشرة .
عرجت نحو الباب تارة أخرى ، فلم أجده ، وجدت الواحة أمامى .. وقد إستحالت إلى صحراء مقفرة ، لا دور ولا ناس ولا شجر ، فإرتبكت دائراً حول نفسى فى خدر وذهول ، أبحث عن علائم أستطيع الإستدلال بها ، ليس إلا البئر وجبل كاركاو ، وصفير مأزوم راكض من بوادى الخلاء البعيدة ، سكون منظوم .. ما قطعه سوى إصطخاب رجال تتناوش بالقرب ، بغبغة بدت كطيف يعلو ويخفت مثل زخات المطر ، تتبعت الصوت فإذا هو قادم من أعلى الجبل ، كأنها لُمّة تهس برطانة عبرية ، أصغيت ، فإذا برعدة رخيمة أفزعتنى جابت أنحاء كاراكاو ، مرددة " **أيهذا التائه .. لا تنقب عن السر العتيق ، لا تُشهر رأسك لأعلى** " ، فحدقت لأعلى ، كأن أربعة رجال يتناحرون بنقاش حاد ، هم بعينهم (اليهود الأربعة) ، رأيتهم يقفون فى البقعة ذاتها التى تدلت منها فرسة جبرين الدقاق ، يتلاقفون وثائق وخرائط وسكين حاد ، يشيرون بها نحو البئر ، وإذا بفرس جامح ، تحثو التراب بين قوائمها ، تعدو نحوهم من الخلف ، وعلى ظهرها يركب جبرين الدقاق ، داهمتهم بعجيجها وصهيلها المنكور ، فزلقت أقدامهم رعباً ، فإنطرحوا فى سقوط مدوى من ذروة الجبل إلى سفحه ، أثناء ذلك كان الرعيد قد إزداد صخباً وضجيجاً " **هناك بدأ الخاتم الحكاية ، الخرافة القديمة ، حقيقة هذه الديار الملعونة ، سحر عتيق .. ودفين**

فروا به من الخرائب هاربين " ، لينتهى الصوت إلى صدى خفيض بالكاد يُسمع .
ثـم عـاد الصـوت صاخباً بعـبارة واحـدة **" هناك ذبحوه "** ، حينـها لم أكـد أصدق وأنا أرى أربعتهم ساقطين من أعلى الجبل مرتطمين بالأرض ، وما لبثوا حتى إنتصبوا بغتة راكضين فى صرع جهة الصحراء ، كنت أحدق جهة أشباحهم الغاربة ، فى شده ، قبل أن تباغتنى فرسة جبرين هاوية أمام عينى إلى جوف البئر الذى فغر فمه ، فصفعتنى دفقة ماء صاعدة إثر الإرتطام ، ليئن القاع بغتة برعيد مفجع .. مختلطاً بصهيل فرسة مفزوعة ، فإصطفق صدرى ، شاهقاً شهقة محتضر .

(٩)

صحوت مضطرباً ، مرتعشاً ، بعد سكرة طويلة جثمت على صدرى لساعات تائهاً بين جدران الوساوس والوهم ، تفحصت بعينى أرجاء الغرفة .. ناثراً بين أثاثها البائس شذرات كابوسى المزعج ، لازالت أصداءه تدق حيطان رأسى الصماء ، حينها كانت شمس الضحى قد تسللت من خصاص الشرفة الواطئة فى خيوط رهيفة ، والأصوات بالخارج كأنها سوق رائجة تضج بوعواع الناس وبغبغتهم ، تزحزحت قيد شبرين ، ثم فتحت مصراع الشرفة ، أنشد دفقة هواء واحدة تثلج صدرى المضطرم بنار مشبوبة ، كنت فى أقصى حاجتى للإندساس بين بشر عاديين .. لا يمتون للمسوخ أو الأطياف بصلة ، إرتفعت بجذعى إلى حرف النافذة أتنسم الهواء بشراهة ، لكنى توقفت فجأة عند هذا اللغط الدائر عند ساحة الجِمال ، كان الناس فى جلبة وتناحر عجيب ، جمهرة بدت من عجيجها المدوى وكأن كارثة قد حلت بأرض الواحة ، عاودتنى أصداء الكابوس على نحو فاقم خوفى .. فإنتصبت فوق الحشية منافحاً تباريحى المؤلمة ، ثم تجاوزت الشرفة إلى المصطبة أمام الدار فى وثبة واحدة .

عند الساحة المقابلة لمبارك الجِمال ، كان الناس محتشدين فى إنزعاج شديد ، ثائرين حول الشيخ ياسين الذى إحتقن وجهه بغته حين قال أحدهم ، موجهاً إليه الحديث ليؤلب عليه الناس " **وكم نفر بالواحة حتى نفقد منهم عشرة رجال بين يوم وليلة ؟! "** ، فرد عليه الشيخ غاضباً " **وبماذا أفوه وقد نفذ الكلام ؟! ، ماذا تتخيلون أنى فاعل حيال ذلك ؟! ، كثيراً ما حذرتكم من البئر وهذا السامر الملعون ، وما تلبثوا أن تركضوا إليه مثل الصغار ، كم مرة أخبرتكم بأن البئر مسكون ، وأن السامر تحوم حوله الشياطين ، ليتكم تسمعون قدر ثرثرتكم ، وخوضكم فى سيرة بعضكم البعض ، ذاب لسانى .. ولا آذان تُصغى ، ولا عقل يميز ، ليس من حق أحد هنا أن يشتكى "** ، فداركه رجل أخر بنبره تهكم " **مداد الليل والنهار وأنت تؤذن فينا .. البئر مسكون .. البئر مسكون ، دون أن تواتيك لحظة بوح صادقة فتصرح لنا كيف عرفت أنه مسكون "** .

وقتئذٍ ، ومع قِيلة الرجل ، دارت عينى باحثة عن ذيل الكلب ، قبل أن أعثر عليه مندساً بين الناس .. يُغرقنى برمقات كره بادية لكل ذى عين تنظر ، ما إن شعر بترقبى له حتى جاس بين الناس هارباً ، كنت أرى تحركاته الخليسة لبرهة قبل أن يبتلعه الحشد فيغيب ، حينها كان الرجل الذى رشق الشيخ بتهكمه الفج قد طاح بين تلافيف الرجال " **يا ناس ، ما من شك أن ثمة سر نجهله ، ومن الواضح أن الشيخ وحده هو الذى يعرف نبأه** " ، ثم عرج نحو الشيخ " **أليس من الأفضل ياشيخنا أن تبوح لنا بسر البئر .. بدلاً من أن تسب وتلعن فينا ليل نهار ؟** " ، فتقدمت مريم تريد أن تدرأ عن أبيها هذه الوقاحة ، لكن الشيخ قبض على يدها فتراجعت ، نظر إليهم شذراً بأعين رغم كفافها كانت تتقد غيظاً ، صفق كفيه آسفاً بحوقلة كمد حيال جدالهم الأعمى ، ثم إنصرف بالأخير أخذاً بيد مريم ، كنت أتبعه وهو يسير جهة الدار مهمهماً فى سخط جم " **عقولكم خصفها الصدأ ، وبماذا سيُفيدكم سر البئر ؟! ، ألا يكفيكم أن تعرفوا أنه مسكون حتى تُحجموا عنه ، أبادكم الله من قوم سوء جُهال .. لا تتذكروا أن لكم رباً إلا حين توافيكم لحظة غرق** " ، فدار الرجل الذى تعمد مكاشفته على الملأ بين الناس ، صائحاً " **أأبصرتم ! ، لا يرسل خبراً ولا يجلب خبر ، حدثتكم بأنه يعرف كل شيئ ، ويعلم أى جائحة هذه التى إنتهبت شباب الواحة ورجالها** " ، ثم رمى ببصره نحو شبح الشيخ الغارب " **غداً ينكشف كل شيئ يا شيخ ياسين ، والسر الذى تُخفيه سيضحى مشاعاً لكل ذى أذن ، أتسمعنى يا شيخ** " .

كان صياح الرجل يدق أذنى حتى بات كسراب بقيعة ، وقت أن كنت أخلف مريم والشيخ ياسين ، فرأيته يعرج بإتجاه الخيمة ، حينها حرّرت مريم يدها من يده ، ثم أشارت لى أن أتبعها إلى دغل النخيل ، وهناك دار حديث ، برغم مروره العابر ، لا يخلو من شيئ ذا أهمية ، حاولت مريم بشيئ من البوح أن تنتشلنى من التيه الذى أغرقتنى فيه أحداث الواحة ، إذ طالعتنى فى بادئ الأمر ودون مقدمات ، قائلة " **منذ زمن بعيد والواحة تحدث فيها أشياء غريبة ، صبايا تختفى ثم تعود ورحمها ينوء بروح تتحرك ، وشباب وصغار يغيبوا دونما أثر يدل عليهم ، وأصوات مرعبة تتناوح كل**

ليلة بأرجاء الجبل ، فتُفزعنا وتقض مضاجعنا ، ناهيك عن سكان الجبل .. كم رأينا منهم الويل ، أسحار وقتل ودور تحترق ، وبهائم تختفى فجأة .. فواجع كثيرة لم نجد لها تفسيراً " ، فنظرتـها بخبث يضاهـى بوحها المباشر " لكن أى من هذا لا يمنع أن الشيخ يعرف الكثير " ، فإحمرت وجنتها ، وردت بإستحياء " لا أنكر هذا ، فأبى كاهن الواحة وطبيبها ، وهو الأدرى بطواياها وأسرار ناسها " ، فقلت " إذن لماذا يضن بما يعرف ؟! .. لم لا تسألينه ؟ " ، فضحكت " لإنتزاع الشمس عن مدارها أهون من أن أنتزع كلمة منه دون إرادته " ! .

كان ردها من الجفاء أن شعرت بإنزواء بصيص الأمل الوحيد الذى تعلقت به ، فغمرتنى مسحة قنوط .. حدتنى أن أتحجر مكانى محجماً عن السير ، فما كان منها ، حين عاينت تبدل حالى ، إلا أن توجهت نحوى قائلة " ما قصدت أبداً أن أخفى عليك شيئ ، كل ما قصدته أن دروب أبى وعرة .. لن تجنى من الإنتظار عند ناصيتها سوى المشقة والكلال " ، ثم أطرقت لبرهة قبل أن تعرج نحوى " أما عما أطويه أنا فلن يفيدك بشيئ ، كل ما أعرفه أنه منذ زمن ، ربما قبل أن أولد ، وأنا أعاين حرص أبى على توليف تحاويط وأحجبة لناس الواحة ، بغية أن يعلقوها ، ولكن بمرور الوقت عرفت ، كما عرف ناس الواحة ، أن هذه الأحجبة إنما صُنعت خصيصاً لأجل حمايتهم من أسحار سكان الجبل ، لكن أى منا لم يملك القدرة على إجتثاث كلمة واحدة منه بهذا الخصوص ، من هم سكان الجبل ! ، وما هى غايتهم من أذيتنا ! .. الله وحده أعلم " ، فرمقتها فى غير إقتناع " الموضوع أكبر من هذه الترهــ ... " ولم أكد أكمل عبارتى حتى قطعها دوىّ شجار دائر عند ساحة البئر ، حينها نطقت مريم فى ذعر " ما هذا ؟! " ، ثم فزعت راكضة " أبى " ، فلحِقت بها .

آنها ، كان السمادونى على جذعه المقصوف .. يعبث بمسبحة طويلة لها حبات غليظة ، حاكياً " أسود كما الأفيال ، ظلت تأكل فى كاحله .. وهو يظن أنها محض جراد وبعوض يلسع فى باطن قدمه ، إلى أن مر عليه قوم هم له كما الأقزام ، فأخبروه بأنــ ... " ، ثم سكت بغتة ، كان قد سمع تلك

الضجة المائجة عند جانب السامر ، فقطع مداد حكيه ، حدق مغتاظاً فى تلك اللُمة المتجمهرة بعيداً .. ليكتشف أن نصف السامر فى تناحر حول شيئ ما ، فطوى مسبحته مستائاً " **أفسد الله دوركم .. حفنة من البهائم** " ، ثم نزل عن منصته صائحاً فيهم " **ماذا هناك يا ثلة البقر ؟!** " ، كان بعض الرجال يتلاقفون ذيل الكلب فيما بينهم صفعاً وتقريعاً مثل كرة جلد ، وثمة صبىّ بالجوار ينزف دماً من أنفه ووجهه ، وحوله رفاقه يبكون ، جذب أحدهم ذيل الكلب من ياقته ، ساخطاً " **ألم أحذرك أن تكف عن ترهيب الصغار بحمارتك الخرقاء هذه ؟ ، قل لى .. ماذا أفعل بك الأن ، وها هى قد رفست الولد فجرحته ؟! ، لقد بال على ثيابه من شدة الخوف** " ، فابتدره ذيل الكلب فى سخاف " **بال على ثيابه ! .. أرنى هكذا** " ثم مال بجذعه يتفحص الصبى ، فصفعه الرجل على قفاه " **ماذا تسوى يا سقط بنى أدم ؟!** " ، ثم قبض على مخنقه من الخلف يطوحه يميناً ويساراً ، فصاح ذيل الكلب " **أقسم لك انى كنت أهذر معهم** " ، ثم إلتفت إلى حمارته " **أليس كذلك .. ألم نكن نهذر معهم يا مربوحة ؟ ، إنطقى يا سليلة القحاب** " ، فإستشاط الرجل غضباً وراح يُمتعه صفعاً وسباً " **تأنينا عليك حتى راق لك سوق الهبل على الشيطنة ، ستحطأ بصغارنا الأرض يا كلب الزرايب** " .

حينها عرج أحدهم بنظره جهة السمادونى صائحاً " **هذا كله منك يا بوز البومة ، فتئت تقول لهم حمارة القيالة .. حمارة القيالة ، حتى صدق الصغار حماقاتك ، ومنحت الفرصة لسليل الطرقات هذا ليعبث بهم** " ، فتوهجت الحماسة بصدر ذيل الكلب " **أقسم بالله أنه هكذا ، هو من أرهبهم ولست أنا ، ظل يناوش حمارتى ويومئ لها ، ويقول لهم حمارة القيالة .. حمارة القيالة ، ظل يُغرر بها وبهم .. حتى صدقت مربوحة كلامه** " ، فقال السمادونى هازئاً ، دون أن يدرى بالقنبلة التى للتو نزع فتيلها " **أرهبهم أفضل بكثير من أن أختطفهم ، فلا يرجعون ، لو كان فيكم رجل عاقل ، من ظهر أبيه حقاً ، لذهب لـ (باهيا) عجوز الصحراء فسألها .. لم يسوق ذيل الكلب رجالكم لها سكارى .. ليرميهم بين أقدامها ، دونما عودة** " ، وهنا فزعت المرأة التى خُطف زوجها وصغيرها من السامر إلى مخنق ذيل الكلب " **ما**

خاب ظنى أنك فاعلها يا إبن الأبالسة ، أقسم بالله لن أخلى سبيلك يا ذيل الكلب أنت حتى تقر .. أين ذهبت برجلى وولدى " ، فإهتاج فى إثرها كل من فُقد له عزيز إلى ذيل الكلب ، تآزفوا عليه يُبرحونه ضرباً ، وهو يصرخ على نحو فاكه **" آآآه .. ما فعلت شيئاً يا أولاد الكلب ، أنا أخوكم يا بهائم ، آآه .. هان عليكم ذيل الكلب يا أولاد الكلب ، أقسم بالله لأنتقمن منكم يا حفنة رمم ، أغيثينى يا مربوحة .. أولاد الكلب** سيقتلوننى " .

فجمحت الحمارة بين تلافيف الناس ترتع وترفس وتفرق لُتهم ، فتعهدها الرجال حذفاً بالحصى وضرباً بالعصى .. حتى فرت بجلدها ، فيما كان السمادونى آنذاك قد هرب عدواً جهة الجبل .. بقدم للمرة الأولى بدت عرجتها ! ، رأيته بعينى يلوذ إلى كهف خبيئ ، وإذا بى ألمح ذيل الكلب يلحق به ، فحملقت واجماً .. كيف فك الناس عقاله ؟! ، فعدت بناظرى جهة الحشد لأصطدم بمنظر الرجل ولا تزال الأيدى تتلاقفه بالصفع والركل ، كدت أجن حين عرجت جهة الجبل مرة أخرى .. فرأيت شبيهاً له يركض مُيمماً شطر الكهوف ، شردت للحظات ممعناً فى شبحه وهو يبتعد .. ثم يختفى كدخن شمعة إنطفت ، فإتسعت حدقتاى فى تره ، غير مصدق ما أرى ! .

أما حال ناس الواحة فكان من الإختلاط أن جعلنى أتجمد ذهولاُ ، ففيما لمحت ذيل الكلب ، أو ما خال لى أنه شبيهه ، يهرب جهة الكهوف .. تآزروا على هذا الذى أبرحوه ضرباً حتى أردوه قتيلاً ، وبرغم أنه لم يكن ذيل الكلب ، بل رجل منهم ، تكأكأوا إليه فحملوه إلى قفراء عند حدود جبل كفرى ، ثم رموه ببقعة قاحلة .. لا قبر فيها ولا كلأ ، تركوه خالياً ، ووقفوا يشاهدون الحدادى والعقبان وهى تمثل بجثته ، حتى زال عن أخره فما بقى منه سوى هيكلاً مضعضعاً .

أما أنا ، وبرغم كل ذلك ، لم أكن من الغفلة لأفوت فرصة كهذه ، هرعت شطر الجهة التى غاب منها ذيل الكلب والسمادونى ، ومريم فى إثرى ، وما كدنا نناهز درك الجبل حتى ترجلنا فى حذر ثم تخفينا عند حافة كهف منطوى ، نرقب لقاءاً كان من الغرابة أنه لم يجل بخاطر أى منا أن نباشره ، ذيل الكلب فى مواجهة السمادونى ! ، يرشقه بإتهام سافر **" تدرى جيداً أن**

ما أفعله لا يختلف كثيراً عما تفعله أنت " ، فناهضه السمادونى " **وأدرى أيضاً أنه طوال سنوات فائتة كنت راصداً لكل ما تفعل .. دون أن أنبس ببنت شفة "** ، فإقترب منه ذيل الكلب " **بئساك من رجل جهول ! ، أوٍ لو تدرى جزاء ما فعلت "** ، ثم إقـترب فرماه بنظـرة ما أكثر تفسيراتها ، قائلاً " **أكثر ما يُحزننى أن سامر السمادونى لن تقوم له قائمة بعد اليوم "** ، ثم إستل ذيل الكلب مِخرزاً طويلاً من نطاقه .. ورشقه فى جانب السمادونى الأيسر ، فصرخ صرخة أفجعتنا ، وما لبث حتى نزع المخرز ورشقه فى صدر الرجل ، ثم أداره ضاغطاً حتى توقف قلب السمادونى تماماً ، فسقط ميتاً ، حينها فزعت أنا ومريم ، وما كادت أقدامنا تحلق حتى جاءنا صـوت (باهيا) ، عجوز الصحراء ، تتلصص على بعد خطوات من فغر الكهف ، تلك التى قتلتنى رعباً بوشاحها الأسود وعودها الممصوص عند تخوم الواحة ، قبل أن أدخلها ، فانتزعت مريم من يدها .. وتخفينا فى فُرجة الصدع العظيم .

مرت (باهيا) بجوارنا كأنها مومياء معقوفة ، دخلت الكهف بخطو عاجز ، صائحة " **من هنا ؟! "** ، فلم تجد من يجب نداءها .. قبل أن تعرج برأسها بغتة جهة الخارج فترانا ، كان الوقت آنئذٍ أضيق من أن ننتظر ردة فعلها ، إستدرنا معاً فى وثبة واحدة ، فإذا بذيل الكلب قابضاً على مخرزه أمامنا مباشرة ، يحدق فى وجوهنا بأعين محملقة ، تلوح على شفتيه ليّة إبتسامة لؤم مخيفة " **ماذا تفعلان هنا ؟** " ، فإنطرحنا ساقطين فى فزع شديد ، لم يكن من نراه وقتها هو ذاته الغلام التافه .. الذى إعتادت صبية الواحة أن تمتطى صهوتة ، كان مخلوقاً مريعاً ، ظللنا نرمقه فى وجل وهو يقترب نحونا بخطو وئيد ، مُشهراً مخرزه ، وما هى سوى لحظة خاطفة ، عرج فيها إلى الخلف ناظراً جهة العجوز الممصوصة ، حتى أخذت بيد مريم وركضنا بكل ما أوتينا من عـزم ، حينها إستدار بغتة ، لينفجـر كليـهما بضحكـات هستيرية فجة .. يباشرانا ونحن نحلق فوق كثبان الرمل ، نقوم ونسقط .

ظل ضحكاتهما تجلجل بهوس بأرجاء الجبل ، كأنها قهقهات ضباع ماردة ، حتى كادت قلوبنا أن تُنتزع فرقاً ، إلا أن حالهما المنكور هذا لم يدم كثيراً ،

فلقد مرق غراب أسود محلقاً فوق رأس العجوز ، خارجاً من ظلمة الكهف ، فإضطربت وامتقع لونها ، حدجت ذيل الكلب برمقة فزع رهيبة حتى كادت عيناها أن تقفزا عن محجريهما ، وما لبثت حتى طفقت تتلوى وتدور حول نفسها ، وإذا بأضلاعها تتداخل وتتبدل على نحو مريع ، كأنها قفة عظام جمعت من رفات القبور ، حتى تحولت إلى مسخ أشوه تنبعث منه رائحة كريهة ، كأنها جثة متحللة ، زحفت على ذراعيها وأرجلها مثل شبح ليليت المخيف ، محاولة الهرب ، لكن الغراب عاد مرة أخرى ماراً فوق رأسها بإتجاه غور الكهف .. لينحسر الظلام خلفها عن خيال أسود ، يزوم بغمغمة وحجيف رخيم ، فتبدلت عظامها ناظرة .. فإذا هى أمام (جبرين الدقاق) ! .

لم يكن ظهوره هذه المرة بهيئةٍ مألوفة ، عادية ، كان حضوره طاغياً .. مثل حلم مروع مندس داخل حلم أخر أكثر روعة ، إنبلج من الظلام كطبقة خفية إنسلخت منه ، كأنه جنس جديد .. ذبلت أرواح المخلوقات ، حُمة وهذياناً ! ، فى لحظة بزوغه المثيرة ، منذراً بالوحشية التى تحررت من سُخرة عقالها ، مشهده المهول ، كثير التفاصيل ، يذعنك فى سكون أن تستجمع ملامحه قطعة قطعة ، لتعيد ترتيب أوصافه بالذاكرة ، فمن العسير على الذهن ، لحظة حضوره الكارثية ، إسترجاع صورته الحقيقية دون وجود نسخة أصلية ، فلكل طلة صورة ، ولكل حركة صورة أخرى .
كأن مرات ظهوره السابقة ، حلماً وصحواً ، كانت شيئاً أخر أهون مما يُرى الساعة ، تتوق لتنظره حد اللهفة .. ورغبة جارفة تدفعك دفعاً للتملص من هالته المقبضة ! ، فبرغم هذا المسخ البادى فيه ، وعينه المسيحة التى وضع إصبعه عليها .. كأنه لا يزال يجاهد ليستوعب أنها باتت مسيحة ، فإن به سماً غريباً يدعو للرهبة ، تزيده إبتسامة مستفزة يندها فى أحلك الأوقات خيفة وروعة ، مستمتعاً بها أيما إستمتاع ! ، كل هذا كان بادياً بجلاء .. قبل أن أدرك ، بعد عدة أيام تلت ، أن هذا الواقف بشموخ موحش هو ذاته مارد هذه الأرض المجهولة ! ، حارسها وحاصد أرواحها ! ، والثقب الأسود الذى تنبعث منه كل خرافة مخيفة بواحة (كركاو) ، هو ذاته الزمن

المسحور ، موغل القدم ، الذى أفعم جدبها من أدناها إلى أقصاها بهلاوس وضلالات لا حد لها .

لم تصمد عجوز الصحراء كثيراً حيال غيامته القاتمة ، تلك التى تنفث زهماً مقبض يشبه رائحة سكان القبور ، وعوالم ما تحت الأرض ، إنحسر عن الظلام بعوده المنحول وأكتافه البارحة ، ثم تقدم بخطو مهيب لا يفقد خفته ، فرفع كفه وأزاحها بإصبع واحدة ، فتداخلت أضلعها على نحو لا يُدرك له وجه من ظهر ، إلتصقت بجدار الكهف حتى تحولت لقُدةٍ صخرية ناتئة عن حجارته ، حينذاك ، وفيما عاين ذيل الكلب مصير ربته تجمد الدم فى عروقه ، فركض مصطرعاً كفأر أصابه سعار ، فإنفرجت شفاه جبرين عن إبتسامة مستفزة .. أسقطت ذيل الكلب قبل أن يثب فوق كثيب نهض أمامه ، ليتبدد فى الهواء كسحابة تشرذمت قبل أن تمس الأرض ، فتقدم جبرين خطوة رصينة ، ثم أمعن بصره آسياً بأرجاء الواحة يميناً ويساراً ، ورفع هامته نحو السماء متحرقاً ، صارخاً بأنين هائل .. إهتز له الجبل ، فخضب الدم شدقيه ، كأنه الشيطان حين رن رنته الأليمة ، فصرخ بأنفذ وأبعد صوت يمكن سماعه ، وقت أن طُرد من الجنة ملعوناً ! .

(١٠)

" أتدرى ، كنت أيسر ضحية إقتنصتها " قالها ذيل الكلب ، فحدق الصغير ذو الخمس سنوات فى وجهه غير مستوعب ، **" حقاً ، كثيرين غيرك كلفونى قنانى عديدة من شراب الذرة ، أذكر أن أحدهم جرع خمسة قنانى فى مرة واحدة كأنه مدمن ، أما أنت فلم يكلفنى جلبك سوى إماءة بطرف إصبع "** ، لازال الصغير يحدق كأنه يستقرء ما يقول ، **" أعرف أنه ربما تكون مندهشاً من هذا الذى خلع قناع الخبل وأبدله بقناع الرزانة ، وربما تظن أن أحداً أخر يحدثك ، لا تقلق أنا هو أنا .. ذيل الكلب ، مطية واحتكم المنكودة "** ، ظل الصغير دون دهشة صامتاً ، كان الحديث من سآمته أن عزف عن الأمر ، فقام وتحرك خطوة ليغادر ، زاهداً فى اللعبة التى وعده بها ، لكن ذيل الكلب إلتقطه من ذراعه بغشامة ، فتألم الصغير **" تعال ، أين ذاهب ؟ ، فات الأوان يا صغيرى "** ، ثم أجلسه على حجر أمامه ، وراح يمسد على شعره برفق .

" ما بالك زهدت فى لعبتى ، لم العجلة .. لازلت على وعدى معك ، ألا تريد أن تراها " ، فلم يرد الصبى ، رمقه بخوف .. مستغرباً هذا الوجه الجهوم الذى يراه لأول مرة ، حتى كاد أن يبكى ، لكن ذيل الكلب إستطرد غير آبه **" ولا أنا أريد ، بالأساس ليس معى شيئ ، كانت فقط حيلة ، لكن يبدو أن مثلها لا تنطلى على مثلك "** ، ثم مسح ذيل الكلب دمعة طفرت من عين الصبى ، قبل أن يغمره صمت غريب ، ليشيح بوجهه للجهة الأخرى ثم يعود **" أتعرف أنا أكثر من يعانى هنا ، أكثر حتى من هذا الغريب الذى لا يعرف له رأساً من قدم ، ما أحببت يوماً ما أفعله .. لكنى بالأخير أفعله ، ليس رغبة ولكن قسراً ، لو تحريت سويداء قلبى ستجدنى أكثر من أحب الصغـار "** ، فحدجـه الصغـير برتابة كأنما لا يصـدق ، فبادره ذيل الكلب **" أعرف أنك اللحظة بالذات ربما تكون أخر من يصدق ، لكنى حقاً أحبكم معشر الصغار .. برغم إستيائى من الواحة وناسها ، كم كنت أتمنى أن أنثر بذرة غلام مليح مثلك فى أرض مريم ، لكنها تفلتت ، أو بالأخرى إنتُزعت "** ، ثم أمعن ذيل الكلب فى أضوية السامر المتسللة عبر صدع الجبل

" لكن أي من هذا لا يهم .. لازال الوقت مبكراً على أن أرضخ لفكرة خسارتها " .

حدق ذيل الكلب فى عين الصغير **" ألازلت لا تصدق ، أنا لم أخدعك كما لم أخدع أحداً ، فى كل مرة كنت ألاعبكم كنت أفعلها بلهفة وشغف ، ولكن فى لحظة قاسية ، وحين ترضخون لحيلتى فتسيرون معى ، كان يراقبنى ، فأضطر آسفاً أن أفعل معكم ما لم أتمن حدوثه ، بالأساس هو لا يغفل عنى "** ، ثم إقترب منه **" سأخبرك بشيئ ، أنت الصغير الوحيد الذى أجيز له أن يطلب منى ما يشاء "** ، فرفع الصبى هامته ، بتأمل الصغار ، كأنه فيما يبدو يطلب اللعبة التى وعده بها ، فداركه ذيل الكلب **" هذه ليست معى ، ولكن يمكننى أن أعوضك بأفضل منها "** ثم تحرك جهة الخُرج وظل يقلب .. حتى خرج بلوحة شطرنج ودميتان ، راح يُحركهما **" أنظر هذه تسير هكذا لتقابلها هذه هكذا "** ، ثم خلى سبيل الدميتين ، فإلتقطهما الصغير ، وطفق يلعب بهما ، وذيل الكلب يهلل **" حسناً ، هكذا ، دعها تقع ... "** ، ثم إكتفى بمراقبته .

وبعد برهة ، وفيما كان الصغير مندمجاً ، قام ذيل الكلب وتلفت حوله يميناً ويساراً .. كأنما يتفقد الطريق ، ثم أخرج من نطاقه سكيناً ووجأ عنق الصبى ، فثجت عروقه بفورة دماء قبل أن تسقط رأسه إلى صدره ، وبينما راح يصفى دمه فى قربة من الجلد .. نظر إلى عينه المحملقة **" عذراً يا صديقى ، كم تمنيت أن أراك شاباً .. لكن لا ينبغى أن يكبر سرى معك "** ، ثم تلفت جهة القصر **" هو بحاجة لدمك الذكى ، كلنا بحاجة إليه لنقاوته "** ، ثم قام بعد أن أنهى مهمته ووضع القربة بالخرج ، ممعناً جهة الصغير ، الذى إلتوت عنقه وغمرته الدماء **" رجاء يا صغيرى ، لا تسئ الظن بى ، أنا لست سيئاً كما يظنون ، ولا طيباً ، أنا لست سواى أنا ، نكرة فى نكرة "** ، لبرهة راح يحدق فى وجهه .. كأنما يتأكد عبثاً أنه لفظ أخر أنفاسه ، ثم خلى سبيله للعقبان وضوارى الجبل .

.....

بعدما تجاوز ناس الواحة نبأ إختفاء السمادونى ، بمزيد من التلفت والسؤال

الحائر ، جثموا إلى بعضهم البعض فى هدوء ، كما كانوا من قبل ، لكن الحزن والخوف أصبحا عادة يمارسونها كل يوم فى حذر ، غيامة قاتمة غشيتهم .. فركنوا لصمت كئيب وهسيس لا ينقطع ، كلما تطلعون نحو البئر .. تذكروا أنه ما عاد السامر تُضاء له مشاعل المساء ، إنطفى مجالهم الوحيد للتسلى وتمضية الوقت فى تلك البرية النائية ، إكتفى الناس بالإلتفاف فى المضايف وأمام الخيام ، وماذا عساه يُلهيهم منذ أن ضنت صحرائهم بكل فرصة للتسلى .. سوى تسمين الماشية ، والبحث عن مراع جديدة ، حتى هذه أحجمت بيئتهم عن منحهم متعتها ، وبرغم أنهم إعتادوا أجواء الإنكفاء بزوايا الدور وطوايا الخيام .. لكن شيئاً ما دوماً ما كان ينزع مراء جلساتهم ، لم يشعروا بالألفة ذاتها التى كانوا يتلقونها فى رحاب السامر ودفئ اللمة ، ربما كان الشيئ الوحيد الذى يُلهيهم ويمنحهم السلوان عن فكرة العزلة ، وتلك القفار والمسوخ التى تطوقهم ، وبرغم ذلك لم يسأل أحدهم أين غاب السمادونى ، كانوا يعلمون جيداً أنه فى يوم ما سيغيب ، ويترك الواحـة تواجه مصيرها ، كما كانت تفعل من قبل ! .

بعد مقتل السمادونى بمخرز ذيل الكلب ، وما شاهدته بعينى على هامش هذا الحدث ، وإن كان هو ذاته حدثاً هامشياً إزاء ما رأيت ، تحتم علىّ كالعادة فى إثر كل واقعة صادمة أن أبحث عن مهرب بخطو واسع ، أدركت جيداً لمَ كانت تيهتى بواحة كاراكاو ، وأن ما جال بخاطرى أهون بكثير من بواطن الأمور وحقيقتها ، كما أدركت علة تجاوز الخرائط هذه الأرض النائية وإنحراف البوصلة عنها ، أرض تعج بالجن والمسوخ ، والرجال غريبى الأطوار .. لابد للخرائط ألا تقرأها ، كان الواقع يبوح بهمس مخيف لمَ إغترقت علائم هذه الأرض بين التباب والكثبان الشاسعة ، ومن ذا الذى جعلها تتوه وتغترق ، بالأخير عرفت هذه القدرة الخرافية التى أسقطت المروحية ، وطمست أثرها ، وغيرها أمور كثيرة جعلتنى أفكر لأول مرة فى البحث عن مكان سقوط الطائرة ، لا بحثاً عنها ، ولكن لأمل باهت تعلقت به بأن تكون السلطات قد أرسلت فرق إنقاذ للبحث عن الناجين ، ربما لم تمل بعد من تحرى أثر الحادث ، كنت أعرف أنه ضرب

من المحال خاصة بعد هذه الشهور التى مرت ، والتى لم أعد أعرف لها عدداً ، هو أمل وحسب ، تعلق أخر ما تعلق بجهاز إرسال أو وسيلة إتصال ما ، ربما يكون الحادث قد خلفها قبل أن تبتلع الرمال كل شيئ .

لم يكن بحوذتنى الكثير من الوقت لأهدره ، تحريت عن أرض بالجوار ربما قد شاعت عنها أقاويل بأن جسماً ضخماً قد سقط فى رمالها ، أو ما شابه ، وذاك أن الناس هنا لا يعرفون شيئاً عن مخترعات العالم الحديث ، إلى أن دلنى راعى طاعن فى السن عن بقعة عند حدود المرعى عاين فيها واقعة غريبة ، ظن أنها من أفاعيل أنسال الجن .. فلملم شياهه خوفاً ورحل ، رأى غولاً عملاقاً يرف مثل عقاب معمر ، إلتقطتة عاصفة وغارت به إلى جوف الأرض ، وكانت هى البداية ، أرشدنى العجوز إلى هذه الأرض ثم خلى سبيلى لمصير قاتم تكهن حينها أنه لا عودة منه ، ويبدو أنه كان حدس فيه كثير من الصحة ، وجدت نفسى آنئذٍ فى قلب بقعة مجدبة ، فيما يبعد عن الواحة زهاء ساعة زمن سيراً على الأقدام ، تتلاقفنى أفكار وظنون شتى ، وأصوات عجيبة تتناوح قادمة من أطراف البادية البعيدة ، كان أغربها صوت حفيف مدوى زحف إلى أذنى كأنه سرب جمال راكضة ، وحين إستدرت لأتبين الأمر .. وجدت نفسى أمام مسخ ضخم يركض نحوى ناعراً مثل البعير ، فجفلت ، بعد أنسال الجن لم أر فى حياتى مخلوقاً كهذا ، بارز العظام ، له جسد قرد فى قامة رجل ونصف ، ورأس أشبه برأس حيوان الكسلان ، فى منتصفها عين واحدة ، فتقهقرت مرتعداً حتى سقطت .. وساخ وجهى فى الرمال ، وفيما إنتفضت رافعاً هامتى ، نظرت ، فلم أجد له أثر ، كأنه كان سراباً لعب برأسى فهيأ لها ما لا يُرى ، تلفت مذعوراً ، فطن فى أذنى صوت غادة ، الذى بات من جملة مألوفاتى منذ أن وحلت قدمى بأرض الواحة ، وقبلها بسنوات ، يردد " **أخر ما جال بخلدى أن أجدك هنا** " فشعرت بفرق شديد .. قبل أن أستدير فأجد ذيل الكلب أمامى ، مُردفاً " **ماذا دهاك يارجل ! .. هل رأيت عفريتاً ؟!** " .

إلتقط أنفاسى ، ثم رميته برمقة نفور " **ماذا تريد منى ؟ .. لمَ تتبعنى ؟!** " ، فإقترب كعادته مبتسماً بلؤم " **أريد أغراضى التى إختلستها بعدما ألقمتنى**

سيجارتك المخضبة بعرق البلح " ، لم أندهش أنه عرف بأن هذا الشيئ الذى إلتقمه كالمعتوه إسمه (سيجارة) .. بقدر ما جفلت قائلاً **" أى أغراض هذه التى تتره بها ؟ ، لم آخذ منك شيئا "** ، فحدق فى وجهى بعين وقحة ، قائلاً **" فلندع اللعب على المكشوف ، هنا منتهى ركضك ، كفاك ، ما عرفته كان أكثر مما ينبغى "** ، فناهضته بنبرة إحتداد **" كفاك أنت ، ليس لى علاقة بـــ ... "** ، وما كادت العبارة تلتئم .. حتى مزعها صراخ مريم ، قادماً من جانب الجبل **" أغيثونى .. أغيثونى "** ، فتلفت مشدوهاً ، آنها هالنى منظر ذيل الكلب حين تحول بغتة إلى صورة المسخ العملاق ، بعينه الواحدة ، فر راكضاً فى فزع .. ينعر كشاة لمحت ذئباً بالجوار ، بعين أذهلها المشهد .. حدقت لبرهة حتى غاب بعيداً إلى جهة مغايرة عن مصدر الصوت ، وكأن الصراخ أفزعه فهب هارباً ، وإذا بصوت مريم ينبو مستصرخاً تارة أخره ، فركضت من فورى جهة الجبل .

فى أقل من بضع دقائق ، كنت قد ناهزت أحد الطرق الصاعدة للغور والمقابلة لأرض المرعى ، تلفت حولى متحرياً عن مريم ، كان الصمت غول يخيم بنواحى الجبل من أوله لأخره ، ولا أثر لشيئ سوى الحجارة ، والكهوف الغائرة كعيون تنظر فى حذر ، هو ذاته الهدوء المرعب الذى يسبق العاصفة ، أصغيت علَّ أنيناً يزحف إلى أذنى من هنا أو هناك .. فلم يأتنى سوى هذا الصفير الذى يطرق الحجر ليل نهار ، إلى أن حدث شيئ غريب طيّر عقلى ، بدأ الأمر حين رأيت أطياف كالدخن ، وبؤر نار تشتعل وحدها ، ظلت تراودنى وتنتقل من حدرة إلى حدرة ومن كثيب إلى أخر .. وأنا فى إثرها ، أتبعها كالمسحور ! ، راحت تتخاطفنى حتى رمت بى إلى أرجاء مدق وعر .. كلما إقتربت منها إبتعدت ، حتى إنتهى الأمر بأن رأيت أخبية ناهضة عند جانب المدق ، كنت أعلم أن الجن تتلاعب برؤوس المسافرين بالصحراء .. فتشعل لهم النيران ، وتهيؤ لهم أشياء لا وجود لها ، إلا أن أيٍ من هذا لم يثنينى عن المضى جهة الأخبية ، وما إن ناهزتها حتى بوغت بحجارة راجمة تُقذف نحوى من حنايا المدق ، ترصدنى لكنها لا تصيبنى ، وما كادت تنهزم حتى عادت بؤر النار تارة أخرى ! .

وفيما شعرت بهذه اللامبالاة التى تخلف كل مشقة تفوق حدها ، وفى إلتفاتة إلى عطفة بصدع قريب .. إسترعنى شيئ يتحرك ، فترجلت نحوه فى ريبة .. فإذا بشيئ يتملص من جلمد عملاق بجرف الجبل ، كأنه تمثال ينخلع عن حائطِ حجرٍ يسنده ، ليتحول بالأخير من صخر مصمت إلى جسد من لحم ودم ، فإذا هى (باهيا) عجوز الصحراء ماثلة أمامى ، فضربتنى تلك الشهقة التى تسبق غياب الوعى ، شعرت بدوار وهنٍ ينزع الرؤية من قاع حدقتىّ ، ثم بضوء شاحب ، لينتهى الأمر بشهقة أخرى .. أيقظتنى قسراً حين إقتربت قائلة " **مفاجأة .. أليس كذلك ؟!** " .

تراجعت متعثراً أتقلب بين رحى خوف غريب ، وزيد الأمر حين إقتربت باهيا بخطو عاجز ، تنظرنى وتتبدل أضلعها على نحو مُقض بقدر ما كان مثيراً للإشمئزاز ، قالت " **أعرف ، ليست كل المفاجآت مريحة ، لا ريب أنك كنت تنتظر أن ترى مريم ، ولكن دعنا ننظر لنصف الكوب المملوء ، على الأقل هى ليست بخطر كما كنت تظن** " ، فبادرتها بسؤالى المعتاد ، بصوت راجف فقد نبرته " **ماذا تريدين منى ؟** " ، فأجابت " **لم تمقتنى بهذا الشكل ؟ ، لم تكرهوننى جميعاً لهذه الدرجة ؟ ، لست أنا من خلقنى ، ولا كنت يوماً أتمنى أن أكون بهذه البشاعة .. حتى يخافنى الناس ، ما بت منفرة إلا لأنهم إستنفرونى ، وما بعدت إلا حين إستبعدونى ، أنا صنيعتهم .. ولست بصانعة حالى** " ، وفى وثبة متهورة حاولت الهرب بها .. ففوجئت بها أمامى على صورة مريم " **لكم كنت أتمنى أن أكون فى شبه مريم** " ، ثم إقتربت تنظرنى بخبث " **عشقتُها .. أليس كذلك ؟ ، ولكن ماذا عن غادة ؟! ، لا أنكر أن شبههما يجن العقل ، ولكن غياب غادة لا يعنى أنها لم تعد فى قلبك** " ، آنها ، شعرت بأظافرها كأنما تنغرس فى جراح بالكاد جعلتها تندمل ، فصِحت متألماً " **إسكُتِى** " ، فإقتربت باهيا ، وقد تحولت إلى صورة غادة ، قالت بنبرة إستجداء " **أبهذه السرعة محوت أثرى فى ذاكرتك ؟!** " ، شعرت بروحى تتمزق ، فهتفت " **إسكُتِى** " ، لكنها حدقت فى وجهى الممتقع لوعة " **أتتذكر العمارة** ، ثم إقتربت أكثر ، **أتتذكر العمارة يا يوسف ؟ .. سور العمارة** " ، فتفجر حلقى بصرخة حارقة ، ناءت

بها عينى ، فإغرورقت " **إسكُتِى.. إسكُتِى** " ، ثم ضربنى وهن فثقل جسدى إلى الأرض عنوة .
ولتنى ظهرها ، ثم عادت متحولة إلى صورتها الأصلية " **لم أكن أعرف أنك محض ورقة هشة تسوقها الريح كيف تشاء ، ريشة يعبث بها الهواء** " ، ثم إقتربت ومدت يدها إلىّ .. فجفلت ، لكنها أطالت ، فمددت يدى .. فأقامتنى حتى وقفت ، واجهتنى قائلة " **أى جنون هذا الذى حداك أن تقطع كل هذه الأميال ! ، ما الذى أتى بك إلى هنا يا يوسف .. ألا تعرف أنه ينتظرك ؟** " ، فشعرت بقشعريرة تسرى إلى جسدى كحيّة خشنة " **ماذا ؟! ، من هذا الذى ينتظرنى ؟** " ، فضحكت ساخرة " **ما بالك فزعت هكذا ! .. نصيبك يا يوسف** " ، ثم دارت حولى مثل لبؤة تتحين موت فريستها ، ثم توقفت " **ولكن لا تحزن ، لك عندى رصاصة رحمة** " ، فنظرتها فى وجل ، فإقتربت حتى غرقت عينى فى منتصف عينها " **لا تخف .. ليست رصاصة مسدس** " ، وإذا بها على حين غرة تنقض بيديها الممصوصتين إلى مخنقى " **سأقتلك أنا بيدىّ هاتين** " ، رددتها بصوت غادة إنتهى إلى صوتها الرخيم .
كاد جسدى وهو يرتفع عن الأرض ، مُعلقاً بين يديها القابضة على رقبتى ، أن ينسل عن رأسى ساقطاً ، النفس يتردد فى صدرى متحشرجاً ، كان بينى وبين الموت إختناقاً محض برهات .. قبل أن يعوى ذئب فأجد نفسى منطرحاً إلى الأرض ، رمتنى العجوز الشمطاء ثم راحت تتلفت حولها مصطرعة ، تماماً كما فعلت حين رأيتها لأول مرة عند تخوم الواحة ، ظلت تدور وترمى بنظرها هنا وهناك .. حتى ظهر الذئب من جانب الطريق الصاعد ، فوثبت مفتزعة ، ركضت على نحو لا يتناسب أبداً مع شيخوختها ، فلحق بها الذئب عدواً .. لكنها ما لبثت أن تواثبت بطريقة خرافية ، بالكاد تلمح طيفها المتشظى ، حتى تبخرت وزال أثرها .
آنذاك كنت قد فزعت إلى غار بالجوار ، متدثراً بظلمته ، أرقب ما يحدث ، فإذا بى أرى الذئب قد عاد ومر بجوار فتحة الغار ، وما هى سوى هنيهة حتى وجدته قد تحول ، بعد بضعة خطوات خطاها ، إلى صورة راضى إبن الشيخ ياسين ، فإتسعت حدقتىّ فى شدهٍ ، لا أصدق ما أرى ، مكثت أرقبه

للحظات قبل أن تواتينى لحظة جسارة فلحقت به ، مُنادياً بإسمه ، لكن عاصفة ترابية هاجت بغتة ، فابتلعته ، حينها ، وفيما فقدت أثره ، عدوت شطر الواحة دون أن أتحرى لما حدث عن تأويل حتى ، كان همى الأكبر بعد النجاة بنفسى أن ألتقى بالشيخ وأقص له ما حدث ، فى هذه اللحظة ، وبعد جملة ما جرى لم أجد مناصاً من البوح ، ذاك الذى تأخر كثيراً حتى تمادت الأحداث إلى حدٍ بات من الخطورة أنه ما عاد يجدى معه لا صمت ولا بحث ، لم يكن ثمة مفرٍ من فض جعاب الشيخ السرية لمعرفة ما يُخفية ، فما عاد فى صدرى صبر للمزيد ، هى ذاتها اللحظة التى تنوء فيها النفس بأقل شيئ يُحتمل .. وإن كان هذا الشيئ هو روحها التى تتردد بين جنبيها ! .

إبان ذلك ، وكأن الأحداث الهائلة كان تنتظر فقط إشارة لتنفجر ، فيما كان الشيخ ياسين مستلقياً على بساط وحشية أسفل دغل النخيل ، مغترقاً فى نوبة إغفاء عميقة .. نادراً ما كانت تواتيه منذ وقت طويل ، إذ إقتربت حيّة رمادية من جسده المسجى فى سلام ودعة ، زحفت حتى ناهزت ساعده الراكن إلى صدره ، صعدت إليه ، ثم أفرجت فمها والتقطت خاتمه الغليظ الملفوف حول بنصره ، ذاك الذى يتوسد فصه نقشاً أيقونياً ، الجمجمة والثعبانين ، وما إن فعلت حتى كرّت راجعة ، إندست فى أجمة الحشائش الكثيفة المنتشرة حول الدغل ، حينها ، وما كاد الشيخ يصحو متلفاً حوله إثر حفيف إسترعى سمعه .. حتى عرج برأسه جهة راضى الجالس إلى جواره فى صمت ، ظاناً أنه منبت هذا الهسيس الذى قض مضجعه ، كان منظرهما غريباً ، خايلانى على بعد خطوات من مجلسهما وكأنهما مُنومان ، فإقتربت بعد ركض مكروب من قلب المرعى إلى الواحة ، ثم جلست إلى جوارهما أرميهما بنظرات خليسة .. كانت تتوقف دوماً عند جسد راضى الرازح بلا حراك ، لكنه لم يعن حتى بالإلتفات نحوى ، وإن كان من باب إستقراء رمقاتى المريبة .

كان ثلاثتنا أشبه بمن يلعب إحدى ألعاب الصغار ، على رؤوسنا طير رهيف ملول ، وفيما كنا على حالتنا هذه إذ هوت فوقنا همهمة مدوية ، سرت فى الهواء مقعرة كأنها لوحش بحجم الجبل ، كأنما يخبخب نائماً ،

فإلتفتنا لأعلى فى هلع .. لنرى أخر ما يمكن للعقل أن يتصوره ، عملاق أسود ممدد فوق شواشى النخيل ، تفوح منه رائحة زنخ مقبضة ، كأنها عبق شواء لحم ، ففزعنا واجمين فى وثبة واحدة ، يُشعرك حجمه الفائق بدوار وكأن الواحة تميل جهة الجبل ، ما إن تدلت رأسه ، فلاحت إبتسامته المستفزة وأنفه الجبلية الغليظة ، حتى تبينت أنه جبرين الدقاق ، ذلك المسخ المتشيطن ، برغم إنفراج شدقيه .. كان ينظرنا بعين واحدة على نحو مُنفر كئيب ، شعرت على إثره ببرودة حادة تسرى إلى أطرافى ، وخايلنى حدس لا ريب فيه أن سيقان هذه النخيل لن تتحمل جرمه الثقيل ، وأنه بالأخير سيسقط فوق رؤوسنا رازحاً .

إعتدل الشيخ ياسين ورسّخ قدميه فى الأرض ، ثم رفع بنصره مثنياً شطره ، فى حركة تبدو فى ظاهرها وكأنها طقس سحرى ، أو كرامة ولىّ ، لكنه أخفض يده سريعاً ، ناظراً إلى إصبعه فى حسرة .. حين إكتشف إختفاء الخاتم ، ذاك الذى بواسطته فقط إعتاد الشيخ ردع هذا المتشيطن وإغراقه فى حالة طوارئ دائمة ، ولرد شره ومزاجه السادى الذى يجمح به دوماً لضرب ضحاياه بالهلاوس والضلالات ، حينها إنفجر جبرين بضحكة مهيجة للأعصاب ، مُبدياً الخاتم فى بنصره الأيسر ، وما كاد الغيظ يكمد الشيخ ، فيتغير وجهه إمتقاعاً ، حتى تشققت دماغ هذا العملاق بغتة ، ناثرة قشرتها ، منحسرة عن نسخة أخرى من جبرين .. لكنها فى قامة رجل عادى ، تماماً كما تنفلق البيضة للفرخ الصغير ، إنحنى ، ثم وثب فى الهواء بخفة بالغة حتى حط إلى الأرض ، ماثلاً أمام الشيخ مباشرة ، ينظره بإبتسامة شماتة وغيرة ، آنئذٍ ، رفعت رأسى ناظراً لأعلى .. فإذا بشواشى النخيل خاوية من هذا العملاق الذى كان للتو يستضجعها ! .

ما إن شعر الشيخ بأنفاس جبرين تُلهب وجهه .. حتى أقام يده ليقبض على مخنقه ، لكن راحتيه قبضتا على فراغ مُدخن ، فقد تبخر عنه جبرين ليظهر واقفاً على كثيب أخر .. ينفرج شدقه عن إبتسامه وقحة ، فهب الشيخ إليه راكضاً ، فتواثب جبرين أمامه بخطو واسع حتى سبقه ببرهات ، كانت خفة الشيخ آنئذٍ وحركته الموزونة فيما يبدو وكأنه قد برئ من كفاف بصره ، وذاك أن بياض العمى ينحسر عن عينه فقط لحظة ظهور جبرين الدقاق

بالقرب منه ، وهو أمر من الغرابة أنه كان أحد أسرار الشيخ التى إفتقرت كثيراً لتفسير ناجع ، رغم تعثره المكرور بين الكثبان الناهضة .. ظل يلاحقه حتى كاد أن يمسك به ، لولا أن هوة سوداء القعر برزت أمامه فأوقفته عنوة ، وآنى للشيخ حينها أن يدرك أن هذه الحفرة ما هى إلا فم الوحش الذى زال للتو عن رؤوس النخيل ، وقد تعاظم جسده لأضعاف حجمه الأصلى ، ولولا أن الوحش نفسه ند إبتسامة ساخرة ، فإفتغر فمه عن ثغر غليظ مثل غرف بيضاء موصدة ، ما كان للشيخ بحال أن يستجمع جرمه الفائق الذى إفترش أرض الواحة مرتدماً بالرمال .. لا يظهر عنه سوى قدمه الناهضة مثل نصب أثرى عند ساحة البئر ، ووجهه البارزة نتوءاته بالقرب من دغل النخيل ومربض الجمال ، وبعض من خصره الضامر فى الوسط .

كان منظراً خرافياً ، جبرين بهيئته المألوفة يراوغ الشيخ عدواً ، من جانب إلى جانب ، فوق جسد شبيهه بنسخته المتعملقة ، وإذا بهذا الضخم ينهض من رقدته بغتة .. فينثرهما فى الهواء ، فتدحرجا كحجرين عبر جرف هائل ، لا يُساميه سوى حدرة جبل كاراكاو ، حتى تكوما ، فيما إنذرى العملاق كعاصفة طاحت فى الهواء بغتة ثم خبت ، ثم باتت لاشيء .

قام الشيخ ، ينفض التراب عن وجهه وثيابه ، ليفجأ بجبرين أمامه ، ممسكاً بخناقه ، يبصق فى أذنه بنبرة وغيرة كلمات تحمل أثر إنتقام قديم " **خائن العهد .. خائن العهد** " ، حينها تقلص وجه الشيخ وإمتقع إلى زرقة قاتمة ، كاد بين يديه أن يلفظ روحه .. لولا أن راضى إنفك من عقاله متجسداً فى صورة ذئب رمادى ، هب واثباً بقفزة واحدة حتى إستوى أمامهما ، فجفل جبرين وأرخى قبضته عن عنق الشيخ ، فسقط ، بدى الأمر فى مُستهله كمقطع رسوم متحركة مبتذل .. لولا أن باهيا ظهرت من جانب الدغل ، وكأنما إنبثقت من جوف الأرض ، فقصلت رأس الذئب بسيف معقوف ، ليعود راضى إلى صورته الآدمية ، مطروحاً ورأسه منحورة إلى جواره ، التقطتها باهيا بسن السيف ثم وضتعتها فى جوال خيش تحمله ، ثم هربت واثبة جهة الصحراء ، منفجرة بضحكة متهدجة مخيفة .. ملأت سماء الواحة فرقاً ورعباً ، حينها ند جبرين إبتسامته المستفزة مُطرباَ ، ثم كرّ بضع

خطوات وئيدة ، ممعناً نحو الشيخ الذى جثى إلى جسد إبنه المقصول ، ثم هب راكضاً شطر الجبل ، كفارس جبان خلى سبيل المعركة بعد أن أتى على غريمه غيلة وغدراً ، وما لبث أن تلاشى فى الهواء كذرِ الغبار حين تطوحه الريح .

آنئذٍ ، وفى تلك الأوقات المريرة التى تفصل دوماً بين الحياة واللاحياة ، وفى اللحظة ذاتها التى هبت فيها مريم إلى أبيها بعد أن رأته جاثياً على نحو مريب ، وهى التى تحفظ حركاته وسكناته عن ظهر قلب ، كان الشيخ قد أوغل فى سحب رهيبة .. يتحسس جسد غلامه الذى ضاعت ملامحه ، لازال ينتفض ، الروح تتردد مصطرعة بين جنبيه .. تبحث فى جرمه الصغير عن ملاذ يدمل جرحها النازف ، ولكن اللحظة لا ملاذ ولا مفر ، ما كاد حتى خمد ، وخمد معه كل شيئ ، إلا صراخ مريم ، التى أتت فعاينت دم أخيها وقد إختلط بثرى الواحة ، أبى أنينها أن يركن فى حلقها .. ظل يتردد بكاركاو كنفير البعث ، راكضاً من البئر إلى الجبل إلى أقاصٍ بعيدة ، يبحث هو الأخر عن مريم أخرى تليق بأتراح الأيام القادمة .

(١١)

لو حدثنى أحدهم بأنه كابوس .. لقلت خبال وخرف ! .
توشح كل شيئ بكآبة وصمت مريب ، البئر ، جبل كاراكاو ، الناس والدور والخيام .. الواحة كلها ، الأصوات فقدت حقيقتها فى سكون ، ثم إنتهت إلى صمت ، ونما الصمت حتى إزداد عمقاً ، ليس حزناً ولكن إنتظاراً ، الكل فى حالة ترقب ، ترددوا على دار الشيخ ياسين يواسونه ، فى فيئة متأخرة ، ربما لم يجـدوا سواها مهـرباً ، بعدما نالو منه أشد النيل ، وبرغم حزنه إستقبلهم وأحسن ضيافتهم ، ولكن بوجه آسٍ خددته الفاجعة ، كانوا حـوله مثل ثلة نمل إجتمعت حـول شمعة تقطـر دمعاً ، يستدفئون بها .

برغم الصمت الذى ران على سماء الواحة ، كان كل فرد فى جوفه شيء على شفير الصراخ ، ربماً ألماً وكبتاً ، برغم الإنتظار كل فرد لديه ما يقوله ، كلهم وفى قرار جمعى يريدون البوح ، نفذ جلدهم حيال هذا الليل القاتم الذى جثم على صدورهم ، وغشى دروبهم لسنوات طوال ، لم تكن لُمة البئر كل مساء سوى وهم ، ومحض هروب من هذه الأسرار التى تخشى هى ذاتها أن تتبين للعامة ، ولم يكن من وقت أنجع من هذه الأيام للمكاشفة ، وما أقساها الأسرار حين تقرر أن تكسر القضبان وتفر ، لم أطق صبراً ، حتى الشيخ ياسين برغم حسرته وكمده ، وحزنه الشديد على مريم التى غابت الضحكة عن وجهها ، لم يكن بوسعه أن يظل صامتاً ، طلبنى إلى خيمته فى مساء غريب بعدما إنقطع عن الناس عدة ليال ونهارات ، لأجده هو ومريم فى إنتظارى ، كان فى بصدره حديث قديم ، أسرار ناءت نفسه بها ، وما عاد من متسع لإحتمالها ، كان قهره على إبنه ، الذى إنتُهكت آدميته أمام عينه ، حادياً لأن يفض جعابه ، ويخرج من خموده الذى دام طويلاً .

أخذت الوثائق معى ، وأفردتها أمامه ، قائلاً " **هى كل ما عثرت عليه ، عرفت منها أشياء كثيرة ، لكن ما رأيته يؤكد أن ثمة سر وبيل لا أحد يعرفه غيرك** " ، فشخص ملياً بعينين كليلتين .. لمحت فى غورهما حقيقة أكثر

تعقيداً مما تصورت ، إلى أن بدأ يبوح ، وبدأ الأمر حين طلب من مريم تميمتها ، تلك التى كانت تعلقها فى جيدها ليل نهار .. فأعطتها له غير آبهة ، إلا أنه أحس رعدة حين لامست أناملها يده ، فتوجه لها ، ثم ربت على كتفها مُطمئناً " **لا ترتاعى .. ما عاد من حاجة له بك بعدما إسترد خاتمه** " ، فشعرت حينها بجذوة خوف تنبت فى صدرى ، فنظرته فى قلق " **عمن تتحدث ؟ .. جبرين الدقاق ! "** ، فرد ببرود بالغ " **ليس بجبرين الدقاق** " ، فزاد ذعرى " **إذن من ؟! "** ، فأطرق للحظة قبل أن ينطق آسياً " **الراصود** " ، فقلت مدهوشاً " **الراصود !! "** ، وما لبثت حتى أردف " **هو ذاته المخلوق الذى تظن أنه جبرين الدقاق** " ، فشعرت بتشظٍ يطوح رأسى ، فنظرت لمريم فى تره .. أستنطق شيئاً يفسر ما يقول ، فلم تنطق ، فعرجت إليه هامساً فى إنهاك " **أنا لا أفهم شياً** " ، فإبتدرنى قائلاً " **على هونك .. سآتيك بما لم ينبو إليك خبره** " ، فأصغيت إليه فى وجوم ، كنت على شفير سؤال لحوح خشيت حتى أن أنطقه ، ولا أملك أن أتجاهله ، أتحين تلك الأسرار التى إحترقت حيرة وقلقاً إنتظاراً لسماعها .

نقل الشيخ بصره من الجبل إلى البئر ثم ألقاه بعيداً إلى اللاشيئ ، ثم أمسك بيد مريم وفركها بحنو بين يديه كأنما يقاوم توتراً يُلح عليه ، ثم نظرنى قائلاً " **أعلـم أنك فـى إثرنا منذ أن حطت قدمك أرض الواحـة** " ، فقلت محتجاً " **أنا لم آت فى إثر أحد** " ، فأشار لى بالصمت .. فأنصت فى طاعة ، رغم غمغمة إحتداد تروغ داخلى ، فأردف غير عابئ " **كما أعلم هذه الأسرار التى فتشت عنها فأسفرت طواياها ، لكن الحقيقة من الخطورة أنه يصعب حتى الهمس بها ، وما كنت لأفض مغاليقها لولا أنها تلطخت بدم ولدى** " ، ثم أطرق للحظة " **هى حكاية قديمة تعشش فى ثرى هذه الأرض كما تعشش الحيات والعقارب ، لم يؤتى خبرها سواى أنا وهذا الراصد الملعون ، حتى عجوز الصحراء ذاتها كانت دوماً مثل شاة مُسيرة لا تدرى إلى أين تُساق** " ، فنظرته مرتاباً " **ما زادنى حديثك الملغز إلا ريبة ، من الراصود هذا ؟ ، وما هى صلتى أنا بهذا كله ؟! "** .

وإذا به قد توتر ، وتفصد جبينه عرقاً بارداً ، شعرت بيده تتشنج على طـرف

البساط ، لكنه سريعاً ما لملم رباطة جأشه التى إنفرطت ، ثم قال بعد هنيهة صمت " **كان الأمر كله بمحض الصدفة ، بدأ حين صعد جبرين الدقاق هذا الجبل ، آنها كان سارحاً بفرسته وعربة الكارو حين جاءه خبر بأن الشيخ حسيب كبير الغجر يريده لنقل بعض الأغراض القديمة بالقصر ، وقتئذٍ كانت الواحة قد إستقبلت أربعة نفر يرطنون برطانة أعجمية .. لأمر خافٍ لا يعلمه سوى رهط من العربان ، وصار ما صار ، كان الأغراب يترصدون جبرين لأجل دفينة عتيقة مقبورة بقاع البئر ، عمرها أكثر من ألف عام ، إستشرفوه فى غداة هذا اليوم ثم إختفى بعدها ، لم نجد له أثر قبل أن ينحسر البئر عن جثمان فرسته ، وأحد هؤلاء الأربعة ! "** .

" **ذبحوه** " قلت مؤيداً ، فردد الشيخ الكلمة فى أسى " **ذبحوه** " ، ثم إعتدل فى جلسته " **كانت الدفينة مرصودة من الجن .. ولن تخرج بحال من مكمنها إلا على دم عبد أسود ، لكن ما حدث أن الأغراب قبل أن يتآجلوا على الرجل ، وينحروا رقبته ، كانوا قد أخطأوا فى شعائر فك الرصد .. فتجدد بموتهم بدلاً من إبطال مفعوله ، وفض عقده ، فأصبح الكنز الذى إرتوى بدم ذبيحتهم مرصود من أحد مردة الجن ، (الراصود) ، حارس لعين .. يسعى بعين واحدة فى صورة جبرين الدقاق** " ، ثم أطرق حتى شعرت بمؤقه تترقرق " **وإذا كنت تسأل كيف كان الأمر .. كان حين رأيتهم بأم عينى يوجئون رأس جدى بباحة القصر** " ، ثم ذرف عبرة نزلت رغماً عنه فبللت لحيته ، فحملقت مشدوهاً " **جدك ؟! "** .

حينها فقط إلتأمت الخيوط فى رأسى بأسرع مما تخيلت ، تذكرت الحلم ، وهذا الصغير الذى إلتقط خاتم جبرين الغائص فى دمه وفر هارباً ، هو ذاته الشيخ ياسين ! ، مما يعنى أن الخاتم الذى إنتهبه الراصود بواسطة حية رمادية منذ بضع نهارات .. إنما هو فى الأساس خاتم جبرين الدقاق ، ولكن ما هى خطورة خاتم كهذا حتى تتناحر الأيدى لأجله ، وتتناقله سلباً من يد ليد ، قبل أن يطوق إصبع الراصود ، وهذا ما واجهت به الشيخ ياسين ، فأجاب على نحو أثار روعى " **ما من ليلة كانت تمر إلا وكان الراصود يوافينى حلماً ويقظة ، دوماً ما كان يأتينى فى صورة جدى مستغيثاً ، يريدنى أن أفك رصده ، علمت أنه مُكبل بأصفاد من حديد بقاع البئر ، مرصود ..**

لحراسة الكنز ، ولكم صدع رأسى بصراخه وأنينه ، وساقنى منوماً لأقلقل حجر البئر بواسطة النقش المنحوت على جداره ، أخبرنى بأن خلاصه معقود بالخاتم والطلسم الموسوم عليه ، الجمجمة والثعبانين " ! .

على عكس ما قد يثيره بوح مريع كهذا داخل كل إنسان عادى ، سواى ، تلفت حولى مُؤرقاً ، شعرت مريم بهذا الكمد الذى كاد أن يفتت رأسى ، فبرغم ما ألم بى من وجل ورهبة بين كل كلمة وأخرى .. حاولت كبح جماح سأم عنيد تسلل إلى صدرى رويداً ، أحسست بصدغىّ قد تورما ، كنت أبحث فى حديثه عما يخصنى كمن يُنقب عن إبرة فى كومة قش .. وما من شيئ ذكره ذا صلة من قريب أو بعيد بى ، ورغم ذلك إسترسل الشيخ غير عابئ ، قائلاً **" وحين أبيت أن أفك رصده كثرت مصائبه ، ثار الراصود كموج عارم .. ضرب الواحة بالهلاوس والضلالات والخطف والقتل ، ولولا سجنه لفعل المزيد ، فألجأنى قسراً إلى ردٍ كان لابد منه .. لأصد وبل شره وإنتقاماته ، فإختلست الخاتم فى إحدى هذه المرات التى أزحت فيها حجر البئر عنه ، لكنه ردها لى بقوة حين إنتقم فسلط إلى وجهى شهاب من نار .. فعمانى ! "** .

لم يحرك حديثه لى ساكناً ، ولولا أن تدخلت مريم بوقتها لطال هذا الصمت الذى ران علينا بغتة ، قالت **" أتقصد أنه هو من خطف رجال الواحة وصغارها ؟! "** ، فرد **" فعلها بيد ذيل الكلب والسمادونى حين طمسوا عقولهم ، كان السمادونى يسحر أسماع الناس بأفانينه ، فيما يُذهل ذيل الكلب أعينهم بحركاته وسخافاته ، ثم يسحبهم بشرابه المُسكر إلى باهيا .. ليختار الراصود من بينهم قرباناً يفتدى به نفسه ، حتى ينفك عنه الرصد الذى كبله حبيساً بقاع البئر ، ولأجل ذلك عقد لراضى سحر خبيث أحاله إلى ذئب هائم فى الصحراء .. يُطارد باهيا كلما نسيت مهمتها وتراخت عن إنتقاء قربان له ، وبالنهاية ذبحوه كما ذُبح جده ، هى لتتخلص من سيطرة الراصود عليها ، وهو حين لم يعد له حاجة لقرابينها .. إذ ظهر الغريب المنتظر "** ، وما إن أتم عبارته الأخيرة حتى إنهمر سيل من التوقعات السيئة إلى رأسى بلا رحمة ، فإنتفضت فى محطى **" الغريب المنتظر ! .. أتقصدنى**

أنا ؟! " ، فارتبك الشيخ حتى أنه تره لهنيهة قبل أن يمسك بطرف الحديث فيقول **" لا أعرف من المقصود على وجه التحديد ، كم من أغراب وفدوا إلى الواحة ، وغابوا فجأة "** ، فواجهته **" قلت للتو أن الغريب المنتظر قد ظهر "** ، فارتبك أكثر **" قلت ، ولكنى لم أقصد شخصاً بعينه ، كان محض تخمين "** ، فنظرته مرتاباً ، كان من الصعب أن أصدق عينيه اللاتى ظلتا تروغان منى إلى لاشيئ ، وأكذِّب هذا الختل البادى فى غورهما على نحو مريب سافر .

حينها طن فى رأسى خاطر حاولت أن أدفع به هذا الهاجس المخيف **" ربما يقصد واحداً من اليهود الأربعة "** ، فند الرجل إبتسامة باهتة أثارت حفيظتى **" كيف يكون واحد منهم وهم بالأساس من عقدوا رصد جبرين الدقاق ، ثم لقوا حتفهم "** ، فشعرت بالخذى والحرج ، فوجدها فرصة ليُزيح ريبتى ، ويطمس الأثر الذى أصابه حديثه بصدرى ، فقال مُثرثراً **" يبدو أنك لم تدرك بعد تسلسل الأحداث ، رصد جبرين الدقاق إنما عُقد منذ أربعة عقود فقط ، واليهود الأربعة هم من جددوه بطقوس خاطئة ثم ماتوا غيلة ، مما يعنى أن الغريب المقصود ليس واحد منهم ، إنما واحد يليهم ، ولكن ثمة رصد أخر يسبقه بحوالى ألف عام أو يزيد على حد ما أعلم ، كنت قد سمعت فى وقت سابق من أحد الأغراب الذين وفدوا إلى الواحة أن الشيطان قد أوعز إلى طائفة من يهود المهجر ، ينتمون إلى عائلة واحدة .. بأن ثمة دفينة نفيسة ترجع لبعض أجدادهم القدامى مطمورة هنا بمكـ ... "** ، فصرخت فى وجهه ، فى ثورة مباغتة **" كفى .. مللت هذه الثرثرة ، أعرف كل ما ستقول "** ، فانتفض الشيخ ، وفزعت مريم متقهقرة خطوة للوراء ، فنظرتها شذراً غير آبهٍ بإفتزاعها ، كان الذعر قد نال منى أخر مداه فلم ألق بالاً لما أفعل ، كاد الكبت أن يقتلنى ، فأشحت بناظرى بعيداً أنفث غيظى فى الهواء ، وما هى سوى لحظات حتى إغترقت فى صمت أشبه بسكون الموتى ، كنار هاجت وما لبثت أن خمدت .

آنها ، شعر الشيخ بحجم الفاجعة التى رمانى بها .. حين باح صراحة بأن

ثمة غريب هو المقصود ، ولا غريب بالواحة اليوم سواى ، فآثر الصمت ، فكل كلمة كان يفوه بها تُفاقم شكوكى ، بيد أن حديثه وصمته معاً .. ما زادانى إلا يقيناً لا ريبة فيه بالمصير القاتم الذى ينتظرنى بأرض الواحة ! ، بعدما بات كل ما كنت فى السابق أستنكره ، وأعتبره درب من المستحيل ، ليس فقط قابلاً للتصديق وبجدارة ، بل واقعاً أعيشه ويهددنى بمصير لا أعرف له كنة .

ران على الخيمة هدوء مطبق ، وكأن الصموت هنا هو البديل حين يفقد الحديث ناصيته ، جدواه ، كنت أرى مريم خلالها وهى تلكز ذراع الشيخ أن يتكلم تارة ، وأن يكف تارة ، للحظات أخرى طويلة كنت أحدق جهة البئر شارداً .. قبل أن يغمرنى هاجس مخيف ، فأعرج إليهما بغتة " **ماذا يعنى هذا كله ؟ ، ألا يوجد حل لوحلتى هذه ؟ ، سأظل حبيساً هنا بقية عمرى ؟** " ، فإتكأ الشيخ إلى ساعد مريم مقترباً منى " **لا ذنب لنا فى هذا كله ، نحن مثلك ضحايا ، بسبب الراصود باتت الواحة فى منأى عن كل شيئ ، أرض موحشة ، لا عين تنظرها ، ولا غريب يدخلها ويخرج كما وفد** " ، فقلت ساخراً " **وماذا يعنى هذا أيضاً ؟! ، أن أصمت ! ، أن أقنع بأنه لا أمل فى شيئ !** " ، فأمعن الشيخ لبرهة جهة جذع السمادونى الذى فقد صاحبه ، ثم نظرنى متحمساً كأنما وجد ضالته ، فقال بصوت حاد ، بدى كصوت غادة ثم إنتهى إلى رخامة صوته " **الخاتم .. لا بد أن نسترد الخاتم** " ، فنظرته فى تره " **ماذا ؟! .. أتقصد أن نفك الرصد ؟!** " ، فقال " **فك الرصد مجلبة للمهالك ، لن نجنى من وراءه سوى مصائب لا تنتهى** " ، فحدقت فى وجهه وقد زادت حيرتى " **إذاً ما معنى أن ترد الخاتم دون أن تفك الرصد ، إلا إذا كنت تنتوى أن تقدمنى قرباناً !** " ، فإبتسم " **على رسلك ، ما أقصده أننا لن نستطيع السيطرة على هذا الشيطان دون حيازة الخاتم** " ، فقلت مدهوشاً " **وما الجديد ؟! ، كان الخاتم فى السابق معك ، ما الفارق هذه المرة ؟** " ، فتحرك الشيخ إلى طرف الخيمة ، هامساً " **طالما أن الأسرار كلها قد تكشفت .. فالفارق كبير** " .

(١٢)

لم يمر كثير من الوقت على هذه الليلة ، مساء البوح المشهود ، حتى تغير كل شيئ ، محض أيام ، ركضت ركضاً دون جديد قبل أن أتبين أن حديث الشيخ لم يكن مجرد حقنة مخدر ولا فض مجالس كما ظننت ، فلقد أعمل الراصود أحد أسلحته الأثيرة ، وإستعان بأشدها فتكاً للإطاحة بكل نفس رعناء أغرتها الحياة بوهم الجسارة ، كان ما جرى أشد من أن يُحتمل ، لم يصمد أمامه أحد ، وأول ما بدأ ، كما يبدأ الأمر دوماً ، بشرارة وهمية ، حادث عارض .. لا هدف له سوى جس النبض ، وإستشعار قوة العدو .

فبينما كان الشيخ ياسين غارقاً فى نوم عميق ، منطرحاً على مصطبة تتصدر القبر الماكن بصحن الدار ، تسللت سبعة مخلوقات قزمية ، أشبه بعفاريت صغار ، من شقوق الجدران وفواصل الشرفات ، متسربلة كالدخان ، كان لها هيئات آدمية بطول نصف ساعد ، راحت تُرهف السمع وتتجسس بأركان الدار .. سائرة بخطو خليس وأجساد محنية ، كانت تتلصص من باب إلى باب ومن حائط إلى أخر ، وتتلفت حولها كلصوص الليل حين يداهمون مخزن غلال ، وما إن إطمأنت حتى طفقت تلهو حول جسد الشيخ المُسجى ، وتتواثب مثل قرود بلا سائس .. قبل أن تعبث بكل شيئ ، إنفلتت من الباحة إلى الغرف تذرع الدار جيئة وذهابا ، ثرثرت أجولة القمح والشعير ، وسكبت حاويات الأعشاب ، وراحت تتلاقف حبات التمر وتقرضها .. فى نهم وسُكر ضاحك ، حتى أحالت البيت الهادئ دوماً إلى كرنفال من العبث والتراشق ، والجلبة المدوية .

أثار حراكها وقتئذٍ الشيخ .. فتيقظ محملقاً ، لكن لا أحد فى هذه الزمرة الضاجة شعر به ، فوارب عينيه وراح يُراقبها بأجفان مرخية .. دون أن يغادر فراشه أو يجلس قاعداً حتى ، خموده وسط هذه الحرب يقول أنه ليس باللقاء الأول ، ظلت المخلوقات تتقافز فى خفة ، وتقهقه مثل سنافر صغيرة .. قبل أن تبدأ بالإقتراب منه ، تسلقت المصطبة وطفقت تتنقل فوق ساقه وجذعه ، وحين تجاسر أحدهم فتسلل ، دون البقية الخائفة ، مترجلاً عبر الذراع النائم على بطبه متجهاً نحو الكتف ، فزع الشيخ جالساً ، ففرت

متخبطة فى بعضها البعض .. يُسمع طقطقة إرتطامها ، تسربلت كالفئران هاربة إلى الشقوق والصدوع ، ثم إختفت كألسنة الدخن .
لبرهة ، ظل الشيخ يغمغم غيظاً ، ناظراً جهة شرفة صحن الدار التى إنفتحت بغتة .. إثر هبة ريح غاشمة ، فأفزعته ، أمعن فى سماء الواحة المظلمة التى تنذر بطقس غير مستقر ، وربما أحداث متوترة ، كان الغيم يتلبد حاكياً قصة الليل حين يتعهد صاحبه بالكدر ، وما لبث أن عرج بناظره متصفحاً أرجاء الدار حتى توقف ببصره ، منزعجاً ، عند باب غرفته المفتوح على مصراعيه ، محدقاً فى كمد إلى حاويات الأعشاب وقد إنفرطت وتبعثر ملؤها ، وإذ بهسيس يطن فى أذنه آتيا من ركن الدار ، جهة الباب الخارجى ، فإلتفت مرتعداً .. ليرى اليهود الأربعة واقفين فى حديث خاص ، يتهامسون برطانة عبرية ، ويتلاقفون أوراق ووثائق فيما بينهم ، يومئون نحو البئر البادى من الشرفة المفرجة ، ما إن شعروا بإلتفاته نحوهم حتى غمرهم إرتباك شديد .. فتفلتوا خلسة متفرقين بأنحاء الدار ، ليختفى كل فرد قبل أن يناهز وجهته .
آنها ، أحس الشيخ بإختناق شديد يسد شرايينه ، فمر بيده على حرف القبو الناهض خلفه .. حتى توقف عند كتف بارز من الحجر ، فإستند إليه واقفاً ، وبرغم إدراكه ، على نحو لا يُشق له غبار ، لألاعيب الراصود التى لا تنشط سوى فى غلس الليل .. ترجل فى عناد جهة الباب الخارجى ، تائقاً إلى نسمة باردة تملأ فراغ صدره الذى إغتمر برائحة الشيح وورق السدر مساحيق النوى ، وما لبث أن أزاح المغلاق وجذب دفتى الباب .. حتى بوغت بغيمة دخانية هائلة تفج فى وجهه ، لينسل عنها الراصود بجسده الأسود ورائحته الزنخة ، قابضاً على حية رمادية ، مثنية بيده كأنها سوط ، تقدم نحوه خطوة بطيئة .. قبل أن يرفع يده ويطلق طرف الحية الأمامى فى الهواء ممسكاً بذيلها ، فحلقت سريعاً حتى إلتفت حول جسد الشيخ فى عدة حلقات كحبل مجدول ، طوقته ، ثم إرتفعت برأسها إلى وجهه تنفر فحيحاً مخيفاً ولسان مشقوق ، حينها إقترب الراصود بهامته حتى تقاطعت مع وجه الشيخ ، هامساً فى أذنه " **هل سمعت قبل اليوم عن حية نست من قطع ذيلها ! "** ، ثم رفع يده وفرك شحمة أذنه اليسرى " **ألم يأن الوقت لتفى**

بوعدك يا شيخ ؟ " ، فأقام الشيخ رأسه للخلف ، محدقاً فى عين الراصود السليمة **" عشم إبليس فى الجنـ .. "** ، وما كاد ينطقها حتى جذب الراصود الحية فأحكمت خناقها ، فصرخ الشيخ متألماً ، فدنا الراصود بأنفه حتى لامست أنف الشيخ ، موسوساً فى غيظ **" أتدرى .. لم أصبر على أحد مثلما صبرت عليك "** ، فزجه الشيخ بدفعة من قرنه **" كان لابد أن تعرف أنك ملعون ، وبالأخير ستحترق "** .

فحرر الراصود ذيل الحية من يده ، فيما بقيت هى على إطباقها حول جسد الشيخ ، ثم دار حول نفسه فارداً ذراعيه فى خيلاء ، متنقلاً ببصره من السماء إلى جرف الجبل ثم إلى الشيخ ، مردداً **" وهم ، هذا كله وهم ، أيها العجوز المخرف أنتم فى أرضى ، وتحت سمائى ، لمَ يعصى عليك فهمها ؟! "** ، فإنفجر الشيخ ضاحكاً حتى أخذته سعلة لحوحة **" أستحلفك بالذمة ، إن كان لك ذمة .. أحقاً تُصدق نفسك ؟ "** ، فإغتاظ الراصود **" أتوق لأعرف .. بأى أمارة عجرفتك هذه ، أنت فى يدى .. ولا يشق علىّ عصفك بين إصبعين "** ، فرمقه الشيخ مُطرباً **" وأنا حسبى جنونك هذا .. كلما واجهتك الحقيقة ، ليـ .. "** ، فقاطعه الراصود بغته بإماءة من إصبعه **" صهٍ ، تقول جنون ! "** ، ثم إنفجر ضاحكاً على نحو سافر ، ليصمت فجأة فى جدية مصطنعة ، مثل صبى أرعن متقلب المزاج ، قائلاً بوقاحة **" يمكنك أن تكمل الأن "** ، فقال الشيخ ضائقاً بألاعيبه **" ألا تمل ؟! ، ألا تملك سوى أفانينك السخيفة هذه ؟ ، أنت لا تملك أن تحرر نفسك حتى ، أيا أحقر من خلق .. أقصى ما يمكن أن تتمخض به خزعبلاتك هذه أن تلهو بها بعقول الجُهال ، فلا تحاول حتى أن تجربها معى ، ما أبئسك من مسخ منزوع الهوية "** .

حينها إستشاط الراصود .. فتجمع غضب الصحراء كلها فى عينه ، حتى أن الشيخ أحس حرارة هائلة تفح من جسده ، تصعّد منه دخن أسود كأنه عود حطب يحترق ، وما كاد زنخه يملأ المكان حتى إنبلج عن الظلام خلفه غراب أسود ، رفرف بجناحيه خلف كتفه .. ثم حام فوق رأسه ناعقاً بنعيب منكور ، فمد الراصود يده للحيّة ، فاصَّعدت بذيلها ، حتى كانت بين أصابعه ، كأنما إنجذبت إليه بقدرة غير منظورة ، فنزعها بقوة ..

فأرخت حلقاتها عن جسد الشيخ ، فانهار ساقطاً يُسعل بأنفاس متقطعة ، وما لبث حتى رفع الراصود الحيّة من ذيلها ثم طوحها إلى الهواء ، كما يطوح الجلاد السوط ، فرقعت بصوت مدوى ، فإنتفض الشيخ مُوارياً وجهه بكفيه ، وما هى سوى هنيهة صمت حتى أزاح يده ، متلفتاً حوله ، فلم يجد للراصود أثر ، لكنه سمع صوت أنثى تهمس داخل غرفتى " **يوسف** .. **يوسف** " ، ففزع واقفاً ، ثم تحرك جهة باب الغرفة الموصدة ، يتفقد ما يحدث بالداخل .

.....

كنت نائماً .. حين فتح الشيخ ياسين باب الغرفة بغتة ، تلفت بأرجاءها .. فلم يلمح أحـد ، ظل محـدقاً لـبرهة ، ظاناً أن طوايا الغرفة ستتمخض بأنثى خارجة من هنا أو هناك ، لكن أحداً لم يظهر ، فأغلق الباب مدهوشاً ثم إنصرف ! .

وما كاد الشيخ يخلى عتبة الباب ، وفيما كنت نائماً كالغارق فى قاع محيط ، إنفتح باب الشرفة أعلى الحشية التى أنام عليها بغتة ، وإذا بإثنين من ناس الواحة يطلون منها ويلكزوننى لأتيقظ ، نهرنى أحدهم زاعقاً " **هيا .. الجنازة قد سعت** " ، فجلست مكروباً أنقل عينى بينهما فى فزع ، بالكاد أستجمع شكليهما ، وما لبثت حتى جذبانى من ساعدىّ " **هيا ، دع العجب لآن أخر ، ليس لدينا وقت** " ، نزعانى من الشرفة إلى الخارج ، وفيما حطت قدمى إلى الأرض مشيت دون إرادة ، فإذا بى فى موكب جنازة مهيب ، ساعية فى طريقها إلى جبانة الواحة .

" **تُرى جنازة من هذه؟!** " ، مرقت عدة لحظات ، وأنا مغترق بين أكتاف تزاحمنى من جانب إلى جانب ، الكل يهمهم فى أسى .. ما بين تكبير وأسف وإصطفاق ، وعلى حين غرة تعاضدت الأيادى وراحت تتلاقفنى فى غشم من ساعد إلى ساعد .. حتى وجدت نفسى فى محض دقيقة مدفوعاً من مؤخرة الجنازة إلى صدارتها ، وما هى سوى هنيهة وكنت قبالة باب القبر مباشرة ، حينها ، وفيما تلفت خلفى أستطلع الأمر ، " **أين الميت ؟!** " .. تكاثف الرجال خلفى ، فزجوا بى إلى فغرة القبر ! ، وبرغم أنى غرست

قدميّ بالأرض أنافحهم .. ظلوا على ديدنهم ، حتى دفعنى أحدهم بقدمه أسفل جذعى ، فزلقت قدمى ، لأجد نفسى منكفئاً على وجهى داخل القبر أسف التراب .

رفعت رأسى ، ظلمة حالكة .. ليس إلا بقعة ضوء يرميها باب القبر أمامى ، فإرتكنت إلى ساعدى أزيل التراب المعتق الذى علق بوجهى ، وما لبثت حتى راحت قوالب الطوب ترتص لبنة لبنة ، ولم يمر الكثير من الوقت حين إنقطع أخر خيط نور يمر .. فغرقت فى قاع قاتم لا لون فيه سوى الأسود ، ظلام حقيقى ، وفيما رحت أتلفت حولى فى ذعر غابت الهمهمات .. وخبا الإصطفاق كأنما إنخسفا ، إبتقع الظلام حولى بأطياف بارقة ، شهب تمرق خلسة فيما يشبه دوائر وخطوط متقاطعة ، ثم تختفى ، آنها ضربنى سعار حاد فهرعت أبحث عن باب القبر ، فإذا بجميع الإتجاهات تختلط فلا تفضى إلى شيئ ، لعدة دقائق تناوح طرقى من جدار إلى جدار لكنه طرق مكتوم .. لا يصل لأحد ، بالكاد أسمعه .

بغتة ، وفيما تخدلت يداي وشعرت أنها النهاية ، فإرتكنت فى يأس إلى أقرب حائط أتطلع إلى التهويمات المحلقة فى الظلام بهدوء .. إذا بصوت يهس خلفى بصوت يوشك على الإختفاء " **يووووسف** " ، فإلتفت مذعوراً لأجد وجه مريم جاحظاً عند الزاوية بعيدة ، كانت ملفوفة بكفن موثق بالكامل إلا موضع وجهها ، وحولها جثامين أخرى مكفنة ، وفيما ساورنى أنه حلم ظهر صوتها مرة أخرى ناطقاً بهمس " **يوسف** " ، وما لبثت عينى أن تفر عن محجريها رعباً .. حتى وجدتها قائمة أمامى ، تنظرنى بعين بارقة ، ثم إنكفأت بجثمانها فوقى .. فقمت من نومى مفتزعاً .

تلفت حولى .. فإذا أنا منطرحاً بغرفتى ، وفيما كان الباب ينغلق آخذاً معه الشيخ ، الذى أتى يستطلع هذا الصوت الأنثوى النابض فى غرفتى ، كان الهمس لا يزال يتسربل إلى قاع رأسى ناعماً " **يوسف** .. **يوسف** " ، فإنتفضت فى فرق شديد أبحث عن مصدر الصوت .. فإذا أمامى صبيّة فاتنة فى مقتبل العمر جالسة عند حافة السرير ، فى البداية لم أعرفها .. حتى نطقت ملامحها وإستطعت تفسير إبتسامتها الخبيثة ، إعترتنى موجة جزع

حين أدركت أنها هى بعينها (باهيا) .. وقد إنحسرت عنها مخايل الشيب والسن المتأخر ، كاد قلبى أن يثب من حلقى وأنا ألمحها تقترب زاحفة بجذعها على الحشية ، هامسة " **الكنز .. إياك أن تنسى الكنز يا يوسف** " ، ثم شعرت بيدها تمر فوق شعرى كحيّة رخيّة ، فأخذتنى رجفة مباغتة ، حملقت بأجفان ناعسة ، فأدركت حينها أن ما رأيته لم يكن سوى رؤيا منامية مفعمة بخيالات حية ، وأن صوتها إنما خاتلنى فى لحظة إغفاء ، إلا أنى حين عرجت بعينى جهة الباب .. رأيتها عند عتبة الغرفة خارجة فى خطو ناعم لا يكاد يلامس الأرض ، كأنها تموج مع الهواء ، رمتنى بنظرة لعوب .. قبل أن تتغضن أساريرها وتحتفر بأخاديد باهيا التى أعرفها ، ثم إختفت ! .

إنتفضت جالساً ، مفيقاً من النوم ، لأكتشف أن ما سمعته ورأيته بدءاً من الصوت وحتى مشهدها وهى خارجة إنما كان كابوس بالكلية ، ففركت عينى ناثراً خيالها المزعج الذى علق بحدقتى ، ثم إلتفت جهة الباب إثر خشخشة خفيفة ناوشت إذنى ، فلمحت باهيا ونظرتها اللعوب فى مشهد مكرور ، لكنه واع هذه المرة ، خارجة من باب الغرفة ، من دون أن تفتحه ، قبل أن تعتصرها دفقة دخن فتبتلع جرمها الباهت ، فجحظت جهة الباب فى وهن وذبول ، وقد إختلطت فى رأسى إشارات الصحو والإغفاء .

.....

فى الصباح ، كان كل شيئ عادي ، لكنه لم يكن كذلك فى غرفة مريم ، كانت مغمورة بين الأثاث المتواضع فى شرود تام ، تحاصرها المنضدة الصغيرة وحصير السمار .. ودولاب مليئ بعرائس الخيش والقش ، حتى سريرها المصنوع من جريد النخل غائصة فيه ، كحبة رمل فى قاع وادٍ سحيق ، يكاد لا يُرى لها أثر بين حيطانه العالية ، فيما كانت هى صغيرة ، صغيرة جداً ، أو هكذا كان شعورها بذاتها هذه اللحظة ، كل شيء فى الكون له هوية دونها ، حتى شققة المرآة التى أخرجتها من نِطاقها ، لتبحث فيها عن مريم ، تأبى أن تقول " **ها هى مريم** " ، حتى رأتها ، لكنها لم تكن شبهها ، فيها شيئ منها ، بل هى بعينها بوجهها الذابل وبشرتها الممتقعة ، ظلت سارحة تُغضن

جفناً وتُرخى أخر ، تحدق فى حلقات جبهتها الغائصة ، متى ظهرت هذه الأخاديد ، تذكرت وقت أن كانت تتهلل الشقفة بنضارتها ونورها ، فأطرقت متحسرة ، وإذا بطيف يظهر فى خلفية المرآة على نفس صورتها ، كأنه توأمها ، وقت أن كانت تنعم بتاج مصفوف وطلة بهية ، تأملت مريم جدائل هذه الواقفة خلفها .. شعرها كليل سارح تداعبه أنامل رقيقة ، ثم إنتقلت بنظرة مهزومة إلى شعثها ووجهها الشاحب ، الذى إنزوت عنه مخايل جمالها القديم ، قبل أن تفجأ بتوأمها تربت علـى كتفها الأيسر هامسة " **أأحببتيه ؟!** " ، فإنتفضت مريم فى ذعر ، مستديرة للخلف ، لتجد أمامها نسخة منها ، تشبهها تماما ! ، فرمت المرآة مفتزعة .

حملقت مريم بعين إزداد ذبولها " **من أنتى ؟!** " ، لكنها لم تكد تتلقى رداً حتى تلاشت جدران الغرفة حولها .. لتجد نفسها مغترقة بين تباب المرعى وكثبانه الممتدة إلى شسع بعيد ، إقتربت توأمها " **أنا من طمستى أثرها ، وتحاولين عمداً أن تمحى ريحها ، أنا مريم .. مريم التى لم تعرفى غيرها ، ألا تتذكرينها ؟** " ، ثم أطرقت قائلة " **عشقتيه ؟** " ، فحجظت مريم مرتبكة .. وقد تجاوز السؤال صـدمة فزعها " **من هو ؟!** " ، فلوت شبيهتها رأسها فى إشارة مراوغة " **يالا لؤمك هذا ! .. تعرفين جيداً من أقصد ، ومن غيره يكون .. يوسف** " .

ألجمت الإجابـة لسان مريـم .. فلم تجـد ما تقوله ، فدارت توأمـها حولها " **كم أنتى جحـودة ، أبهذه السرعـة أرجأتى عليش إلى سلال الذاكرة المهملة ؟ ، ذيل الكلب .. يا له من نعت يثير الإشمئزاز ، أنسيتى ما كنتى ترددينه عنه دوماً ؟** " ، ثم تراجعت خطوة للخلف كأنها على مسرح للعرائس ، تستحضر روح شخصية لتتقمصها ، مستعيرة طريقة مريم حين كانت تحادث عليش " **أنت الوحيد الذى إستطعت أن تُخرجنى من حزنـى ، لم أضحك هكذا منذ أن ماتت أمـى** " ، فإلتفتت مريـم محتـدة " **ما هذا الهراء ؟ .. عمن تتحدثين أصلاً ! ، مثلى مثل ناس الواحة .. كان فقط يُضحكنى** " ، فدارت شبيهتها حولها فى لعبة غريبة وخطرة يمارسها شخصان على جسد واحد .. بمزيد من اللؤم والعبث والإغواء " **إذن عشقتى يوسف** " ، فرقأ الحديث فى حلق مريم متحرراً من كل أشكال

الرياء ، وقد أقحمت عنوة وسط معركة نفسية معروفة ، المعركة التى بات من الصعب أن نطلق عليها لعبة .
" وألا ترين أن من يحمل لأحد حباً طاهراً ينبغى أن يكون حريصاً على صالحه ؟ ، أم أنكى لا تخافين على يوسف ؟ ، أليس حبكما بطاهر ؟ .. عيناكى تقول شيئاً " ، فإبتعدت مريم ، وحدجتها بنظرة ملولة **" كفاكى سخفاً ، وماذا بيوسف حتى أخاف عليه ؟! "** ، فإقتربت شبيهتها قدر ما إبتعدت **" البئر ، لماذا تحجُبينَه عن البئر ؟ "** ، فنظرتها مريم مستنكرة **" أنا لم أحدثه بشيئ كهذا ! "** ، **" إذن لابد أن تحدثينه .. ألا ترين أنه من الواجب أن تعضديه ليستخرج الكنز ، هو لم يحلق من أخر الدنيا إلى هنا بالأساس إلا لأجله ، حين تساعدينه وقتها فقط يضطرم حبك فى قلبه ، فلا يرى غيرك "** ، فرمقتها مريم مدهوشة **" لكن فتح البئر يقتضى فك الرصد "** ، فقوست الأخرى حاجبيها **" ذاك أمر بديهى .. وإلا كيف سينال الكنز ؟! "** ، حينها هزت مريم رأسها كمن إستخلص مُبتغى اللعبة **" أه فهمت ، فلتُخمدى سُعارك أنت ، هو يحبنى دون شيئ .. سواء أنال الكنز أم لم ينله "** .
أطرقت الفتاة لبرهة ، ثم إقتربت حتى إلتصقت بمريم **" أنا لا أنكر أنه يحمل لكى جذوة شعور طيب بقلبه ، لكنه غير كافٍ ، إن عاد إلى بلده خالى الوفاض .. فلن تنالى من هذه الجذوة سوى سطرين يكتبهم عنكى فى مذكراته ، وسريعاً ما سيهم بإستبدالك بواحدة أخرى ، كفاكى وهما يا غبية ، لا يوجد اليوم من يرهن قلبه لأحد دون مصلحة مشتركة "** ، فدفعتها مريم فى صدرها **" إبتعدى ، كفاكى دنيناً فى أذنى ، لن أدفعه لفعل شيئ لا يريده .. حتى وإن كان الأمر مرهوناً بحبه لى "** ، فإبتسمت غريمتها ساخرة **" لا يريده ! ، الشيخ ياسين هو الذى لا يريد ، أما إن بحثتى فى قرارة نفسه ستجدين أنه ما جاء هنا إلا لأجل الكنز "** ، ثم دنت منها مرة أخرى **" هذا وقتكى يا حمارة ، إحفرى فى قلبه حباً لا ينمحى "** ، فدنت منها مريم فى تحدٍ وعناد **" لن أحدثه بشيئ وإن كرهنى ، كم أنتى خبيثة ! ، وهل سيتذكرنى أصلاً إن هو أخذ الكنز ورحل ؟! "** ، ثم أدارت ظهرها **" اغربى عن وجهى .. لم أعد أطق صوتك "** ، ودون جولات أخرى ، أو مزيد من أجواء هذه اللعبة الخطرة ، فوجئت مريم بيدٍ قاسية تهوى على كتفها

ضاغطـة " **سيفعلها** " ، فوثبت مفتزعة .
إستدارت مريم بحركة متوترة لتجد نفسها واقفة فى وسط غرفتها ، وأمامها باهيا ، زجتها العجوز فى صدرها بغيظ .. فسقطت " **بكى أو بدونك سيفعلها** " ، وإذا بعرائس الخيش والقش تقفز واحدة تلو الأخرى من دولاب مريم ، وتتحرك بإتجاهها بخطو عاجز حتى كونت جمهرة تدور حـولها ، مرددة بهمس هستيرى مختلـط " **سيفعلها ، سيفعلها .. سيفتح البئر** " ، فتقدمت باهيا بإتجاه مريم التى طوقتها حشود العرائس من كل ناحية ، تلك العرائس التى كانت مريم ، بقدر إئتناسها بها ، تخافها فى أوقات كثيرة حين تخايلها أجواء الواحة المرعبة ، إنكمشت تزج بعضها البعض حتى أزاحت للعجوز طريقاً كأنها ملكة تمر بموكبها وسط حاشية من الأقزام ، إقتربت باهيا من مريم المنطرحة على ظهرها بالكاد تُقيم جذعها " **سيفتح البئر ، ويفك الرصد .. ساعتها لن يكون الكنز لكى ولا له ، لن يكون لكما أثر على وجه الأرض** " .
رفعت باهيا يدها فإلتقطت عصاتها ، التى تحركت إليها من زاوية الغرفة ، ثم أماءت بها للعرائس المحتشدة فتآزفت حتى أحكمت الخناق حول مريم ، تاركةً مسافة صغيرة .. دارت خلالها باهيا ، قائلة " **تذكرى أنى جئتك إلى هنا ، إلى غرفتك ، لأمنحكى فرصة على طبق من ذهب ، لن تواتيكى مرة أخرى** " ، ثم أشارت إلى العرائس " **إنظرى إلى أحبتك أولاء جيداً ، قد تكون المرة الأخرة التى ترينهم فيها** " ، ثم رمتها برمقة مخيفة دفعتها على إثرها بعصاتها الغليظة فى بطنها " **حمقاء رزيحة ، اغربى عن وجهى** " ، فإنطرحت مريم وقد غلبتها إغماضة فزع ، لتفتح عينها بعد هنيهة صمت فلا تجد لباهيا أثر ، لا ترى سوى عرائسها وهى تتهاوى إلى الأرض دفعة واحدة ، فإنتفضت مريم واقفة ، وثبت فوق الدمى المنطرحة خارجة من الغرفة .

(١٣)

لم تحظ هذه الأيام بكثير من البوح بقدر ما حظيت بالكثير من الصمت والإرتياب ، حوصرنا ، أنا والشيخ ومريم بتخييلات وسراب قوضت قدرتنا على التفكير ، إلى أن إمتد الأمر تباعاً إلى ناس الواحة ، حتى بات الليل فى حد ذاته ، بما فيه من مقومات مرعبة ، مدعاة للهروب ، ومحفزاَ لغلق الأبواب والشرفات ، وعدم الظهور أمام الخيام والساحات ، غولاً يخشى الجميع مواجهته ، يقضون حوائجهم فى وضح النهار ، وما إن ترتفع الشمس أذوناً بالرحيل تنكفئ الواحة بقضها وقضيضها فى الدور والأكناف ، والغرف العميقة ، كعشائر النمل حين تهجع إلى جحورها مع أول خيط يتثاءب ، كان الجميع يشعر حين يُرخى الهدء جُنحه بهذه الأشباح التى تسعى متلصصة خلف الجدران ، وكأن الظلام يوقظها فتهيم ساعية إلى طرقات الواحة ودروبها .

بعد عدة أيام من التقلب فى الضلالات والرؤى الوهمية ، وقبل رواح الشمس بساعة زمن ، كنت والشيخ ياسين فوق سطح الدار نتسارا فى الغد المنتظر ، أو ربما كنا نترقب من هذه النقطة شيئاً يتخفى فى غور الجبل ، أو يزحف منها بإتجاه الواحة إستعداداً لجولات الليل ، لكن لا شيئ يظهر ولا شيئ يزحف ، هو فقط الخوف والملل ، فى مزيج لا يأتلف سوى هنا فى كاراكاو .. أرض الزمن الراكد ، الذى بات اليوم مسحوراً ، حدق الشيخ ياسين إلى مخلوق يخايله بالأسفل أمام الدار ، تشع فى عينه نظرة ترهٍ أعرفها ، لكنى لا أعرف إن كان يرى شيئاً حقاً .. أم أنها خيالات العمى ، بيد أن الأربعة نفر الواقفين بالأسفل يجزمون أنها رؤية حقيقية .
النصل اللامع فى يد أحدهم يُفسح طريقاً لوهم أخر ، خاصة حين ترى جبرين الدقاق جاثياً بين أيديهم ، مكموداً ، كشاة واهنة لا تملك فى أمرها حيلة ، رفع رأسه جهتنا وعلى وجهه مخايل إبتسامة غريبة ، ساخرة ، فهتف الشيخ ياسين مؤكداً أنه يراهم ، وها أنا ذا أراهم ، أربعة دزرائيلى ، ثلاثة منهم يقبضون على ذراع الرجل ، ورابعهم يجذ رأسه بلا رحمة ، لينفجروا ناظرين نحونا فى نوبة ضحك شامت ، فتتدحرج الرأس جهة ردهة الدار

ولازالت تلوح بإبتسامتها الساخرة ، وعين تحرك بؤبؤها نحونا ، تشخص بلحاظها كأنها تُراقبنا ، وما كادت نظرتها أن تحولت إلى رمقة ألم ، فجنّت حنجرة الرجل المفصومة بأهة غريبة ، أهة مجوفة منزوعة الحيل .. كأنها صفير فى أنبوب مفرغ ، مفتوح من طرف إلى طرف .

إنتفض الشيخ واقفاً ثم تحرك فى خطوات متوترة جهة الدرج ، يكشف طريقه جيداً ، فلحقت به مستغرباً هذا العمى النادر .. الذى يرسخ تارة وينحسر تارة ، وما هى سوى عدة قفزات محسوبة على درجات سلم الرمل حتى كان فى صحن الدار ، ثم فى الباحة الخارجية ، أمعن فى ذهول حيث كان الأربعة يناوشونه .. لا أثر لأحد ، ليس إلا ناس الواحة زمرات فى سرب طويل قادم من المرعى ، فارين بصغارهم وبعيرهم إلى الدور بسير دراك مكروب ، فقد هبطت الشمس خلف الجبل أذونا بأفولها المعتاد .

إنهار الشيخ إلى مصطبة الدار تيهاً وحرجاً ، تأبى مشاهد الأربعة المفعمة بالوهم والهلاوس ، ورأس جده التى تنظره مراراً عاتبة ، أن تنزاح عن عينيه ، إلا أنى إلى هذا الوقت لم أرى داعٍ لأداءه الزائد هذا وهو العارف بالأمر من بدايته إلى نهايته ، بدى لى إنهياره ، وتعبيراته المفرطة إنفعالاً فائضاً ، إلى حد أوهمنى أنه ما قصد إلا إخافتى ، لكنى لم أخف ، كنت فقط حائراً ، ظل يهزهز رأسه بإيماءات رفض مصطنعة ، تأبى إبتلاع ما حدث ، حتى طن فى أذنه صراخ قلقل جسده ، وأخرجه عن الدور الذى بدى أنه يتقمصه ، فوجئ بمريم خارجة من باب الدار ، كقطة مفزوعة ، وفى عينها رعب شديد ، سقطت أمامه تتره بهذه العجوز التى لا تنفك تُصرعها فى كل زاوية بالدار ، لم تكن مرتها الأولى التى تطرق آذاننا فيها بما تعانى ، لكن هذه المرة تختلف ، فما إن ضج صراخها حتى غلب ضجيجه وقع حوافر مدوى .. هوى فوق رؤسنا مجلجلاً من السماء إلى الأرض ، كأنها نقرات مرصافة عملاقة بحجم قطار ، طرقت الجبل من جميع جوانبه ، ثم إنتشرت إلى كافة أرجاء الواحة .. ناثرة الرعب والخوف عبر ضوضائها الإيقاعية .

برغم نفوسنا التى تمزعت فرقاً وهلعاً ، وأن الجميع يعرف أنها فرسة جبرين الدقاق .. لكن الفزع فى كل مرة كأنه المرة الأولى ، تلفت حولى مرتعداً وقد إستحالت الحيرة إلى ذعر ورعشة جمدتنى عدة مرات ، إسترعى إلتفاتى

الرعاة الهارعين بدوابهم وصغارهم عند تخوم الواحة ، تعرج السرب الطويل كأنه ثعبان داهمته عظاءة كبيرة فمزقته ، لم يكن هياجهم هو ذاته الذى يغمرهم حين يتلمسون إنقضاء النهار ، وتجاوزهم الساعة التى تستوجب الإنكفاء إلى الدور ، ثمة شيئ يلاحقهم ، وبرغم أن كنة هذا المخلوق باتت أيضاً مشاعاً لكن ذى عين .. لكن الخوف يكمن فى طريقة ظهوره ، ظل الطرق يعلو ويتكرر ، والرعاة يتلفتون خلفهم فلا يجدوا شيئاً ، وإذا بهم يفجأون بشيئ مهول يداهمهم من الأمام ، ظلمة ضبابية كالدخان مندفعة نحوهم على نحو كاسح ومفجع .. بالكاد تبينوا منها العربة ورقع السوط ، ومخلوق أسود فى الأعلى كأنه غول يفح بخراً رمادياً كألسنة اللهب ، الراصود ! ، إخترق السرب المتعرج من رأسه مثل ريح صرصر حتى ناهز أخره ، فتشرذم الركب إلى لُمم مبعثرة .. مثل عقد إنفرطت حباته ، فهبت الدواب فازعة حتى نفرت وتَشظت إلى جهات عدة ، ما عاد يُدرك لها أثر ، فيما هرع الرعاة واثبين فى تخبط وذعر ، تشتت نفوسهم ، ركضوا مكروبين يقفون تارة وينطرحون تارة ، وإذا بالأرض قبل أن تُفرقهم بدداً .. تضربها رجة عنيفة ، ثم مادت أسفل منهم بغتة كأنه خسف ، دارت بزاوية هائلة للأسفل فزلقوا .. ليجدوا أنفسهم ساقطين من جرف شاهق .

صراخ مرعب ، سرى لبرهة ثم جمده الفزع فى الحلوق ، إنسحق الرعاة إلى هوة مظلمة ، إنكبوا فوق بعضهم البعض ، بدى الإرتفاع من أسفل كأنه حفرة من حفر النار قبل أن يرى الساقطين الراصود فى الأعلى ، واقفاً بعربته عند الحافة ، ظل لبرهة ينظرهم بحقد وغير ، تلوح عليه إبتسامة ظفر مستفزة ، قبل أن ينفجر حلقه بضحكة هستيرية مخيفة ، إرتطمت موجاتها بحيطان الفراغ المظلم عدة مرات ثم إرتدت برجيع مخيف ، وإذا به يهتاج بغتة ، لافظاً نعرة مدوية ، ألهب على إثرها كفل الفرسة بالسوط ، فإرتفعت مقدمتها صارخة بصهيل مذعور ، رددته لمرة ، فهمزها .. فإنطلقت راحلة ، مخلفة ورائها فورة غبار كثيف .

وقف الرعاة فى قلب الهوة ، يتساند بعضهم إلى بعض ، بأجساد متهدلة ، أوهنها الفزع وضعضها السقوط ، تلفتوا حولهم فى شده .. فإذا هم واقفون

بأشهر بقعة بالواحة كأنه حلم ، أرض السامر بالقرب من البئر ، لا يدرون كيف آل بهم الحال إلى هنا ، الساحة مزدحمة كعادتها ، حدقوا بذهول فى الحشد المضطرب المركوم حولهم ، أهل الواحة ببهامهم وصغارهم ، كل فرد ينظر إلى جاره فى تندر وإستغراب ، هم ذاتهم من هاجمهم الراصود وسقطوا معهم داخل الهوة ، لا يزيد إلا القليل ، بدى من هيئاتهم المزرية ووجوههم الممتقعة التى هربت منها الدماء أنهم غارقين لآذانهم فى هم وفاجعة كبرى ، إجتاحتهم ثورة قلق غريبة فأخرجتهم عن طورهم ، يتناوحون ، ويتخبطون فى بعضهم البعض فى إصطراع عجيب ، الأمر الذى ظل مبهماً ، عصىّ على التفسير ، إلى أن هتف رجل فى زوجته " **لملمى الصغار وما خف من أغراضنا ، والبهائم .. إياك أنى تنسى البهائم** " ، فى حين هس رجل أخر إلى رفيقه " **حقا .. نار أكّالة ، تطوق الدور وتسعى داخلها فتتلقف البهائم والصغار ، الناس كلها رأت الكابوس ذاته** " .

الكل يصطفق فى هوس وجنون ، وكأن مشهدة الهوة والراصود قد ذابت فى صحون ذاكرتهم ، جميعهم يهسون برؤيا منامية واحدة قلقلتهم من دورهم إلى ساحة البئر ، نار عملاقة إجتاحت الواحة كسيل عرم فما تركت فيها داراً إلا وأتت عليها ، إنتشر الخبر بينهم كما ينتشر البق فى فراء الثعالب ، وكلما مر عليهم الوقت أصبحوا كعيدان تضطرب وتتكسر ، أو حجارة تتحطم رويداً إلى فتات منثور ، الكل خائف ، يتطير هلعاً من تحقق الرؤيا ، وإلا فما معنى أن تواتيهم جميعاً ، وفى آن واحد ، إن لم تكن علامة لكارثة ، وربما لعنة وشيكة الوقوع ، ويبدو أن هذه الليلة هى ليلة الواحة الأخيرة ، الواحة التى تتعفن رعباً منذ دهور مديدة دون أن يشعر بها أحد .

وبرغم أن قلة قليلة منهم يجزمون بأنها محض توهمات ، فإن الكثيرين أفاقوا من إرتعاشات الكابوس إلى الساحة يترقبون وقوع الفاجعة ، فى تراشق وتناحر وتناطح كالثيران .. حتى كلت أجسادهم وأكلها الوهن ، وقبل أن يلتقطوا أنفاسهم المهدرة .. إذا بنواح الجن يطن فى كل مكان ، فتصعدت أرواحهم تتلمس مهرباً ، هذا ما كان الناس يخشونه ! ، شق عليهم تكرار تجربة قديمة ما فتئوا يتحاكون بها ، فمنذ سنوات ، ربما طوتها الذاكرة ونثرها النسيان ، حين كان الرجال فيهم صغاراً ، طن هذا الصوت فى سماء

الواحة فأخذ فى طريقه الأجداد ، وأجداد الأجداد ، أزهق أرواح المعمرين منهم ، ونزع أجساد البقية عن قبورهم نزعاً ، فى طقس قاسٍ يتعاضد فيه أنسال الجن فيرمون بعزيفهم إلى الأثير ، نواح ونعيب وجؤار ، لزعزعة نفوس أهل الواحة ، إذ يأخذ هذا الإصطخاب عجائزهم وشيوخهم بالحمى والرمد واللطمة والوجع حتى يقضى عليهم ، ويُجمد نعيرهم الدواب فلا تتحرك ، وتفقد شهيتها حتى تموت ، ويُهلك الحرث ويمحو البركة من المال ، ويأتي على أصناف الصنائع كلها بما لا دواء له .

كان الأمر يأتى دوماً من باب الإنتقام ، إذ كان الدواهى من عجائز الواحة ، ممن ورثـوا علـوم الكهـانة والسحر ، ويعرفون أنماط القربان وضروبها مما يُقدم لكبار الجن ، ويحتفظون فى ثنايا متاعهم بكنوز الصحراء المكنونة مما يستحيل أن تجده سوى فى جعابهم من طرائق ووصفات علاجية .. لا يملون من إطلاق طلاسمهم وتحصيناتهم وتحاويطهم لمخاطبة السماء ، لحماية ذويهم من سحر الغرباء وغيلة الصحراء ، والأهم من سكان الجبل ، لكن الأمر لم يكن دوماً يؤتى ثماره كما يدبرون ، ففى هذه الليلة التى ظل طنينها أسير الذاكرة الجمعية للواحة ، تحتفظ بها وتتوارثها جيل بعد جيل ، أطلق العجائز طلاسم مختلطة ، ما بين جالبة للجن ومنفرة لها ، فأثارت عزيمتهم للإنتقام ، وكان ما كان .

برغم أن الواقعة أتت على غير عادة ، وأنه منذ عقود بطلت هذه الطقوس فما عاد للجن عزيف ، لم يسأل الناس عن شيئ ، ما إن سقط الطنين ، الذى إختصر كل شيئ ، فوق رؤوسهم حتى فزع الرجال إلى دار الشيخ ياسين ، جارين خلفهم ركب متآزف من النساء والولدان والبهائم ، دون أن يعرف الصغار كنة هذا الصوت الراعد ، ولم سيقوا مع البهائم كالبهائم إلى بيت الشيخ ، الكبار وحدهم يعرفون ، وما كادوا يقتربون من باحة الدار الخارجية حتى إنفجرت منها نار عظيمة ، فجت ألسنتها إلى قاع السماء كالأفاعى .. فتقهقر الناس منكبين فوق بعضهم ، يحملقون إلى هذا الأجيج فى شده وهو يزأر ويأكل بعضه بعضاً ، وإذا بالمخلوق الأسود خارجاً بعربته ، وفرستة الفازعة ، من لجج النار المضطرمة يجر خلفه عاصفة متوهجة بحجم خيمة كبيرة ، خاض بها كسيل حارق إلى دروب الواحة

حتى غاب ، لا يرون من أثره سوى مروج هائلة تفج من دار إلى دار .. حتى باتت كاركاو مثل أتون عظيم ، تنقذف منه الشظايا والحمم ، وكرات مشتعلة ضخمة .

سرت جلبة هائلة ، وعلى الصراخ والعويل إثر جموح النيران المرعب ، كانت هذه البقعة من الصحراء مثل ثغرة إنفتحت على الجحيم ، وما هى سوى برهات من الفزع حتى توهجت كوة بدار الشيخ ، إنبرى منها الراصود بعربته ، كشيطان ينفلت من عقال سعير كاسحة ، ضرب كفل فرسته بالسوط فعوت صارخة ، ثم رفعت مقدمتها مقتحمة الحشد المضطرب هلعاً .. تحاول حصاره والإلتفاف حوله ، فأفلت الناس هاربين من ألسنة اللهب الراقصة فى الهواء ، العالقة بغرة الفرسة وبأجزاء العربة ، وبهذا الناعر مثل ثور رشقوا مخرز فى ظهره ، تكدسوا إلى الجهة الأخرى يرقبون العربة التى توقفت بغتة إلى جوار البئر .

أرخى الراصود وثاق الفرسة إلى ظهرها ، ثم إنتصب مزهواً عند مقدمة العربة ، وفى يده السوط مطوياً ، تصفح أعين الجموع المذعورة بنظرة حاقدة ، لا يملك غيرها ، ثم إنفرج ثغره عن إبتسامة ساخرة ، والناس حياله يندسون فى حنايا بعضهم ، يتخفون عنه ، ظل صراخهم يتناوح ما بين علوٍ وهبوط .. حتى ظهر الشيخ ياسين ، وأنا ومريم فى إثره يُقلبنا إنزعاج شديد ، هتف " **صرعتمونا بعويلكم .. ماذا دهاكم يا نسل الخبل والجنون ؟ ، لمَ جمعكم هذا ؟! "** ، ففج فيه رجل " **أعميت عيناك يا شيخ ؟! ، ألا ترى الطامة التى هوت فوق رؤوسنا ؟! "** ، فند الشيخ إبتسامة باهتة " **حقاً ، عمِيت يا ربيب البهائم ، أى طامة هذه حرَّقكم الله بناره ! ، هذه محض هلاوس "** ، فإستدار الرجل إلى بيت الشيخ " **ألا ترى ما حاق ...** " ، فرقأ الحديث فى حلقه فجأة حين رأى الواحة كما هى ، لم تتضرر ، شده مصعوقاً وهو يتصفح الدور داراً داراً " **ما هذا ؟! "** ، حينها كان نواح الجن قد غشيه خمود مباغت ، عرج الناس بأعينهم ذاهلين ، يتلفتون فى جحوظ جهة الواحة تارة ، وجهة البئر التى خلت ساحتها تارة أخرى ، فدفع الشيخ مريم أمامه بحركة متوترة " **هيا .. هؤلاء قوم ضربهم الجنون "** ، فتبِعتهم شارداً ، أستقرؤ وجوه الناس فى شك وريبة ! .

ظلوا يتلاقفون نظرات عجب وإستغراب ، ثم إنكفأ كل فرد إلى أهله يطمئن على إمرأته وصغاره ، برغم الحيرة ، كادت الدهشة أن تتطير بعقولهم قبل أن يعرجوا إلى بهائمهم فيجدونها جميعاً مطروحة بالأرض ، ميتة ! ، فضربتهم الصدمة بدوار جمدهم ، وما لبثوا حتى أخذتهم فورة فإهتاجوا مائجين فى كرة مؤلمة ، وبينما كان إصطراخهم قد ناهز باحة القصر بقمة كاراكاو .. إذا بغرابيب سود تندلح بغتة إلى رؤوسهم من أعلى فتُصيبها ، تنقرها وتتنازعها فيما بينها مثل الذباب حين يتداعى إلى العفن ، فتشتتوا عن بعضهم ، لكن رجفة جماعية ضربتهم حين طن نواح الجن تارة أخرى .. كأنه رعيد البعث ! ، تبعتها رجة عنيفة هزت أرجاء الجبل نافضاً من قاعه صرخات مختلطة غلبها الفزع ، حينها ، وعلى نحو مثير للإنقباض ، عصفت الريح بضراوة آخذة معها الخيام وأعراش الدور من القحف والجريد إلى جهة الواحة الأخرى ، إلتمعت السماء عدة مرات ، كأنها كانت فى إنتظار إشارة ، ليفجأ المذعورين بين لطمات الريح وشهقات الفزع .. ببرق راعد يمزق أديمها بخيط باهر متعرج ، تبعته خيوط أخرى برعدات متتالية ، وسلسلة صواعق مدوية ، كلما تفجرت رسمت صوراً لأشباح ماردة من السماء إلى الأرض .. كأن أحدهم قد أزال لتوه غطاء الجحيم . كل هذا فى أقل من ربع الساعة .

فيما صار دوى الرعد يصم الأذان .. تفجر السحاب عن مطر غزير ، إنهمر بدفقات كالثجيج لم ترها هذه الأرض ، بل الصحراء كلها ، من قبل ، وربما قبل أن ينزرع الناس فيها بالأساس ، وابل غمر الواحة برائحة رطبة ثقيلة ، ليظهر الراصود من الظلام الصاخب فى نسخ شبحية كثيرة ، تظهر وتختفى كأنها إنعكاسات فى مرايا متقابلة ، تجوب الساحة بعربات وأفراس متماثلة ، خاضت بين الناس تقصدهم وترعد فيهم بهزيم وأصوات مضغمة مخيفة ، فجمح الرجال كالمسحورين ، متشرذمين عن ذويهم ، إلى مناكب الواحة وغيران الصحراء المظلمة ، والغربان فى أعقابهم ، فيما لاذ الضعفاء المنسيين من النساء والعجائز والصغار بدار الشيخ ياسين وصحن المسجد ، وما هى سوى ساعة زمن من الكر والفر .. حتى لحق بهم الرجال مُنهكين حين

إكتشفوا إختفاءهم .

ربما لو أدرك المتناحرين بصحن المسجد أن الشبح الأسود ، الذين بالكاد فروا منه ، واقفاً فوق السطح كمارد عملاق ، يطوق القبة بين قدميه كأنه سيبول ، لفزعوا قبل أن ينهار السقف بقبته فوق رؤسهم ، أمعن الراصود إلى السماء لبرهة .. ثم تنقل ببصره إلى الواحة ثم الجبل ، ثم هبط إليهم يرقبهم من كوات القبة ، كأن هسيس الكبار ورمقات الصغار الغير مدركة تروق له وتطربه ، كان الرجال المنصتين إلى الصخب المفجع بالخارج مغترقين فى سحب من التخبط والإضطراب والفزع ، والنساء لا تكل عن طرق صدورهن بأيادٍ مرتجفة مترقبة ، وشهقات فزع من آن لأخر ، لازال نواح الجن يقرع الجبل متردداً من مكان إلى أخر ، يخلق طنينه الضاج مع دفات المطر ورعيد السماء ، وولولة العجائز بالداخل ، مهرجاناً قوطياً للرعب والهلع .. مستوحاً من القرون الوسطى .

كنت أرقب المشهد مُلجماً ، فيما الشيخ وبجانبه مريم وسط الناس يصد سؤالاً ليتلقى أخر ، وإذا بعجوز معمرة يغشاها إستياء شديد تقترب صائحة فى وجهه " **ظللت تردد على أسماعنا ، لا تخافوا .. لا تخافوا ، وها نحن مأسورين كالفئران ، ليت أجدادنا ما راحوا آخذين معهم كنوزهم وطرائقهم التى إدخروها لمثل هذه الظروف** " ، فأشاح الشيخ بوجهه عنها " **التحاويط ، لا تنزعوا التحاويط ، ومن معه سلخة ذهب أو فضة فليرمها بالخارج** " ، فإحتد رجل " **ما كان ينقصنا سوى هذا** " ، فحدجه رجل أخر ساخراً " **وماذا نسوى بالذهب أساساً يا عديم الفهم ؟! ، ما الفارق الأن بينه وبين قضيض الجبل ! ** " ، ثم توجه إلى زوجته " **إخلعى الحلق والخلخال هذان يا إمرأة** " ، فخلعتهم على مضض ، ثم إلتقطت خاتماً من إصبع إبنتها وأعطتهم له ممتعضة ، فألقاهم من شرفة المسجد ، فلحق بهما النساء والرجال ، جمعوا ما فى حوذتهم من حلى وغيره ، فتخلصوا منه ، فرجع الرجل الذى إنصاع لكلمة الشيخ " **وماذا بعد ؟** " ، فقال " **لا تخافوا ، ليس كل ما ترونه سوى هلاوس وخيالات ، ليس بحوذته أن يفعل أكثر من هذا** " ، فإقترب الرجل الذى إحتد " **من هذا الذى لا يستطيع أن يفعل**

أكثر من هذا ؟! " ، فتوجه الشيخ جهة الشرفة ناظراً نحو البئر **" أبا الحديد .. حارس البئر "** ، فشده الناس يكررون العبارة فى صوت واحد من لسان إلى لسان **" أبا الحديد ! "** .

برغم أن الخوف درجات وله عمق وغور ، وأنه من الصعب عند حد معين من التمزق رعباً أن يستطيع الفرد زعزعة نملة ، ولكن حين يُعرف سبب الخوف ذاته قد يتجدد من أول نقطة ، لم يكن أهل الواحة يعلمون أن هذا الغول الذى إحتجزهم هو الراصود ، أبا الحديد .. حارس البئر ، وبرغم أسئلتهم التى تنهمر بلا إنقطاع .. لم يفهموا شيئاً ، سوى أن ثمة جن واعر يترصدهم ، لم يكن يُدرك فجاعة الأمر على حقيقته سواى والشيخ ياسين ومريم ، وبرغم أنه من المفترض ، بعدما أفشى الشيخ السر ، أن ترسخ نفوسهم وتقر للحقيقة شيئاً ما .. كان الأمر داعياً لرهبتهم أكثر من أى وقت أخر ، ومن أى شيئ باشروه فى هذه الليلة الموحشة ، إنزوى الناس بصغارهم وعجائزهم إلى ركن بعيد بالمسجد ، يُقلبهم الخوف والإرتعاب ذاته الذى أتقلب فيه ، وإن كانت الأسباب مختلفة .

كنت أتطلع إليهم حائراً ، كيف عاش هؤلاء الناس على أرض يطوقها الجن ويحرسها مسخ متشيطن .. وهم فى غفلة من كل هذا ؟ ! ، وفى اللحظة التى لمحت الإرتياع يموج فى أعينهم ، يكاد يصرخ من فرط الهلع ، كانوا يتطلعون إلى شرفة المسجد برمقات غريبة ، وإذا بى حين عرجت بعينى جهة الشرفة أرى شيئاً مريباً ، رجلاً يُشبهنى تماماً واقفاً بالخارج ، يحدق بى مثلما أحدق به ، بل كانوا رجال ونساء كثر ، لكل فرد بالواحة شبيه له ينظره من الجانب الأخر ، بما فيهم الشيخ ومريم ، وإسترعى إلتفاتى آنئذٍ الأردية التى كانوا يلبسونها ، أسمال عربية ربما تعود للعصر الفاطمى أو العباسى ، وبرمقة بسيطة يمكنك أن تعرف هذا الشارع الطويل الواقفين فيه ، شارع المعز ! ، عدت إلى قرينى الذى ينظرنى بإمعان ، أخذتنى خلجاته المُلفتة ، بدى فى لمحة هازئة كأنه يهز رأسه فى تشفى آسفاً على ما آلت إليه أحوالى ، ولكن كيف لم ألحظ أنه الوحيد دون غيره الذى يتدثر بأرديته مثلى تماماً ، قميص وبنطال ، وكأنى أنظر فى صفحة مرآة .

آنذاك كان الشيخ ياسين قد إلتفت بغتة إلى شرفة أخرى حين نبا إلى أذنه صوت غريب ، ناطقاً برطانة أجنبية " **Yes .. Yassin , Shekh Yassin** " ، ليلمح أحد اليهود الأربعة يرميه بنظرات خبيثة ، ثم إنضم إليه الثلاثه الأخرون ، طفقوا يتناجون بهمس خفيض تفوح منه رائحة المكيدة ، ويتلاقفون أوراق وسكين ، ما إن إنتبوا إلى إلتفات الشيخ نحوهم حتى إنصرفوا سريعاً بخطوات دائبة ، ليظهروا من الشرفة التالية أثناء حركتهم ، ثم تواروا خلف الجدار ، مُفسحين المجال لهذا الواقف خلفهم .. ممتطياً صهوة فرسة سوداء ، ومتدثراً برداء عربى قديم ، تصفح وجوه أهل الواحة الممتقعة بإبتسامته الوقحة ، فتجمع السابلة حوله ، وما لبث يُطلق قهقهاتة السخيفة حتى إنفجر الناس خلفه بضحكات منكورة ، ترددت بصوت له صدى ورجيع ، أثارت فزع أهل الواحة .. فإهتاجوا بهسيس وهمهمة مرتعبة ، ملتصقين بزاوية المسجد ، وإذا به يطرق كفل الفرسة ضاغطاً مهمازه فى جنبها ، فمجت صهيل حاد دائرة حول نفسها ، ثم إندفعت راكضة إلى عمق الشارع حتى إختفت فى زحام المشهد المشحون بالسائرين فى رواح وغدو هنا وهناك .

حينها إقترب الشيخ ، هامساً فى أذنى " **الأن فقط أستطيع أن أؤكد لك أن ما كنت تتوجس به هو عين الحقيقة ، أنت الغريب المنتظر** " ، فإلتفت إليه ، بالكاد أغالب إبتسامة سخرية " **وما الجديد ؟! ، ذاك عرفته منذ زمن ، السؤال الأهم .. لماذا أنا ، خصيصاً ، الغريب المنتظر ؟!** " ، فأطرق الشيخ قبل أن ينزع الفتيل عن أخر أسراره المتفجرة " **لأن جبرين الدقاق من دمك وأنت من دمه** " ، فانبعج صدغى إستنكاراً " **لا أفهم ، ما معنى أن جبرين من دمى وأنا من دمه ؟! ، وما علاقة هذا بكونى أنا المنتظر ؟** " ، فتنهد الشيخ بعد إطراقة أخرى " **سأشرح لك ، حتى ينفك الرصد وينعتق الراصود .. لابد من التضحية ببشرىّ من دم جبرين ، ذاك الذى عُقد الرصد منذ البداية بدمه ، وبما أنك أنت الغريب الذى أثار الراصود من محبسه ، وجرت على شرفه كل هذه الأحداث فأنت المقصود ، أنت المعنىّ من آل جبرين بفك الرصد** " ، فرميته بنظرة تره لا تخلو من محاولة إستقراء ما

يقصد " **آل جبرين ! ، هل تعنى أن جبرين مثلاً .. ربما يكون جدى ؟! ، ما هذا الهراء ؟!** " ، " **بل هو جدك بالفعل** " ألقاها كحجر فى وجهى ، فشردت للحظات " **جدى !! ، ألم تحدثنى بأنه** ... " ، غشيتنى الصدمة فتصلب لسانى ، كدت أصدق أن الرجل ربما ضربه خبل محقق .. لولا أن رسوخه ونظراته الثاقبة إختصرا كل شيئ ، دفعا برأسى للوراء سنوات طويلة فإشتعلت ذاكرتى بغتة بحكاية قديمة .. أرهقنى أبى بها مراراً وتكراراً ..

(مقام سيدى غازى) ، الضريح العتيق الذى إنتصب على رأس الحىّ الذى أمضيت ثمرة عمرى فيه ، حاملاً لقب عائلة أبى ، كان أهل الطرق الصوفية فى مطلع الشتاء من كل عام يقيمون له طقوساً إحتفالية ، وما أكثر هذه المرات التى عاينت فيها الناس يرتادونه ضريحه متضرعين ومُتمسحين بجدرانه ، أتذكر حين سألت أبى لأول مرة عن كنة هذا المقبور فيه .. فأجاب بأنه جدنا الأكبر ، وظل يردد عنه مرويات خرافية ، وحكايا تُمجد إعجازاته والكرامات التى كانت تحل على يده ، بل وإعتاد أبى أن يصطحبنى معه فى كل مرة يلوذ فيها بزاويته المبروكة ، وما من مرة صلينا فيها بالمسجد الكبير إلا ولنا زيارة لمقام (حضرة سيدى غازى) ، إلى أن حل هذا النهار العاصف الذى نشب فيه شجار حاد بينه وبين أمى بسبب هذه الزيارات ، لم يرق لها يوماً أن يصبح وحيدها فى المستقبل صوفياً مخرفاً ، أو على حد قولها (درويشاً) ، أذكر أنها سخمت أبى العنيد بعبارة لن أنساها ما حييت ، هوت على رأسه كالطامة " **لا تُلصق ولدى بهراءات أبيك المجنون** " .

كان من الممكن أن أتلقى هذه السُبة من باب التلميح لترهات الصوفية وأباطيلهم .. لولا أنها فى ساعة سِرار باحت لى بسرٍ خطير ، حكاية قديمة ، لم آخذها فى البداية على محمل الجد ، وكان نزاعهما المستمر سبباً وجيهاً لإعتبار روايتها محض قصة وهمية إبتكرتها من أولها إلى أخرها ، فقط عنتاً بأبى ، ولتجعلنى أعزف عن هذه الزيارات التى بدت بالنسبة لها زيارات منكورة ، محض شعوذة وخرف ! ، ولكن حين تكرر الإتهام على لسان

جدتى ، وعلى مسمع من أبى ، كان من الصعب تجاوز الأمر ، أذكر أنها دعته صراحة أن يكف عن الإعتقاد بأن المقام لجده الأكبر ، لذا كان لابد أن أسأل .. وكانت الإجابة الصادمة عند أمى .

قالت لى أن جدى لأبى كان قد تعرض لأزمة نفسية حادة فى بداية زواجه .. واجه على إثرها الكثير من المضايقات ، خاصة بعد أن أنجب إبنه الأول ، تقصد أبى ، إذ ضربت رأسه لوثة جعلته يعتقد ، بل ويردد على أسماعهم الكثيرين ، بأن هذا الإبن الذى ولدته زوجته إنما هو من جنىّ كان يُضاجعها ، ووصل به الأمر أن عزم نيته على التخلص منه ، وحين تفاقم الأمر ، وبدأ الأهل بالتدخل عبر عدة زيارات للمصحات النفسية ، هجر الرجل بيته وأقام بغرفة رثة بجوار مقمة الحىّ ، عاش فيها كمجذوب منكور الحال ، يردد على أسماع الناس أحاديث غريبة ، ونبوءات أغرب ! ، كان من هولها أن صدقها كثيرين .. خاصة وأن أكثرها قد وقع ، حتى أفاق الأهالى ، الذين ألفوه وإعتادوا رؤيته والإحسان إليه كل صباح ، على إختفاءه ، وكأن الأرض قد إنشقت وإبتلعته ، مر يوم وأخر إلى أن تجاسر أحد مريديه وأفرج باب الغرفة .. ليجد أمامه قبر مغلق على صاحبه ! .

ودون حتى أن يفكر أحدهم فى تفقد القبر الموصد بمحض قوالب مرصوصة ، دون لطعة كلس أو آجر لاصق ، حلقت الإشاعات على ألسنتهم كالبرق الخاطف ، وماجت الأراجيف من حىّ إلى أخر عن صاحب الكرامات الذى مات ودفنته الملائكة ، ناسين تماماً أنه إتُهم بنبش أكثر من قبر ، وأن بعض الأكفان وجدوها على جسده ، فضلاً عن شظفة من صدغ جمجمة بشرية وجدوها معلقة كتميمة على صدره ، وسريعاً ما نظفوا القبر ودثروه ببردة خضراء مزخرفة ، ونضدوا الغرفة وأرخوا عليها قبة مقعية تليق برحاب (سيدى غازى) ، وما كان الأمر يحتاج سوى كلمة فى حقه من غريب .. حتى يُضاف إليها من أهل الجوار مئات الكذبات والكذبات ، على ديدن أكثر الأضرحة والمقامات ، وتعاقبت الأحوال وركضت السنوات ، وباتت النذور تتناثر كفيض المطر فى الساحة التى كانت يوماً ما محض مودع قمامة ، وإنتشر حوله الدجاجلة والشحاذين ، وأصحاب المصالح .. حتى تاهت الحقيقة فى غياهب الوهم والخرافة ،

وأصبح آله أكثر من يُروج لشائعة جدهم الولىّ صاحب الكرامة والمعجزات ! ، غير آبهين بهذه العجوز الهرمة ، الممسوخة ! ، التى كانت تدور حول الضريح ، بعصاتها وخلخاليها الذين لا يملان عن القعقعة ، فى ليالى الشتاء حين ينفض من حوله الناس .

أما ما بقى من حكاية جدى ، الذى إختفى فى صبيحة يوم أحلك ، فقد إتسق وحده ، لابد وأنه هجر الحىّ كما هجر بيته ، إرتحل كمجذوب طوحته خيالات الجنون .. فعلق بين فراغات غير ذات معنى ، جاب البلاد حتى ناهز أخرها ، وهى غاية كل مختل ضاق بضجيج الشوارع وإصطخاب السيارات ، إنتزعته الصحراء حيث لم يجد لشسعها حداً ، حتى برزت أمامه الواحة كجنة هادئة بعد تيه طويل ، فسقط إليها وعمل مكارياً ، وإتخذ لنفسه إسم (جبرين الدقاق) ، أو ربما أهل الواحة هم من أطلقوا عليه هذا الإسم .. حين وجدوه صموتاً لا يعرف عن نفسه شيئاً ، بدى الأمر وكأنه يميل إلى منطقية مقبولة .. قبل أن يُتم الشيخ ياسين روايته عن هذا الرجل الذى وفد إلى واحتهم فى حال يُرثى لها ، وقد لوحته الشمس وخدده الجدب ، والمسير عبر الطريق المقفرة ، فإستقبله الشيخ فى داره الضيقة وقت أن كان شاباً فى ريعان عمره ، حتى أصبح للرجل بيتاً وصنعة ، قبل أن يُفجعه هذا الصباح الذى عُثر فيه على فرسته غائصة بقاع البئر ، والذى كان إلى هذا الحين مفرجاً ، وينتج ماءاً صالحاً برغم أجوجته ، قبل أن تصحوا الواحة على حجر عتىّ يوصده ، ليكتشف العربان بالصدفة البحتة جثة جبرين منحورة الرأس ببهو القصر .

ربما تكون كل هذه الهراءات محض إفتراضات واهية ، توهمات لا تقـوم على أساس ! .. فقط محاولات مدفوعة برغبة لحوحة للمعرفة ، وسبيل لإستقراء الحقيقة التى دفنتها السنون ومحت أثارها الخرافة ، ولكن حين أتأمل هذه الظروف الغريبة التى زجت بى من موناكو إلى كراكاو .. قد لا أندهش كثيراً حين أراها تنزع مجذوب بلا عقل من أحد أحياء القاهرة العامرة إلى بقعة مجهولة بأقاصى الصحراء ، ماذا لو كانت الظروف قد تعاضدت لأجل الوصول .. فى تتمة هذه الرحلة المجنونة ؟! ، إلا أنى حين

أتذكر وجه الصغير الذى نزع الخاتم من إصبع جبرين الدقاق ، حال موته ، تنداح إلى رأسى هذه الصور ، التى لم تكل أمى عن إبرازها لى من صندوقها القديم ، لصغير كان ينمو بين والديه كزهرة يزداد ينوعها بمرور الوقت إسمه (يوسف غازى) ! .

(١٤)

تجبست قدمىّ فجأة ، فى منتصف الطريق الغاص بالسيارات المارقة ، حين كانت غادة لا تزال واقفة على الرصيف ، مترددة ، تقدم قدماً وتؤخر أخرى ، كنت أعرف رهابها القديم من عبور الطريق أثناء إزدحامه ، إنتظرت حتى لمحت عربة ليموزين قادمة بسرعة جنونية ، ثم هتفت " **أسرعى ياغادة ، السيارات ستدهسنى** " ، لكنها كلما تقدمت خطوة فوجئت بسيارة قادمة فتتراجع فى ذعر ، مرقت العربة إلى جوارى كبرق خاطف ، فضحكت ناظراً إليها بسخرية فجة " **ما أجبنك ! ** " ، ثم خليت سبيلها عابراً إلى الرصيف المقابل عبوراً سلساً .

.....

" **نعم أعرفها ، قدمت إلى الواحة وعلى متنها أخر بعثة وفدت لتتحرى عن البرية التى إختفى فيها يهود عائلة دزرائيلى ، هؤلاء الأربعة الذين ذبحوا جبرين الدقاق ، وقتها لم يكن بحوذتهم عن الواقعة سوى نتف معلومات ، وبعض الرسائل أتتهم عبر البريد السرى وجهات إستخباراتية خاصة ، لكن المروحية كما ترى .. سقطت قبل الهبوط بلحظات ، ثم إختفت** " فنظرتها مرتاباً ، ما جدوى تكرار هذه الأنباء على مسمعى وقد أخبرتهما بدقائقها من قبل ، تُسهب بثقة عن الرحلة ، التى قدِمت أنا فيها ، كأن شخصاً أخر غيرها يحدثنى ، لكنها دحرت ريبتى برسوخها ومكون نظراتها " **ماذا دهاك ؟! ، لم تأكلنى بعينك هكذا ؟** " ، فلم أجد ما أقوله سوى " **لا شيئ** " ، لم أستغرب حديثها ، فما عاد يُشدهنى شيئاً حتى تسترعى غرابتها إلتفاتى ، فمريم جزء من هذه الأرض ، نبتة من منابتها الآبدة .

تلفت حولى فى خوف ، لا أعرف ما الذى ساقنى إلى المرعى تارة أخرى ، لولا إلحاحها ما فكرت للحظة أن أبحث عن الطائرة بعد ما حدث أخر مرة ، حين خايلتنى باهيا بصراخ مريم قادما من الغور ، لايزال رخامة صوتها الواهن يطن فى رأسى ، لكن هاجساً أخر يدفعنى للبحث ، للركض ، ربما خلف أمل أوقن أنه ليس إلا سراب ، تصفحت هذه الكثبان التى عجزت الرياح عن ترويضها ، ثم إستدرت إلى مريم إثر إنقباض غمرنى .. فإذا بى

أمام الراصود ، فإنتفضت جزعاً قبل أن أنظره ضائقا ، كرهت نمطيته وظهوره المكرور ، دنا منى مُنسلخاً عن جسدها .. لتتحول مريم إلى تمثال من الخشب مثل شجرة يابسة ، سريعاً ما تصدعت ثم سقطت مُتفتتة ، كأنها والتراب شيئاً واحداً ، مال برأسه ثم نظرنى فى عجب " **ألف مرة سألت نفسى .. ما الذى يحدوه ليُصغى لعجوز مخرف ؟! ، ما الذى يجعله يسير خلفه قدم بقدم ؟ ، ألم تأت لواحتنا لأجل دفينة البئر ؟ ، وأنا حارسها ، وها أنا أعدك بأنها لن تكون إلا لك ، دون فرهدة أو مراوغة لا طائل منها** " ، ثم إبتعد وإستدار بجسده ناظراً جهة الواحة .. ليعود متقلصاً فى صورة الشيخ ياسين ، خلع الخاتم من إصبعه وألقاه إلى الأرض " **أهٍ لو تدرى ماذا يكلفنى خلع هذه الخردلة ! ، خذه وافتح البئر ، الكنز لك مقابل أن تُحرر أصفادى** " .

لا أخفيكم سراً .. زاغ الخاتم آنها فى عينى ، كدت أقترب وأميل فألتقطه .. لولا أنى أحجمت فى اللحظة الأخيرة ، خيفة أن أقع فى حبائل هذا المخلوق الذى لا يجيد شيئاً سوى الكيد والمراوغة ، فإذا به يشعر بما يجول فى نفسى .. فتقهقر خطوة ليُفسح لى مجالاً أطمئن له ، خاتلنى الأمر مرة أخرى لكنى أيضاً تراجعت ، ولا أدى من أين أتت لى الجسارة لأدير له ظهرى مترجلاً بضع خطوات للأمام ، برغم ما كانت تهس به نفسى وقتئذٍ بأن أعرج إليه بين لحظة وأخرى .. خيفة أن يُصرعنى غيلة فى نوبة غفلة " **دون رغبة هذا العجوز الذى تنعته بالخرف لن يحدث شيئ من هذا ، هو أدرى بأرضه وناسها .. وكذا مسوخها** " ، وقبل أن أتم حديثى إصطدمت براضى بغتة واقفاً أمامى ، لا أدرى من أين ظهر ، فنكصت فزعاً أتلفت خلفى حيث كان الشيخ واقفاً ، ثم إختفى !.

مال الصغير بجزعه المتقزم إلى الخاتم ، المدسوس فى الرمل بيننا ، ثم إلتقطه بين إصبعيه ورفعه ، ناظراً نحوى " **خذه .. ماذا ستخسر ؟! ، كل ما فى الأمر أنك ستخط هذا الطلسم على حجر البئر ، ثم تقرأ عزيمة الرصد ، وسينتهى الأمر** " ، آنها ضقت ذرعاً فإبتعدت فى ضجر " **دعك منى ، أنا لم آتى إلى هنا برغبتى ، لا لأجل الكنز ولا غيره كما تدعى** " ، فإذا بهذا القزم يميل برأسه ثم يرفعها .. مُبرزاً سوطاً أسوداً من جانبه الأيمن ، رفعه مثل

أفعى عظيمة ثم رقع به الأرض ، فأحدث فحيحاً ثم فرقعة مدوية أرعبتنى ، فأخذتنى رجفة مباغتة ، لينتهبنى صوت باهيا من الخلف يلفح ظهرى بنبرة وعيد ، فإستدرت مرتعداً " **ليكن بعلمك ، روحك وروح صاحبك ، وحبيبة القلب تلك ، بيدى ، وبيدى هذه سأخلع قلوبكم عن محطها إن أنت مكثت على عنادك هذا ، يا حبة قلبى .. لن يفك الرصد سواك ، فلتدرك هذا جيداً** " ، فنظرتها مرتبكاً ، أموج بين خوف راسخ ومجالدة واهية ، تكاد الأحرف أن تسقط عن لسانى كسيل اللعاب " **أنتى .. ، أنت مخدوع ، الحقيقة أنك أنت الذى بأيدينا ولسنا نحن ، ولا دليلاً دامغاً أكبر من تلونك هذا كالحرباء حين تشعر بهسيس الخطر** " ، وإذا بـ (هارولد دزرائيلى) يزيح باهيا عن جسده ، كما يُخلع الدثار ، فسقطت خلفه مثل عباءة مرمية ، برز كمارد يشب من قمقم .. ثم تقدم خطوة ، نكصتها أنا منتفضاً ، راطناً بعبرية واضحة " **حمار** " ، فنظرت إلى باهيا التى رمدت كخرقة بالية إحترقت ثم إختفت ، ثم عرجت إليه غير مستوعب " **ماذا ؟!** " ، فأجاب بعربية مُتعتعة " **لا يهم** " ، ثم إنصرف غير آبهٍ بحركة دائبة ، يهس لنفسه برطانات مختلطة كالمجنون .

وفيما كنت أباشر شبح هارولد وهو يبتعد إذا بى أفجأ بالسمادونى إلى جوارى ، ممسكاً بساعدى " **لم أحسبك غبياً إلى هذا الحد ، أتدرى قيمة هذه الدفينة التى يحرسها جبرين ! ، إن هى خرجت إلى النور فستصبح فى عداد الملوك ، لن تتعوز لمخلوق .. لا أنت ولا أحفاد أحفادك** " ، ليظهر ذيل الكلب ملتقطاً ساعدى الأخر " **دعك من هذا كله ، ألا ترى أن جبرين الدقاق ضحية ، قتلوه غدراً** " ، فجذب السمادونى ذراعى محتداً ، موجهاً حديثه إلى ذيل الكلب " **ماذا تقول يا سقط الخلق ، الكنز أهم بكثير من فك رصد جبرين هذا** " ، فأزاحنى ذيل الكلب بغلاظة جانباً ، ثم لكز السمادونى بمِخْرزه فى ذراعه ، فتأوه " **ما هذا الخرف ، لا أولى بدم جبرين سوى آله ، لن يُعوض أحفاده مال ولا شرف .. ودم جدهم لازال مسفوحاً يطلب الثأر** " ، فدفعه السمادونى فى صدره " **تتصنع الفصاحة ولو بحثنا وراءك لوجدنا لحمارتك عقل أكثر منك** " ، فأشاح له ذيل الكلب بيده متهكماً " **زلاقة لسانك هذه أوردتك المهالك** " ، فأمسك السمادونى بمخنقه

" **زلاقة لسانى أنا يا كلب الزرايب** " ثم نشب شجار حاد بينمها ، فتراجعت أنظرهما مدهوشاً .
ظلا يتلاكما ، ويتجاذبان أطراف الثياب حتى سقطا متقابلين مثل ديكين يتصارعان ، قبل أن يشب بينهما مخلوق بشع ، له رأس فحل كبير وقرنين مقوسين للخلف ، فينزعهما بغشامة ، صارخاً بزيئر مضغم أشبه برنة شيطان ، ليصطدما بجروف الجبل .. ويختفيا قبل أن يسقطا ، كان المنظر أقسى من أن يُفسر الرعب الماكن فيه ، أحسست بقلبى يتقلص كأن شيئاً يسحقه ، للحظات كاد نبضىّ أن يتوقف فيمتصه الفراغ مثل مصباح يوشك على الإغفاء ، وأنا أرى هذا المخلوق يقترب متعملقاً فوقى بقامة رجل ونصف ، وعرض أربعة أكتاف ، بدى شعره الموزوع على ظهره بوحشية من أخمصه إلى رأسه كلبدة أسد ، وذراعاه السارحتان لأسفل كساق ثور بالغ ، يعلوهما كتفين منتفخين ، وقتبة غليظة مثل سنام جمل .
توقف ثم رفع هامته لأعلى ناظراً إلى باحة القصر ، لا يُفهم لنظرته ولعينيه فاحمتىّ السواد شيئ .. سوى أنهما المعنى الحقيقى للوحشية والخوف ، دنا منى يخبخب مثل غول أو طنطل وعر .. حتى أنى كنت أنظره من أسفل كأنه جبل أسود يكاد ينهار ، وإذا به يسقط برأسه بالغة الضخامة نحوى ، فارجاً شدقيه على أقصى إتساعهما .. صارخاً فى وجهى بزئير مرعب ، ظل يتردد حول جرم الجبل لمرات ومرات كأنه نعيب سرب غربان حائم ، شعرت حينها بصمم بالغ يضرب أذنىّ ، وبأن الأرض تميد كأنى أنساح لأسفل ، كانت رعدته من الشراسة أنى لم أدر بجلد وجهى وهو يتيبس ويتشقق ، حتى أحسست بتعرى جمجمتى .. وبألم بارح ينخر عظامها ، كل هذا قبل أن يداهمنى تمزق شديد بدائرة رأسى ، تصدعت كأنها كرة رمل ضربتها عاصفة ، ثم دوار عنيف أخذ يطوحنى فى دوامة لا نهائية .. حتى فقدت وعيى تماماً ، فلم أدر بشيئ بعدها ، إن كنت لا أزال موجوداً بجسدى .. أم أنى تبعثرت مثل تبر الصحراء ، فتلاقفنى الرياح وأوزعتنى بين تبابها المجدبة ، مثل سفساف الغبار حين يناوش الكثبان للحظة ثم يندثر ! ، لم أشعر إلا بهذا البئر الأسود ذاته .. الذى هويت إليه حين إبتلعت المروحية عاصفة ترابية على شكل فكىّ غول آبد ، ثم لا شيئ .

.....

نفخت جهنم نفخة أخرى .. فتفاقمت ظلمتها إلى غور بعيد ، فى قعرها جهمة قاسية .. حيث سبعون ألف جبل ، على كل جبل سبعون ألف شعب ، فى كل شعب سبعون ألف وادى ، فى كل وادٍ سبعون ألف شق .. وهى فى مزيد ، ما فيها ضوء ولا لهب ! .

قضى الأمر وفصل الله بين عباده ، وإنفض الناس عن أرض المحشر .. كلٍ إلى مثواه ، لكن أهل النار للتو ثاروا ، إهتاجوا ، فى القاع نفرت أممهم وشعوبهم فى جمهرة ما أعظمها ، لا حصر لها .. تموج فى بعضها البعض ، الشاهدين بالزور وأصحاب الربا والسائرين بالفتنة وأشباههم ، وأشد ثورة المنافقين ، قلقلوا جمر الدرك الأسفل ، صراخهم كالزبد الحارق يفور من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، كلما سقطت جلودهم .. زادها الله سبعون ألف ذراع ، ما أشد عذابهم ! ، كلما تألموا .. إنداح صراخهم برجيع صاخب مخيف ، وتأججت النار بطبقاتها السبع .. جهنم ولظى وسعر والحطمة والسعير والهاوية والجحيم .

كل شيئ اليوم مختلف ، الحسرة مختلفة ، والندم مختلف .. لأن النار فى أصلها وإستعارها مختلفة ، كل شيئ أصلى ، حقيقى .. يمور فى القاع بكامل قدرته ، كلما علا رعيد أهلها .. زمجرت ، لكن هولها اليوم جمح بناسها إلى شيئ أخر ، لقد جاء العصاة قاطبة ، جِبلّة وعصب وزمرات .. جحافل كثيفة من الإنس والجن وأشباههم ، جاءت ساخطة فى هلع وإختناق ، تآجلت على إبليس فى الدرك الأسفل تقرعه وتلومه ، تذكره بأنه سبب بلواهم الكبرى ، كلما تكاثر عليه فوج بلائمته .. أخذه فوج أخر ، فإهتاجت جهنم صاخبة .. إستعرت حتى تفلتت عن أزمتها السبعون ألف ، والملائكة فى إستعارها يشدونها منكودين .. كلما قبضوا على أصفادها أفلتت ، يكاد فى تملصها وشدتها ينكفئ سبعون ألف مَلك يجرونها ، بينها وبين التمزق برهات .

وإبليس هاهنا .. فى توتره وإنقباضه يجلس شامخاً على عرش من وهم ، ينظر الناعرين إلتياعاً فى شده وإحتراق ، بطل اللحظة ! ، تموج فى أساريره

مخايل رعب لا يُفسر ، بينه وبين قِسمته من العقاب محض خطوات ، كلما إقترب الوقت .. سقط ، تردد فى طبقات النار طبقة طبقة ، رنتَّه اليوم لا تختلف كثيراً عن تلك التى قهرته يوماً ما ، حين غضب الله عليه إذ أبى أن يسجد لأبيهم ، لازال يتذكر الحدث كأنه البارحة ، وكلما تذكر شخص بوجوه أهل النار ، لا يزالون فى تراشقهم ونعيرهم يهدرون ، يلومون ، لا تلومونى ، إن كنت أنا المغضوب عليه .. فبينكم ألف ألف شيطان .

إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة ! ..

لحظة موعودة ، ففيما كان أهل النار فى ضجيجهم وإصطخابهم إذ هبط أربعة ملائكة غلاظ بمنبر من نار ، نزلوا به إلى أصل جهنم وأرسوه ، وهنا سكت الضجيج ، إلتقم الجميع صراخه وشكواه ، ينتظرون ، وإذا بإبليس ينظرهم محسوراً قبل أن يصعد درج المنبر فيما يبدو كأنه سيخطب ، ولكن ماذا جرى حتى قرر بغتة أن يتكلم ؟ ، ما عساه يقول وقد قال كل شيئ ! ، كيف خال له الساعة أن أحداً سيصدقه .. وهو المعهود بالضلال والكذب ! ، لكنه اللحظة سينطق بالصدق .. إذ لابد له فيما إنتهى الأمر أن يفعل ، أن يغلق دِفاف الحكاية الأكبر فى تاريخه ، وتاريخ الإنس والجن .

قام فى حاشيته وأتباعه ، وقف بينهم خطيباً .. لتزداد حسرتهم وكربهم ، ويتم ألمهم وندامتهم ، هتف بصوت جهور غليظ .. سمعته الخلائق كلها ، قال كلمته الأخيرة فى لقاء السعير الأعظم " **إن الله وعدكم وعد الحق بالبعث والجزاء .. ووعدتكم وعداً باطلاً بأنه لا بعث ولا جزاء ، فإتبعتم وعدى ، ما كان لى عليكم قوة ولا سلطان لأقهركم به ، ما كانت لى حجة فى وعدى ، فقط دعوتكم إلى الكفر والضلال .. فإستجبتم ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، الذنب ما إقترفتموه ، ما أنا اليوم بمغيثكم ولا أنتم بمغيثىّ ، إنى بريئ من هذا الذى أشركتم به من قبل ، وبما أنكم قد فعلتم .. فلا جزاء لكم اليوم إلا العذاب الأليم** "

.....

هى نفسها الأشياء التى تحدث دوماً حين يطرق رؤوسنا حجر الحقيقة ، تتكرر الأحداث وتعيد نفسها مراراً .. بإيقاع رتيب له تأثير مخدر ، كأنها

تذكرنا بأن الرحلة ، وإن إختلفت ، فالمعنى واحد ، البئر ذاته والظلام هو هو ، أخذنى التيه إلى أسفل حتى تعلقت أيضاَ بحبل مثل الحبل ، القشة التى دوماً تقصم ظهر البعير ، اليوم هى مُنقذى ، تعلقت به .. ورحت أتسلق جدائله الغليظة بإتجاه فتحة أراها بالأعلى ، بقعة ضوء بعيدة ، ظلت تتحدر وتكبر ، وأنا أقترب ، أتشبث بالجدار تارة وبعقدة فى وسط الحبل تارة .. حتى باتت البقعة شمساً فوق رأسى ، وحافة البئر كأنها أسوار مدينة أدخلها من أرحب أبوابها .

مددت يدى ، تشبثت بالحافة ، ثم صعدت بجسدى المنهك إلى الجانب الأخر .. لكنى لم أسقط ، بل إستويت ، وكأن فتحة البئر على سوية الأرض ، زحفت قدر ذراع عن الثغرة المفتغرة ثم تلفت حولى .. لا أثر للصحراء ، أين الكثبان التى إعتدت رؤيتها منذ أن برحت قدمى بلادى البعيدة ؟! ، عرجت بعينى إلى الجهة الأخرى ، لا أصدق ما أرى ! ، عربة قطار من الدرجة الثالثة وأنا مُقعَد بأرضيتها ، أزحف فى ممر ضيق بين مقاعد رباعية متقابلة ، وفيها هالتنى أكداس المسافرين والضجيج المعتاد ، واللغط البدوى الحثيث المنقذف من فاه إلى فاه ، لمحت قطاً أسوداً يبتعد بإتجاه الباب الفاصل بين العربات ، لم أعاين منه سوى ظهره وذيله المعقوف ، مرفوع كأنه سارية علم ، تساندت إلى حافة مقعد بالجوار واقفاُ على أرجل متهدلة ، فتحجر القط بغتة ثم عرج نحوى برمقة وغيرة .. تدرأ العوار عن عينه المسيحة ، وتبث لمن يحدق فيها خوفاً عميقاً ، لكنه ما كاد حتى ولى ظهره مبتعداً ، غير عابئ ، وما كاد الباب ينغلق عليه حتى إنساح من طي مِصرعه غراباً أسود ، حلق نحوى ناعقاً .. فأوصدت ساعدىّ إلى رأسى فزعاً ، ولم أر حينها هذا الظل الراكض خلفه ، وما كدت أكشف وجهى حتى وجدت الغراب قد مرق فوقى مُرفرفاً ، وتلقيت لكمة فى وجهى ، فانساحت هامتى بجذعى للخلف ، وكرَّت قدمىّ خطوة مكروبة ! .

أصابتنى اللكمة بدوار جعلنى أتردد للحظة ، لكنى لم أكد أسترد إدراكى ، وفى اللحظة التى نفذت فيها عينى إلى فراغ الشرفة فوجدت القطار ينتهب صحراء لا أخر لها .. شعرت بيد الراصود تطبق على مخنقى ، ولمحت اليد الأخرى تستعد للكمة ثانية ، فدفعته فى صدره ، فسقط بوسط مقعد رباعى

أخذاً معه شاباً بدثار وعمامة صعيدية ، فإهتاج الركاب وسرت بينهم جلبة عارمة ، تكدسوا فى زمرات مذعورة بين المقاعد ، آنها وفيما تفاقمت دبدبات القطار فى إصطخاب عنيف ، وما لبثت ألتقط أنفاسى حتى وجدته أمامى ينفذ ضربته التى أهدرها السقوط ، فشعرت بصدغىّ قد ترضض ، فدنوت سريعاً ودفعته برفسة فى بطنة فرزح بجسده فى الممر ، ثم داهمته بهجمة مباغتة .. ورحت أدفعه بلكمات قوية قبل أن يصد يدى بكلوة يده ، صدمنى بقرنه بين عينىّ فإختل توازنى وهويت إلى الخلف ، حينها شعرت بوثبته فوق كتفىّ كوشق متوحش ، ثم بيده وهى تأخذ برأسى وتقرعها بالأرضية عدة مرات ، نزعنى من تلابيبى حتى وقفت بين يديه مترنحاً ، ثم صدمنى بشيئ صلد بدا كأنه قربة خزفية .. فتهشمت فوقى لأغترق بسائل سيئ الرائحة ، ثم راح يطوحنى بصفعات غاشمة يميناً ويساراً ، وبالأخير دفعنى بقدمه فإرتطمت بالباب الفاصل ، لأجدنى منطرحاً بأرضية العربة التالية .

زاغت عينى لثوان ، شعرت خلالها بجدران العربة تتقعر وتتحدب على نحو مثير ، لكن الراصود لم يمهلنى لضلالاتى كثيراً ، هب إلىّ بقبضات ماحقة ، لا أكاد أتلق ضربة حتى تباغتنى ضربة أخرى .. فتهدل جسدى بين يديه كخرقة بالية ، حتى واتتنى لحظة وافرة فعمدت إلى إطار خشبى ، بدى كأنه قفص ، فقرعته فى رأسه ، آنها ، لم أتيقن أن الضربة أفلتته إلا حين وجدت جسدى متكوراً بين أرجل المسافرين ، وسرب من طيور داجنة تحلق فوقى فى ذعر .. ناثرة حولى ريشاً موخوطاً بالدم ، حينها تنبهت إلى حرارة هذا السائل الأحمر الذى يبك من أنفى ، وإذا بالركاب يزجوننى إليه بغتة .. فتلقفنى سحلاً إلى وسط الممر ، ثم أقامنى بعد لطمة قاضية وإنهال فوقى بوابل من الصدمات .. فكنت أتطوح بصدى ضرباته مثل كرة جلد ، أرتطم بباب عربة لأجد نفسى متكوماً بعربة أخرى ، لا أشعر بأيها بدأ وبأيها إنتهى .. حتى تحولت عربات القطار كأنها دروج ساقية ، تدور فتدفعنى معها من حلقة لأخرى ، وبغتة ، وقبل أن أردأ هجماته ملتقطاً شهقة وجع داهمتنى ، غيرت القضبان مسارها فى إنحناء مفاجئ .. فعرج القطار عنوة إلى منعطف حاد ناثراً الركاب من الأبواب والشرفات ، ولن

أنسى ما حييت ما رأيته فى هذه اللحظة عند باب العربة ، ففيما إنقذفت أنا والراصود إلى فراغ مظلم عبر باب مفتوح ، لمحت شبح ، كأنه عمود دخان أسود ، يركل أحد المسافرين بدفعة إلى الخارج ! ، ليسقط مع من سقطوا .

تطوحنا بعيداً لنجد أنفسنا نحلق ساقطين من إرتفاع شاهق ، لأكتشف بنظرة جاءت عبثاً ، أن القطار كان سائراً على قضبان معلقة بالهواء ، قبل أن تتسع المسافات بينها فتترنح صعوداً وهبوطاً مثل حبلىّ مطاط ، فتخلخلت عوارضها الخشبية وتهشم أكثرها ، لينقلب القطار بغتة وتتفكك عرباته ، واحدة تلو الأخرى ، تطوحت فى الفراغ الداجى كأنها حبات مسبحة إنفرط عقدها ! .

كان السقوط سريعاً ، من الغرابة بمكان بحيث لم أشعر بشوطه القصير وهو ينتهى ، برغم الإرتفاع المرعب ، إلا حين وجدت نفسى أترنح فى الهواء لأنكب بالأخير إلى مقعد تحده عارضتين وحِزامىّ أمان ، حينها ضرب أذنىّ ضجيج هائل ، ولمحت أنواراً باهرة تلفنى من كل مكان ، لم أتنبه لتفاصيل كثيرة قبل أن أجد غادة جالسة إلى جوارى ، وإلى جانبها الأخر يجلس الراصود ، كلٍ منهما على مقعد منفصل تحده ذات العوارض وتقيده أحزمة أمان ، تلفتُ حولى مزعوجاً ، كانت الضوضاء تتلاقف على نحو مُهيّج للأعصاب ، وما هى سوى دقيقة زمن تصفحت فيها المكان حتى أدركت أنه مدينة ملاهٍ ضخمـة ، لأكتشف على نحو مفزع أننا جالسين بمقاعد ألة من أخطر الألعاب ، المنصة المقذوفة ، أو كما درج إسمها (الصاروخ) ! .

كنا بمنتصف المشوار ، والجميع يتلفت حوله فى ترقب وشده ، وما إن بدأت المنصة المزحومة بالهبوط رويداً حتى تناوحت الصرخات ، وأخذت الراصود نوبة هستيرية جعلته يهتاج مُطلقاً قهقهات هوس كأنه ضبع ، مزمجراً بصوت متقطع " **فلنبدأ اللعب** " ، فنظرته غادة متفجرة بغمغمة وأنين مرعب ، ثم راحت تدبدب وتطوح قدميها ، فى محاولة للتملص من الأحزمة ، كأنها تدرك ما يقصد ، وإذا بالمنصة تُسرع فى هبوطها بغتة على نحو تفاقم معه الضجيج ، وما كادت تستقر عند القاعدة بالأسفل لثوانٍ

معدودة حتى إنقذفت لأعلى بأقصى سرعة لها .. كأنها صاروخ أفلت من معقله ، فطاحت الصرخات تطن بأرجاء المدينة حتى غشى إصطخابها دويّ الآلات المختلط .

شعرت بروحى تنسحب .. فيما كان هذا الطبق ينساح بنا صاعداً بسرعة هائلة ، جنونية ! ، كأنه مصعد مكشوف فقد سيطرته ، لفحنى الصياح الغوغائى بلجةٍ صمّت آذانى ، جعلتنى أميل برأسى مغمضاً .. غارقاً فى دوامة عاصرة من العصف والتشويش والإختناق ، حتى أنى وقتئذٍ ، ولشدة ما عانيت ، لم أنتبه للأحزمة والدعائم الخاصة بغادة وهى تنفك واحدة تلو الأخرى ، لم أشعر سوى بصراخها المهزوم وهو يبتعد ، ثم تلاشى تدريجياً ، فنظرتها مرتعباً وهى تسقط ، محاولاً إلتقاط أنفاسى التى توقفت بغتة ، فإذا بى ألمح سيارة بالأسفل .. بينها وبين الإرتطام بها برهات ، كدت أجن رعباً وأنا أراها تقترب بسرعة مخيفة ، فانزمَّ جفناى رغماً عنى ، بعد حملقة طويلة ، فى إغماضة صدمة لا إرادية ، لم أطق رؤيتها وهى تصطـدم ، وإذا بمشهد قديم ينداح إلى عينى من قاع الذاكرة البعيدة ، رأيتها وهى تسقط من سطح البناية التى نسكن فيها فترتطم بسيارة بالأسفل ، ففتحت عينىّ مفزوعاً خشية أن أعاين مصرعها تارة أخرى ، لكنها فى صخب هذا الضباب الراعد .. إختفت ، لتظهر مروحية من طراز (جازيل) ، تترنح ، مخترقة سحائب الأصوات المدوية ، إنحدرت بمقدمتها نحو الأسفل ، دارت حول نفسها ثم سقطت مصطدمة بالأرض ، ثم إنفجرت ، ففجّت نحونا موجة مرتدة من نيران صاعدة رهيبة .. تلفحنا بلهيب حارق .

وإذا بالمنصة ، قبل أن يختمر مشهد الإنفجـار فى رأسى ، تدور حول محورها بسرعة مهولة .. تكافئ سرعة صعودها ، فتمزقت أحزمة الأمان وإنخلعت الدعائم .. لأجد نفسى منقذفاً فى الهواء وسط صرخات تتعالى وأشباح تتناثر ، وما كدت أنزاح عن المنصة لمسافة سقوط بعيدة .. حتى لمحتها تُسرع دورانها على نحو هستيرى ، تحولت على إثره لهالة دائرية كبيرة بالكاد تميز محيطها المربع أو أحرفها البارزة ، وإذا بها تنفلت عن محورها فجأة محلقة إلى الفضاء البعيد كأنها طبق طائر .. جارة فى ذيلها حزمة من ضوء كثيف ،

حينها شعرت بجسدى ينسحق فى دوامة عاصفة تأخذنى لأسفل .. قبل أن أرى أمامى من هذا الإرتفاع الشاهق أرض جاسية صلدة ، تنذرنى بلحظات مفجعة تسبق إصطداماً مريعاً ، وفـى قلب الدوامة تذكرت كل ما حدث ، فأغمضت عينى فزعاً .. أدرأ عنها محاولـة تخيُل المشهد ، برغم أنـى أعـرف أن إغماض العـين لن يغـير شيئ .. فلا شيئ سيتغير لمجرد أنك لا تريد أن تراه ، لا شيئ يوقف الزمـن ، سيزداد سوءاً حين تراه فى المرة التالية .

.....

كان الصياح صاخباً عند حافة بركة التماسيح ، ينذرنى بالسقوط ، لكنى برغم هذا تقدمت ، كأن تحذيراتهم ، وصراخات رواد الحديقة خلف السياج البعيد قد ضلت طريقها ، ولم تكن سوى خطوة أخطأت مقصدها حين زلقت قدمى بغتة .. فتدحرجت عبر الجرف الطينى قبل أن أهوى إلى قلب دائرة الوحوش ، بركة ماء مظلمة ، وضوارى زاحفة تتضور جوعاً منذ عدة ليال .. حتى أنها كانت تعض بعضها بعضاً ، رأيتها تُشرع أفكاكها المدببة نحوى أذوناً بلحظة إفتراس مرتقبة ، وليمة طال إنتظارها ! .

كان بينى وبين التمزق برهات لولا أن التيار إنتزعنى عن أنيابها بعدة أشبار ، حملنى فى طريقه ، ثم سحبنى إلى لجة موج هادر عنيف .. يضخ ريح عاصفة ، تلفت حولى مفزوعاً ، البركة كأنها نهر واسع طمسه الفيضان ، وإذا كثيرين من الغرقى مثلى ، جرفهم السيل إلى مسافات بعيدة آخذاً معه الناس والبيوت ، سيول درنكة المفجعة التى أتت على غير موعدها ! .

الموج الغاضب فى طغيانه كأنه طـوفان ، لا يرحم ، دمدم فارداً ذراعية فنزع جذوع النخيل ، وطرق الدور والجدران فسحقها فى تتال فرقعات مدوية ، زمجرته نثرت الصارخين لأعلى ثم إنكفأت بهم ليغوصوا إلى أدنى محط للقرية الفقيرة ، لكن تيارات القاع ضربتهم بدفقات صاعدة .. فدفعهم لأعلى تارة أخرى ، الكل يحاول أن ينجو برغم هذه الجبال الرجراجة التى تتلاقفهم من دوامة إلى دوامة ، تصارع ملهوف وصرخات لا تنقطع .. قبل أن يحمل الموج المتلاطم الجميع ثم يُلقيهم إلى آلاف الأشداق المفرجة ، المشرعة لأعلى ، قواطعها الغشيمة تشبه كثيراً مناشير التماسيح ! ، وما هى

سوى رمقة جامحة ، قبل السقوط ببرهات ، حتى لمحت الحراشيف الغليظة ، والأعين الزاحفة التى لا تكف عن ذرف الدمع ! ، فإنتفضت هلعاً .

.....

إنفرج جفنای عنوة .. فتشكل الخوف فى محجريها جحوظاً مرعباً ، أبحث عن هذه الأرض الصلدة التى توعدتنى بإصطدام مريع .. فإذا وجهى لأعلى جهة المنصة التى حلقت ثم إختفت ، أدار السقوط جسدى فنظرت لأسفل مشدوهاً .. فإذا أمامى أرض خضراء تترجرج ، وقبل أن أدرك أنها محض سطح مائى آسن ، أشبه بصفحة بحر ضحضاح راكد ، كان جسدى قد إخترق الماء غائصاً ، يحجل بقدمين منهكين ، لكنه هبط سريعاً جهة القاع كسهم مارق ، غرق ! .

(١٥)

هل حدثك أحدهم عن شعور الغرق فى قارورة ماء ؟! .. هذا هو الشعور الذى إنتابنى حين إخترقت الماء الآسن ، كدت أغرق .. قبل يقترب الشيخ ياسين بالقارورة ذاتها إلى جسدى المسجى على دكة الحجر بغرفتى ، محاولاً أن يُجرعنى من سائلها الأخضر ، إكتشفت حينها أن السائل الرجراج الذى إغترقت فيه يحاول الشيخ بالكاد إغراقه فىّ ! ، فى صورة بصرية مُربكة ، لكنها عجيبة ! ، وبرغم أن الأمر برمته لم يكن سوى تتمة هلوسة لتوها إنتهت .. إلا أنى كنت أشعر بكل ما هو دائر حولى ، ولكن فى وعى أخر ، وعى مُشوش أيما تشويش ! .. أحاول فيه لملمة شتات نفسى المنثورة .

رفع الشيخ السائل العشبى إلى فمى راجياً أن أتماثل للدواء هذه المرة ، لكن عقلى لا يستجيب ! ، وبرغم أنه حاول مراراً تمرير السائل إلى حلقى ، بفتق فكىّ على إتساعهما ، إلا أن الطرق كانت دوماً مسدودة ، ففى كل مرة يغلق فيها فمى المملوء بمخاليطه الغريبة عنوة .. كان السائل يتسربل على جانبى شفتى ، وإن غاب فى حلقى لنهار كامل ، كان قد إعتاد الأمر .. لكنه هذه الساعة شعر بخيبة تلك الأشياء التى تنتهى بك دوماً إلى حائط سد ، شيء ثقيل جثم على صدره بغتة ، ولم تكن مريم أقل منه تأثراً ، إرتد بخطى وئيدة هزمتها كثرة المحاولات الضائعة فرزح إلى مقعد بالجوار ، ثم أسلم ظهره للحائط محدقاً فى نقطة بعيدة بين القوارير المزحومة بالمساحيق والأعشاب ، هى خلاصة خبراته فى التطبيب والشفاء ، ثم رفع رأسه إلى السقف فى حملقة شرود ، ربما لا تواءم كفاف عجوز ضرير ، لكنها تختصر كل شيئ ! .

غلب الصمت هسيس أهل الواحة المرابضين خلف الشرفة ، أمام مصطبة الدار ، الجميع يعرف إلى أى مدى تنم حركات الشيخ عن بالغ حزنه ، وكأن آمالهم معلقة بلحظة صحوة ينفرج فيها جفناى ، عدة ليال من الحمى والخدر ولايزال عقلى يستعر ، أسير إغماءة عنيدة تأبى ألا تُنهى روغانها ، بدى الأمر كأنها غيبوبة أو حالة سكر متأخرة ، الأعراض تُنبئ بمخايل مرض فتاك لا أوبة منه ، تلك الأعراض ذاتها التى للساعة لا يعلم الشيخ

لها سبباً ، ماذا عساه يكون قد جرى لى ليفقد جسدى جميع قواه جملة واحدة ، لأرقد بالأخير هذه الرقدة مثل قشة يبستها رمضاء الصيف ؟! .
ظل يرمينى بنظرات آسية بين فينة وأخرى ، يتحين أن أتقلقل للحظة ولو أتى الأمر بمحض إختلاجة إصبع ، وبرغم أن الأمر طال إلا أنه لم يفقد صبره ، حتى أنه ما إن سمعنى أتنحنح ببطئ ، ولمح رأسى تتحرك حتى هب بقارورته نحوى ، علّ الأمر يُفلح هذه المرة ، لكن شهقة فزع أرجفتنى فطوحت القارورة إلى زاوية الحجرة ، فسقطت متهشمة ، وما هى سوى رمقة جحوظ أفرجت مصاريع عينى لثوانٍ قليلة .. حتى إرتخت أجفانى تارة أخرى فى هدوء ووهن ، فند الشيخ تنهيدة عميقة ثم نكص إلى مقعده مُنهكاً ، مُحملاً بأوصاب ساعات ثقيلة من السهر ، فلم تُطق مريم ، دنت منه بحركة متوترة تجاهد قيلة فى نفسها لكن عفتها أبت ، وحين إلتفت إليها الشيخ راحت فى تخبط بادى تزيح القوارير ، وتنضد بعضها فى محاولة بائسة لمواراة إرتباكها عن أبيها ، ذاك الذى ما عاد يحتاج لبصره ليقرأ حسرتها ، يكفيه فقط الإصغـاء لدبيب صدرها ، وترقب وتـيرة أنفاسها المتعبة ، لكنها لم تتحمل أكثر ، إقتربت من أبيها ، وبنبرة قلقة خددها الإنتظار .. تحمل حجيماً فى تخيلاتها ، غمغمت " **وما العمل يا أبتى** ؟ ، **بهذه الطريقة سيموت** " ، فأجابها بنبرة يائسة " **جميعنا سنموت ، من قطع النبض عليه الشفاء** " ، ثم سمعته يهس لحاله " **أوٍ لو أعرف فقط ما جرى له ! ** " ، فترقرقت عينها .
لم تشعر بخطورة الموقف على وجهه الأخر إلا حين تلمست عجز أبيها ، كان كلما قام بمحاولة بزغ فى سماءها أمل جديد ، لكنه لحظة أن إستسلم ووقف مكتوف الأيدى أظلمت السماء ، شعرت بإقتراب فاجعة لا تقل عن مصابها فى أمها وأخيها ، هؤلاء اللذين لم تذق الوجع إلا بفراقهما ، وتفاقم إنقباضها حين إلتقطت أذنيها حديث رجلين يتسارا خارج الشرفة ، حينما سأل أحدهم عن حالى ، فأجابه الأخر " **بالكاد نحاول إفاقته ، ولكن يبدو أنه لا فائدة من الأمر** " ، فسقطت دمعتها المعلقة ، وتبعتها دمعات أخرى كثيرة ، سيل من التكهنات السيئة جرفها إلى القاع ، كلما مر الوقت ، وكلما سمعت هسيس أهل الواحة إستشعرت إقتراب يوم موعود ، هى لا

تعرف أى سوءة يحمله هذا اليوم .. لكنه يقترب ، إلا أن أكثر ما هزمها ، وسبب لها صدمة ثقيلة .. هو رضوخ أبيها حيال الأمر ، تعرف أنه بذل أقصى ما فى جعبته من جهد ، لكنها أيضاً تعرف أن لديه المزيد ، ظلت تحدجه برمقات قاسية ، رمقات إتهام صارخة ، وكأنه يراها .. كان يحيد بوجهه عنها كلما أمعنت نحوه .

.....

لم تكن غادة هى من أسقطت الهاتف عن حافة السور إلى سقيفة المنور ، الواطئة بزهاء مترين ، حين كنا جالسين عند طرف الهوة الشاهقة بسطح العمارة ، نتجاذب طرفىّ حديث جاد ، كنت أنا من فعلها ، وبرغم علمى برهابها الشديد من الإرتفاعات العالية .. صرخت فى وجهها عمداً ، يكتسى وجهى بسخط مصطنع " **أى بلاهة هذه ! ، هل ستظلين تتأملينه هكذا كثيراً ؟! ، تدلى وإجلبيه كما أسقطيه** " ، كادت أن تُبرئ ساحتها لولا أنها لمحت إرتعاشات غضب موحش تموج بوجهى ، تلك التى كان عشقها لى عشقاً أعمى .. سحقها حتى فقدت حياله هويتها ، إبتدرتنى بصوت متهدج " **بربك لا تحزن ، سأنزل وأحضره** " ، لكنها ظلت تحدق فى فراغ المنور فى وجل ، فبرغم السقيفة القريبة ، والمنضدة بعوارض مُشبكة من أسياخ الفولاذ ، إلا أن الإرتفاع الشاهق أصابها بذعر شديد ، فراحت تدور حول السور من يمينه إلى يساره ، ومن يساره إلى يمينه ، وتعيد الكرّة .. فى محاولة للعثور على نقطة تمكنها من النزول ، لكنها بالأخير لم تسطع .

فأخذتنى هوجة صبيانية فخليت سبيلها مردداً " **لا شأن لي ، ما رأيت فتاة أجبن منك ... جبااانة** " ، فوثبت نحوى محاولة إيقافى " **يوسف .. لا تغضب ، ها أنا سأجلبه** " ، لكنى تملصت منها دون حتى أن ألتفت ، ظلت لبرهة ترقبنى وأنا أغادر .. حتى سمعت طرقاتى المتآزفة على الدرج ، فعرجت إلى السور تنظره فى حيرة وتره ، ترجلت حوله فى نصف دورة ثم تحاملت حتى تسلقت إلى جهته الأخرى .. لكنها ما كادت تهبط بجسدها إلى فراغ المنور حتى تعلقت ، وأكثر ما كانت تخشاه آنئذٍ أن ترتطم بالسقيفة ، فتأخدها إلى القاع السحيقة ، المنخفضة لأكثر من خمسة طوابق ، وبرغم حذرها أفلتت إحدى يديها فصرخت بملئ فيها .. لكن أحداً لم يسمعها ،

فجاهدت حتى تشبثت بالحافة الخارجية ، ثم صعدت بكل قواها إلى أن تكومت إلى جوار السور ، حينها كاد الفزع أن يُفتت قلبها ، إلا أن أكثر ما هزمها أنها حين تحسست ملابسَها وجدتً أنها بالت من شدة الخوف ، فطوقت رجليها بذراعيها ثم دفنت رأسها فيهما متقوقعة ، وما لبثت حتى غشيتها لحظة حسرة فطرت قلبها .. فبكت كما لم تبك من قبل .

.....

تلك هى قوانين الصحراء ، القاسية حيال كل شيئ ، فكل شيئ هنا ما هو إلا غرض ، وكل غرض يموت .. ولكن بلا صوت ، بلا روح تُنتزع ، فقط يموت ، يسحقه التراب .. وإنتهى الأمر ! ، برغم هذه الحقائق الصارمة التى إعتادها الأقران من أهل البادية ، وألفوها حتى إطمأنوا لها .. كادت مريم أن تتطير فرحاً وهى تسمع نداءاتى الخفيضة ، همسات واهنة حملها الأثير ناطقاً بإسمها ، وما كادت فرحتها أن تنبض حتى نزعهتا نداءاتى المكرورة حين ذُيلت بإسم أخر ، " **غادة !** " فجزعت نفسها ، إضطربت وقت أن هبت إلى جوارى تتسمع هسيسى .. فتوقفت مبهوتة " **من هى غادة ؟!** " ، كان صوتها أول صوت تلتقطه أذنى ، وإسم غادة أول إسم أصخى إليه بعناء .. بعد أن رافقتنى صاحبته طوال رحلة جهنمية من الهلاوس والضلالات ، متعجباً بهمس خبيئ قارب على الإختفاء " **حقاً ، من هى غادة ؟!** " .

إستعاد الجسد وعيه دون مقدمات ، ظلت ذاكرتى مُجمدة لوقت قصير ، وما كادت حتى قرأت الوجوه وتذكرت الأماكن ، لكنها لم تتذكر شيئ مما هست به على فراش الموت ، إلا أن الأمر لم يستغرق سوى سويعات قليلة ، أخذتنى فيها صحوة مؤقتة ، حتى غبت عن الوعى تارة أخرى ، مثل بطارية نفذ شحنها ، وخلال عدة أيام لاحقة كنت أفيق لدقائق أو ساعة زمن على أقصى تقدير ، ثم ينتهبنى الغياب لنهارات وليالٍ طويلة ، إلى أن تماثلت للشفاء رويداً وبت أصحو ليوم أو نصف يوم ، ثم تطور الأمر بمرور الوقت ، خلال ذلك أوصانى الشيخ بألا أبرح حشيتى بتاتاً خشية أن تداهمنى إنتكاسة مباغة ، حتى أنى حين كابرت وركبت رأسى ساحت قدمى قبل أن تطأ الأرض ، فإمتثلت لنصائحه قسراً .

كاد الأمر أن يمضى دون مزيد من المتاعب ، وكادت الأيام أن توارى ذكرى ليال المرض المرهقة ، لولا حلول هذا المساء الكاشف الذى خرج فيه الشيخ ياسين يتفقد ضياعه وحوازيه ، كعادته منذ أن غاب سلامة خادمه وكلّاف بهائمه ، فبينما كان قد أنهى نوبته ، ثم عاد أدراجه إلى الدار دائراً حولها يتحرى شرفاتها برمقات لا تخلو من سهوم ، وحين إقترب من مصراعى شرفتى المفرجين مُتفقداً سريرى بنظرة قلقة .. وجده خاوياً ، ليس إلا حشية ووسادة مبللة ولحاف متكور على بعضه ، فتجمدت أساريره وجحظت عينه غير مُصدقة ، خاصة وأنه كان قد أجرعنى قبل أن يخرج نصف قارورة عشبية بها مخلوط مُسكر حتى أستريح ، فساوره حينها هاجس حارف بأنى لا محال ساقط بمكان ما ، لا ريب أنى خرقت نصائحه كعادتى فغادرت فراشى مكابراً .. فكانت النتيجة أنى بمجرد أن خطوت إنطرحت ، فهب من فوره إلى جهة الدار الأخرى ، وما كاد يعرج من الزاوية المفضية إلى الواجهة الرئيسية حتى بوغت بى جالساً على المصطبة فى إعياء شديد ، مشرعاً رأسى لأعلى .. أحدق فى النجوم تحديقاً مريباً ! .
إقترب منى مستاءاً " **لم تركت فراشك ؟! .. لازلت مريضاً** " ، فرميته بنظرة صمـوتة لا يُفهم منها شيئاً ، ثم أقمت رأسى جهة السماء ، فأخذ بساعدى " **قم معى ، ماذا دهاك ؟ ، بربك هل إنتكست مرة أخرى ؟** " ، ثم سحبنى متأثراً حتى ناهزنا باب الدار ، وما كدت أتجاوز الباحة الداخلية إلى غرفتى حتى إنطرحت فوق الحشية .. وأوغلت فى إغماءة ثقيلة غيّبتنى عن الدنيا ، دامت لأكثر من أسبوعين ، ربعت الحمى خلالها فى جسدى ربعاً .. تقدح فيه بوتيرة مرعبة ، وبرغم أن الشيخ لم يغفل عنى بمخاليطه إلا أن الحال لم يتغير ، بل كان يسوء كلما مر الوقت ، حينها ، ودون سابقة ، وأيضاً دون رغبته ، لم يجد الرجل مناصاً من الإستعانة بالثقات من عجائز الغجر وكُهانهم ، ممن وفدوا إلى الواحـة وعاشـوا بين أهلها دون أن يأتوا بكهانـة مضرة ، أو كيد خبيث .

مضت أيام غير قليلة أطلق فيها الشيخ العنان لدُهاة الغجر يفعلون بى ما يشاءون ، فبين يوم وليلة ، وفيما كانت غرفتى تعج لأنفها بالدوارق والمواقد

والمدقات والقوارير ، ووسوسة السحرة وملغزات المنجمين .. كانت نهكة المرض لاتزال تُنشب مخالبها بجسدى الراقد فى وهن وخدر ، حينها كان الشيخ يلتقط كل وصفة يعدها العجائز ، يسحقونها ثم يغمرونها بتمتمات وعزائم غريبة ، فيؤلفها فى صورة مخاليط عشبية ، ثم يسقنى بها ، وكانت مريم فوق رؤوسهم بالمساعدة على قدم وساق ، فى البداية لم تكن الأمور تسير كما يُرام .. حتى راح الكهان يُنْفِذون طقوساً جهنمية تتناوح ما بين التنجيم وصك الحصى وفتح المندل ودق النواقيس .. وأشياء من هذا القبيل ، وبعد عناء شديد ، وليالٍ من الخرافة أطلق فيها الكهان شياطين الغجر من كل حدب بالصحراء إلى جسدى المُفتق .. بدأت الحياة تدب فى أجزائى الميتة على نحو عجيب ، إبان ذلك ، وفى خلال ساعات عكوفهم الطويل بين طرائقهم الآبدة .. وجدت قدماً أدوس عليها ، وغادرت الفراش حتى مصطبة الدار ، وأمضيت وقتاً من النقاهة والإستشفاء .. تمكنت بعده من إسترداد وعىّ وجسدى المنهك ، حتى حانت ساعة ، لابد منها ، لملم فيها العجائز أحجياتهم وتمائمهم .. وأنبأوا الشيخ بأنهم قد أنجزوا مهمتهم ، وما عاد له أرب فيهم .. بعد رُدت الروح التى إنتزعها الشيطان ، فلم يعلق ، وبرغم أنى لم أستخلص شيئاً من ترهاتهم هذه .. لم أسأل .

.....

" **إذن فليحمد ربه** " قالها الشيخ وهو ينظر لمريم ، ثم عرج نحوى ممعناً " **لقد كُتب لك عمر جديد** " ، فتزحزحت جهته قيد شبرين على مصطبة الدار " **وهل إنتهى الأمر ؟! .. لم ينتهى بعد** " ، ثم أشحت برأسى جهة البئر متأملاً حجم الصرخات التى إمتصتها حجارته " **ليتنى فقط أفهم .. ماذا يريد هذا المسخ بالضبط ! ، إن كان الخوف على الدفين الذى يحرسه بالأساس يمزقه .. فلماذا إذن يتوق لفك الرصد ؟! "** ، فإبتسم الشيخ " **لأن مال اليهود ببساطة لن يكون إلا لليهود** " ، فنظرته بإمتعاض " **وماذا يعنى هذا أيضاً ؟! "** ، فمال بجذعه قاضماً إبتسامته " **أقصد أنه بقدر ما يتوق لفك الرصد لأجل أن ينعتق من سجنه .. إلا أنه لن يفرط فى الكنز بحال ، فهو موكل لحراسته لأجل اليهود .. وليس غيرهم** " .

فأخذتنى برهة شرود أقلب فيها الأمر فى رأسى ، واكبت مرور رجلين من

أهل الواحة " **حمداً لله على سلامتك ، طالت رقدتك وإنتزع الأمل حتى ظننا أنك ذهبت فطيس** " ، فحدجه الشيخ " **خسأ لسانك يا بوذ الشؤم** " ، فجذب الرجل الثانى رفيقه متلمظاً " **هيا يا رجل ، هذا ما يريد سوى أن يُحملنا العيبة** " ، فكمم الرجل الأول فمه ثم سحبه من ساعده مبتعداً ، لكن الرجل الثانى تملص منه متمتماً وهو يبتعد " **يقول خسأ لسانى ! ، لماذا إذن ؟! ، ألا يكفه ضيفه هذا الذى حمَّلنا مثاقيله .. وهو يأكل ويرعى بلا صنعة ! ، على قول المثل ، صاحبك أخذته الحمى .. قالوا هو عاطل لها** " ، فدفعه رفيقه فى ضيق " **وهل يأكل من كتفك ! ، إقطع بوذك هذا .. جَرستنا** " .

إبان ذلك كنت قد أفقت من شرودى .. دون أن أستجمع كلمة واحدة من تناوشهما هذا ، نظرت جهة الشيخ الذى بادرنى بإلتفاته " **ألذلك حذرتنى بأن فك الرصد مجلبة للمهالك ؟! ** " ، وقبل أن ينبس الشيخ ببنت شفة .. بوغت برجل من الغجر يجوس ربوع الواحة صارخاً ، قبل أن يعرج نحونا هاتفاً فى فزع " **إنفكت أصفاد أبو الحديد .. إنفكت أصفاد أبو الحديد** " ، ثم هب راكضاً كالمصروع يكرر نبأه المشئوم ، حينها رمانى الشيخ بحملقة غامضة أثارت قشعريرة فى جسدى" **ماذا ؟! ** " ، ثم تنحى ببصره جهة البئر " **يا ويلنا مما عساه ينتظرنا** " ، وما هى سوى لحظة أو أقل حتى أوغلت فى شيئ مهول ، أخذتنى تلك الوكزة التى تنخس الرأس حين تنبض الذاكرة بحدث صاعـد من القاع ، فتمتمت فى برود بليد يشوبه رجفة خذى وخجل " **أنا من فعلها** " ، فعـرج الشيخ ومريم لتوهما نحـوى فى رمقـة واحـدة .. يستنطقان المخفىّ وراء قيلتى هذه ! ، فلم ألتفت ، لكنى قصصت لهما ما حدث ! .

إن الجبال الماردة لا يُرى إلا متنها مهما بلغت بطـونها ، وهكذا فإن القصص العميقة لا يُرى إلا ظاهرها مهما بلغ عمقها ، وبقدر ما كانت النهاية ملفتة ، ملفتة وفقط .. بقدر ما تأثر الناس بها وإن كانت لا شيئ ! ، تذكرت تلك الليلة التى ناهز فيها رغو الحمى بجسدى أقصى بلوغه ، كنت آنها راقداً فى غرفتى .. حين تسللت من صدع فى زاوية الحجرة ألسنة من دخن أسود ،

زحفت إلى الفراغ متلوية مثل أيادٍ تتراقص قبل أن تدنو إلى جسدى المسجى ثم تدور حوله ، ظلت بالحيلة حتى تسربلت أسفله ثم خرجت من جهته الأخرى ، وما لبثت أن أحاطت به مثل الكفن حتى إنفرجت عينىّ ناعستين ، مُنَوّمَين لا يبدو من بياضهما السائد سوى حدقة صغيرة مثل حبة رمل ، آنئذٍ إنفرطت الأصفاد الرخوة عن جسدى فى ليونة وسلاسة فجلست قاعداً ، فتجمع الدخان أمامى فى شبه هالة كالمُذنَب ، لها رأس وذيل مجدول ، ثم تدفقت جهة الباب فإخترقت ضلفته ، فتحركت ورائها مُساقاً دون إرادة ، فتحت مصرع الباب ثم خرجت ، لزمت غرزها مروراً بالباحة والقبر حتى كنت فى الردهة الخارجية أمام الدار ، وقتئذٍ تلفت حولى كمن يتحرى الطريق ويتأكد أن لا أحد يرقبه ، ثم إقتفيت أثرها بلا وعى .
تفرعت الهالة إلى ألسنة تتلوى محلقة فى الهواء ، كأنها أذرع أخطبوت ، ظلت تروغ وتدور حول بعضها ، زاحفة ، حتى توقفت أمام البئر ، حينها إلتأمت الأذرع فى جديلة واحدة ، سقط طرفها إلى الأرض ثم إرتفعت حائمة مثل دوامة مائلة ، وما كادت حتى إنتصبت واقفة فى قامة رجل ونصف ، وإذا بكثافتها تفرط فى الزيادة وتتسع دوائرها .. وتموج حلقاتها ما بين الأسود والرمادى ، ثم تنزاح عن بعضها كحبال رخوة مكونة ما يشبه الثغرة .. ليبرز الراصود من طيها ، كعبد طيِّع يحدو سيده بدهاء ! .
دنا منى فى متوع أجساد العبيد ، على نحو لا يليق بجسدى المترنح فى وهن وخدر ، ثم رمى ببصره كسهم مارق نفذ إلى منتصف حدقتى .. قبل أن يمر بمسحة رهيفة بيده من ذؤابتى إلى جبهتى ، كأنه كاهن يبارك قرباناً أمام المذبح ، ثم نزع خاتمه عن بنصره ومده لى ، فمددت يدى فى هزل وإلتقطه قبل أن أطوقه حول إصبعى ، رفعته إلى عينى فى تحديقة طويلة أحد النظر إلى نقشه الموسوم ، حينها مال الراصود بجذعه ثم هب بوثبة خاطفة .. حتى إستقر فوق سطح البئر ، وفى وثبة أخرى إرتفع ثم سقط إلى جوفه ، كدفقة من الدخن ، متسربلاً عبر شرخ دقيق تصدع لتوه بسطح الحجر .. والذى ما لبث حتى إلتأم ، آنئذٍ ، إقتربت ثم مددت بنصرى مثنياً .. ورسمت نقش (الجمجمة والثعبانين) برأس الخاتم على حجر البئر ،

فتزحزح رويداً حتى إنكشفت الهوة عن أخرها .. قبل أن يميل حرف الحجر جانباً مستنداً بطرفه العلوى إلى حافة البئر .
فى هذه اللحظة ، عرجت برأسى يميناً ويساراً أتفقد الطريق ، بوعى مسلوب ، ثم تقدمت خطوة جهة البئر ناظراً من فتحته المفتغرة .. كأنها شفا حفرة تُفضى إلى الجحيم ، وما هى سوى رمقة واحدة حتى إرتددت مفتزعاً .. قبل أن أعود فى إضطراب لأستجمع ما رأيت ، كان الراصود منكفئاً على نفسه فى هيئة موحشة ، مُنكس الرأس ، ومكبل بأغلال من حديد مثبتة بين صخرتين عالقتين على جانبى البئر ، عند منتصفه ، يتصل طرفها الأخر بحلقات تطوق خصره مثل النطاق ، تمران يديه أسفل ركبتيه لتتجمع بالنهاية بسوارين مصفدين خلف عنقه ! ..
برغم وضعه البائس ، كجنين منسى فى قاع رحم ، رفع رأسه بغتة بأجفان مرخية ، لافظاً أنة عجز ممطوطة ، وما لبث حتى طأطأها فى وهن كأنه يحتضر ، فبدى بشعره المتغول .. مثل لبدة أسد معمر ، وشاربه شديد الغزارة الملتحم بلحية سارحة تمتد أسفل كاحله بزهاء متر ! .. كعجوز عمره ألف عام .
ظل مطرقاً للحظات يختلج بأنفاس ثقيلة ، مثل كهل متهدم ، شعرت خلالها بحفيف قوى يرف فوقى ، وحين رفعت هامتى لأعلى لمحت غراباً أسود ، كأنما ظهر من اللاشيئ ! ، يحوم فى سماء البئر مثل عقاب كبير ، راح يدور حولى ، وأنا أتبعه ببصرى فى قلق ، قبل أن تطرق أذنى أنة إحتضار ثقيلة قادمة من القاع ، وفى اللحظة ذاتها التى أخفضت بصرى جهة البئر .. رفع الراصود رأسه المتغولة بغتة ، متفجراً بصرخة مضغمة موحشة ، خلعت قلبى ، وقبل أن أرتد للوراء فزعاً حدجنى بعين زرقاء وعرة تجاورها عين مسيحة ، تقرأ فيهما البؤس ذاته ، ثم أطلق أنيناً مكتوماً مرخياً جفنيه فى هدوء ، كأنه يلتقط أنفاسه الأخيرة ، هامساً بصوت خفيض " **خذ الورقة وإتلو ما بها** " ، شعرت بحيرة شديدة آنذاك ، فلم أكن قد فهمت شيئاً مما قال ، حتى لمحت صحيفة بلون نحاسي قانى مطوية ومعلقة فى رقبته بخيط رفيع ، حينها سقط الغراب إلى البئر وإلتقط الورقة بمنقاره ، ثم ألقاها إلى جانبى ، ثم حلق بعيداً .. وكأنما قد أدى مهمة منوط بها ،

فإنحنيت وأخذت الورقة بأصابع مرتجفة ، كانت صحيفة مصقولة من الذهب ، وحين أفردت طيها وجدت أنها مطروقة بكتابات وطلاسم آرامية ، وقبل أن ألتفت إليه فى شده .. نفث الراصود من فمه دفقة دخن ، دارت حول رأسى لبرهة ، فإنطلق لسانى راطناً " **آهيا شراهيا أدونای أصباؤت آل شدای ، نموه بدوح ، يهوه ، بحق خدام العزيمة .. هذا خادمكم ...** " حتى تلوت العزيمة بأقسامها السبعة ، كنت كلما قرأت قسماً إنفكت حلقة من أصفاده ، وما كادت الأغلال ترتخي إلى جانبيه ، محدثة قعقعة واهنة كمن فقد همته ، حتى تحرر الراصود واثباً إلى أن إستقر عند حافة البئر بهيئة غير هيئته ، صحّت عينه المسيحة ، وإنتشرت عن جسده أثار العجز والشيب ، كان مثل شاب بارح له عود سمهرى ، هو بعينه (جبرين الدقاق) .

أقام هامته لأعلى مشرعة جهة ذروة الجبل ، ثم شهق شهقة مكروبة مال بعدها بعوده الفارع ، فى غير إتزان ، محدقاً فى وجهى ، ظل لبرهة ينظرنى بإبتسامته الوقحة ، ثم رمى ببصره داخل البئر قبل أن يعرج نحوى تارة أخرى ، قائلاً " **ها هو ذا دُرْج قمران أمامك .. ومن أسفله كنوز اليهود ، إن إستطعت فلتأخذه** " ، ثم إنفجر ضاحكاً بهستيرية .. قبل أن يثب بغتة إلى الأرض ليحط أمامى مباشرة ، رشق عينه الباردة فى عينى ثم أشار براحته فى الهواء كمن يملؤها ، فتصعدت حفنة تراب إلى كفه ، ألقاها فوق فتحة البئر .. فإرتد الحجر وإنغلقت الهوة ، حينها نفخ فى وجهى ثم دفعنى فى كتفى بإصبع ، رأيت الخاتم يطوقه ، كمن يدرأ عنه بعوضة ، ثم إختفى ، فتحركت منوماً حتى ناهزت مصطبة الدار .. ثم جلست ، ثم رفعت رأسى إلى السماء أحدق فى النجوم تحديقاً مريباً .. كما وجدنى الشيخ ، ليلة أن إكتشف إختفائى ! .

(١٦)

" ما ساورنى شك أن الراصود حتماً سيفعلها ، لم ينطلى علىّ منظرك وأنت تحدق فى السماء كالملبوس " قالها الشيخ بنبرة أسف ، فنظرته ساهماً **" أتقصد أن الأمر قد وقع حقاً ؟ ، إنفك الرصد ! "** ، فرد مشفقاً **" فلتحمد الله أنه لم يسفح دمك عند البئر ، لولا أنك كنت محموماً لإفتدى نفسه بك ، إلا أن هذا لا يمنع أنه سيظل فى غرزك حتى تحل بدمك فى محله ، لابد أن يحافظ على الكنز "** ، شعرت بألم يطرق جبهتى **" وماذا يعنى هذا إذن ؟ "** ، فإكتسى وجه الشيخ برصانة آسية **" يعنى ، بما أن الرصد قد إنفك ، ولأجل أن يحافظ الراصود على دفينته .. لابد أن يحل محله حارس أخر ليحافظ على الكنز بدلاً منه ، وهذا لن يتم بحال إلا إذا قدم قرباناً جديدة من دم جبرين الدقاق ، وبما أنك هاهنا من دمه .. فلن يُخلى سبيلك حتى يُقيمك محله ، بسفح دمك طبعاً "** ، حينها شعرت بنظرات مريم تُغرقنى شروداً وخوفاً ، بينما تحولت أنا ببصرى جهة البئر برمقات متقدة حماساً .. كأنما قد نبتت برأسى فكرة ، فنطقت دون أن أفكر **" الكنز .. لابد أن يخرج الكنز من البئر بأسرع ما يمكن "** .

حينها رمتنى مريم برمقة إستنكار **" هل جُننت .. ماذا تقول ؟! "** ، فإستمهلها الشيخ **" على رسلك ، لنرى ما يرمى إليه الرجل "** ، ثم عرج نحوى **" أى ما كان ما تفكر به .. فإن الأمر شديد الخطورة "** ، فنظرته بإبتسامة مضطربة **" إذن أعتقد أنك فهمت مقصدى "** ، فتذمرت مريم **" أى مقصد هذا الذى يحدوك للنزول إلى البئر ؟! "** ، فبادرتها **" ما بالك تتصيدين حديثنا إرباً ! ، هنيهة أناة وستفهمين ، أقصد أنه طالما أن الدفين هو بيت القصيد ، إذن لو إستطعنا أن ننتشله من البئر ، قبل أن يعثر هذا المسخ على قربان الحارس الجديد ، نكون قد تخلصنا من الراصود ذاته للأبد ، فمما فهمت أنه إذا ما أهمل أحد الوكلاء فى حراسة دفينته .. يتلقى عقاباً رادعاً من كبراء الجن ، إما السجن مدى الحياة أو القتل ، وهكذا بغياب الراصود تكون خرافة الرصد قد إنتهت برمتها "** ، فإبتدرتنى مريم **" يبدو أنه قد نسيت أنك أنت أصلاً الشخص المنتظر ، القربان الجديد الذى يبحث**

الراصود عنه ، ولا أعتقد أنك تتأمل أن يلتهى عنك .. ريثما تتمكن من إنتشال هذا الشيئ الراقد ببطن البئر " ، فأخرجت الخاتم من جيبى " **وهل تظنين بدون هذا يستطيع الراصود أن يُسلم الدفين لحارس جديد .. حتى وإن كان الشخص المنتظر بين يديه ؟! "** ، فأخذتها حملقة مشوبة بإبتسامة باهتة ، وما كادت تحيد بعينها جهة الشيخ حتى إنساحت أساريره بغتة ، وفى لمحة خاطفة ، متحولة إلى صورة الراصود بإبتسامته المستفزة وعينه المسيحة ، فجفلت أنا ومريم .. قبل أن يعود الشيخ لصورته قائلاً " **يا بنى ، الأمر ليس بهذه البساطة "** .

كان الأمر من الخطورة أنه لا يكفى فقط أن نعرف أنها أحد أفانين الراصود ، فإنطباع صورته على صورة الشيخ إشعار خطير بأنه حاضر بيننا ، وقد سمع أكثر سِرارنا ، وهذا أيضاً ما كنا نعرفه ، إذ لم يكن من الحصافة أن يخايلنا ظن بأنه سيغيب عن جلسة يحضرها قربانه الجديد ، لكن أيٍ من هذا لم يكن يشغل بالنا بقدر ما شغلنا أمرين ، الأول هو الحفاظ على الخاتم ، وكان أيسرهما ، فطالما أن الخاتم فى يدى فلن يتمكن الراصود من سلبه ، فوجود الخاتم فى يد القربان يبطل كل وسيلة لنهبه ، أو لإجراء طقس يعنى بفك الرصد .. إلا إذا كان القربان نفسه مغيَّباً .

أما الأمر الثانى فهو السبيل لإلهاء هذا المسخ حتى يتم إستخراج الكنز ، ويبدو أن الشيخ كان لديه الوصفة الناجعة .. لكنه أرجأها لوقتها ، وهذا ما فهمناه منه دون أن نحتاج حتى لإماءة بطرف إصبعه ، فكل حركة أو إختلاجة كانت مرصودة ، ومما كنا نعرفه أيضاً أن قدرة الجن على التفكير وإستيعاب الأمور قاصرة حيال قدرة البشر ، وهذا ما جعلنا نراوغه بالسلاح ذاته ، وقد بدأت مريم اللعبة مبكراً حين إحتجت " **هيييه .. كفاكم لعباً بالألفاظ ، أنا بينكم ، أفهمونى ماذا تقولون "** ، بالكاد قاومت إبتسامة لحوحة أتت على طرف شفتىّ .. قبل أن أقول بوجه تكسوه جدية مصطنعة " **هى ذاتها الغلطة القديمة التى وقع فيها اليهود الأربعة .. فتسببوا فى تجديد الرصد ، وأسقط فيها الراصود حين نسى أن يأخذ الخاتم .. بعدما إنفك رصده ، هذا الخاتم .. هو خاتم الكنز ، مفتاحة ، بدونه لا يملك الراصود القدرة على تسليم الدفين لحارس جديد ، بالضبط كما حدث**

لليهود بدونه حين لم يتمكنو من فك الرصد ! " ، فرمتنى مريم بنظرة أنثوية وغيرة ، مما قد يُجن الجن نفسه دون أن يفهم مغزاها ، ولتكتمل الحبكة توجهت إلى الشيخ **" ولأجل ذلك ، هذا هو الوقت المناسب لإستخراج الكنز "** ، حينها لم نحتج لكثير من الوقت لنتخيل حجم الخبل والربكة التى ضربت رأس الراصود .. فلقد هبت فورة ترابية هوجاء تطرق البئر من يمينه إلى يساره ومن يساره إلى يمينه ، ثم كرّت نحونا لثوان زهيدة وما كادت حتى فرت إلى البئر ، جارة فى ذيلها مئات من قطط كاراكاو ، مسيحة العين ! .

.....

فى غداة اليوم التالى ، كان النهار عادياً برغم أن الحدث غير عادى ، ناس الواحة متآزفين بقضهم وقضيضهم حول البئر .. كأنما سامر السمادونى قد عاد من جديد ، لكن مشهد الرجال القابضين على حبل ، مربوط طرفه الأخر حول خصرى ، يقول شيئاً أخر ، حينها كانت مريم والشيخ ياسين إلى جوارى يرميانى برمقات يغلفها الشك .. مما عساه قد يتبع هذا الجنون ، لم يكن لدىّ مزيد من الوقت لأبرر لهم .. فالمسحوق الذى غمرنى به الشيخ يبطل مفعوله بعد زهاء ساعة ، قال لى حينها أنه مخلوط مُنفر للجن ، وأن الراصود سيلتهى بالبحث عنى بين الناس دون أن يخامره ظن بأننى هذا الواقف أمام البئر ، وتلك كانت وصفته الناجعة لتشتيت إنتباهه ، غيض من فيض ما يحوذه دهاة البدو .

بعد أن شددت على الحبل ، وإستوثقت من تمام كل شيئ ، تحركت فوراً جهة البئر ثم رسمت نقش (الجمجمة والثعبانين) على الجحر ، فى البداية ساورنى الشك أن الأمر لن يفلح كما حدث من قبل ، لكن الحجر تزحزح ساقطاً إلى جانب البئر .. فإنفتحت الهوة ، فألقيت بنظرة عابرة ، ربما تكون الأخيرة ، إلى وجهى مريم والشيخ المشوبان بصموت مريب ، ثم إعتليت حافة البئر ، قبل أن أجذب الحبل مرة أخرى لأتأكد أنهم يشدون عليه بقوة ، ثم بدأت أتدلى ببطئ ، وفى اللحظة التى بدأت فيها شعيرة جزع تنبض فى صدرى ، وراح الوقت يداهمنى بدقاته العكسية .. وجدت قدمى تحط على نتوءات حجرية متتابعة فيما كانت يدىّ تتشبثان بالحبل ، وساورنى ظن

سيئ حينها .. إلى أى مدى سيطول هذا الحبل ، فى كل خطوة كنت أحاول كبح جماح هذه الأفكار المثبطة ، أدفنها فى غور كل تجويف يظهر أمامى وأغلق عليها بمشط قدمى ، وما يتملص منها مثل سمكة تجاهد لتحيا أسحقها على أقرب نتوء يحط إليه كاحلى .

حين ناهزت الأغلال الحديدية والحجرين المعلقين بوسط البئر ، رميت بنظرة فاحصة لأسفل ، الجوف المظلم لا يُنبئ بقاع قريب ، فتعلقت بالأصفاد المدلاة بإحدى يدىّ .. فيما ظلت الأخرى متشبثة بالحبل ، خشية أن أفقد أثره برغم أنه مربوط بخصرى ، لكنه الذعر الذى تعززه الجهمة كلما ساحت قدمى منحدرة لأسفل ، وتطّرد كلما زاد العمق ، حتى جاءت النقطة التى إنعدمت فيها الرؤية تماماً .. وبات كل شيئ مظلماً ، حتى أضحت فتحة البئر فى الأعلى مثل بقعة ضوء فى سماء معتمة ، حينها فقط تشرس الخوف وبدأت أتخبط فى كل شيئ ، الحجارة والنتوءات والسلاسل المدلاة ، كان رجيع قعقعتها فى الدياجى مثل غمغمة أشباح تتناحر ، أرجفت قلبى كلما إرتطمت ، وقتئذٍ ، تلاومت كثيراً .. كيف أنى لم أخذ شعلة معى قبل أن أهم بالنزول .

ترددت كثيراً ، كلما إزداد البئر عمقاً شعرت بغواية الإستسلام ، وإنتزعتنى رغبة فى الصعود .. قبل أن يتهشم حجر عند قدمى فيسقط مرتطماً ، كان الصوت القريب إشارة لا ريب فيها أن القاع على بعد خطوات ، وفى اللحظة التى أخذتنى فيها الحماسة ورحت أنتهب المسير بخطوات دراك تساءلت .. كيف لى أن أعثر على الدفين فى خضم هذه الغبشة السائدة ؟ ، كيف سأراه ؟! ، وهذه المرة كان من الصعوبة بمكان أن أسحق الفكرة بطرف كاحلى ، وما كدت أفكر فى أن درك البئر ربما يكون زلقاً أو موحلاً ، تنغرس فيه قدمى ، حتى شعرت بأرض ثابتة تستشرفنى ، إنه القاع أخيراً .

حررت قدمىّ فحطت فى ثبوت ، كان أصل البئر جافاً ومتشققاً بعكس ما ظننت ، ولكن " **ماذا بعد ؟!** " ، سؤال مصيرى طرأ بغتة .. فداهمنى على أسوأ ما يكون ، حدقت لأعلى فى الفراغ الإسطوانى المظلم .. مثل جرو سقط فى قاع شجرة معمرة ، وقبل أن تتناهبنى الهواجس من جانب إلى

جانب .. برقت فى عينى ورقة الذهب عند زاوية البئر ، تلك التى سقطت بعد أن تلوت طلاسمها ، أو هكذا ظننت ، حلقت حروفها الملغزة ، منتثرة فى العتمة ، مثل فراشات مشعة ، برقت لتوها .. كأنها كانت تنتظر هذا الموعود الذى سيحط يوماً ما بهذه القاع القاحلة ، وما كدت ألتقطها حتى تعثرت يدى فى لفافة صلبة ، يبدو من ملمسها أنها مصنعة معدن مطروق ، هو بعينه (دُرْج قمران المفقود) ، كدت أتطير فرحاً .. قبل أن أكتشف أن رائحة المسحوق بدأت تخبو رويداً ، فعرفت أن الرحيل قد أزف .

سريعاً ، طويت ورقة الذهب لأكثر من طية ثم دسستها فى جيب صديرتى ، ثم نزعت قميصى ولففت الدُرْج النحاسى بعناية .. وربطته من أكمامه من كتفى الأيسر إلى جانب صدرى مثل حزام حقيبة ، وبوتيرة أسرع تحسست الحبل الملفوف حول خصرى مستوثقاً من متانة عقده ، ثم جذبته لمرتين حتى أنبئ الرجال أننى فى طريق الصعود ، كما جرى الإتفاق ، فشدوا على الحبل حتى إنتصب عوده المرخى وبدأ يحملنى بروية لأعلى ، فإنتقلت فى خفة من حجر إلى حجر مستعيناً بالسلاسل الحديدية المدلاة ، تلك التى كانت فى السابق تأسر ساكن البئر لأكثر من ألف عام ، آنها سمعت بلبلة بالخارج لكنى لم أميز منها حرفاً ، كنت أراقب بقعة الضوء وهى تتسع رويداً ، وحين زادت همة الرجال بغتة .. ألفيت جسدى ينطلق لأعلى بأسرع مما كنت أتصور ، حتى أنى تجاوزت الحجرين المعلقين إلى أن تشبثت يدى بحافة البئر فى أقل من دقيقتى زمن .

خرجت والفرحة تتقافز على وجهى ، وقبل أن أفض نطاق الحبل عن خصرى .. نزعت اللفافة ثم أفردتها ، ووقفت بزهو أمام مريم والشيخ ياسين " **الكنز يا شيخ ، ها هو الكنز يا مريم** " ، فرمقنى الشيخ بنظرة يملؤها إبتسامة عجب ، وقرأت فى عينه ذاك السؤال الفطرى " **كيف فعلها ؟!** " ، وما كاد الرجل حتى خبت إبتسامته وتجهم بغتة ، حينها قرعت ظهرى قهقهات ضابعة ، أعرفها ، فإنطبق صدرى وشعرت بحلقى يجف بغتة ، أنفاسى تدنو وتنسحب مثل موجات البحر ، كأنها كر الزمن ، وقبل أن ألتفت .. إذا بالدُرْج النحاسى يتسربل من بين أصابعى وقد تحول

إلى حفنة تراب ، وفى الوقت الذى كنت أحملق ذاهلاً إلى يدىّ الخاويتين .. تناوحت إلى أذنى صرخات مدوية ، تكثفت ثم طافت إلى السماء ثم سقطت كوابل من الرصاص ، تضربنى من كل جانب ، بفحيح ضاج كأنه لفح طائرة نفاثة ، كل ذلك قبل أن أرفع عينى فأجد أهل الواحة شرازم مبعثرة بأرجاء الجبل ، ظلت حباتها تنفرط حتى خبا الصراخ .. فما عاد منه سوى هسيس خافت ، حينها غامت عينى .. وبدأت أدراج الذاكرة تتفتح واحداً تلو الأخر ، وتلفظ نتف وساوس متناثرة ، عبارات مختلطة راحت تتصعد من القاع إلى قشرة رأسى جملة واحة " **يا بنى الأمر ليس بهذه البساطة ... أى ما كان ما تفكر به فإن الأمر شديد الخطورة ... سيظل فى غرزك حتى تحل بدمك فى محله ... فك الرصد سيجلب المهالك للواحة ... لابد أن يحافظ على الكنز ...** " .

أخذتنى الصدمة لفترة فائضة عن مدتها .. فأقمت عينى متأخراً إلى عينىّ الشيخ ياسين الجاحظة ، أستقرء صحة ما رأيت وسمعت ، ما أردت فقط سوى أن أتأكد وليكن ما يكن ، لكنى لم أقرأ شيئاً يُفسر .. ليس سوى غمغمة أشد تلغيزاً من طلاسم وخرافات ورقة الذهب ، فإستدرت فى جمود كأنى أحاول قلقلة حجر .. فإذا هو حقاً أمامى ، مسخ كاراكاو وهِرُّها الدميم ، لم يُمهلنى هنيهة جفول يختلج فيها وجهى ، إقترب فى سفور جم .. إكتشفت معه مدى ضآلتى وزهد حيلتى ، وفى الوقت الذى شعرت فيه بعقلى يتدمر ويتفتت قطعة قطعة ، دنا منى هازئاً " **إنتهى وقت الهذر واللعب .. لكل شيئ حد ، حتى اللعب ذاته له قوانين .. وقد أخذت أكثر من وقتك ، حان وقت الجد** " ، ثم تلفت إلى الشيخ ياسين " **ماذا دهاك ؟! .. ألم تخبره بالمهمة المطلوبة منه ؟** " ، فتمتم الشيخ " **لعنك الله من مسخ دميم** " ، لكن الكلمات كانت قد خرقت أذنه فإنفجر بقهقهة مكروبة .. ثم تجهم بغتة ، إلتصق بالشيخ مردداً " **لعننى الله ! ، اللعنة هذه هــ ...** " ، وما كاد يتم عبارته حتى لفحه الشيخ فى وجهه بمسحوقه المنفر ، فترنح الراصود راعداً ، وبدأ جسده يتفصد دخناً .. حتى سقط بينه وبين الإغماء برهات .

حينها ، ودون مقدمات ، هبت مريم نحوى فازعة .. ثم إنتزعت الخاتم من إصبعى ، وإذا بها بغتة تدفعنى بيدها بما أوتيت من عزم .. فتقهقرت للوراء عدة خطوات مكروبة ، لأسقط بالأخير داخل البئر ! .. ساحباً ورائى ذيلاً من الحبال ، ثم إقتربت من الحجر الراكن إلى حافتة ، فرسمت النقش على صفحته ، فتزحزح لأعلى حتى إستوى وإنغلقت الفغرة ، وفى اللحظة التى إستدارت فيها إلى أبيها صارخة " هيا يا أبتى .. " كان الراصود قد رفع رأسه ثم رماها برمقة نافثة ، نفذت إلى رأسها كسهم مارق .. فسحرتها ! ، هزتها رعشة صدمة .. ترجلت على إثرها جهة الشيخ بأقدام راجفة ، بالكاد تحملها ، كان لايزال محدقاً جهة البئر ، تعلقت بساعده من الخلف .. وعلى وجهها مخايل وهن لا يُفسر ، وإذا بإبتسامة بليدة ترتسم على شفتيها بغتة .. فسحبت سيف مقـوس من جانبـها الأيمن ، رفعته فى وجه الراصود بحركة خاطفة .. ثم نحرت رقبة الشيخ من الأمام إلى الخلف ، فسقط مضرجاً فى دمائه ! .

حينها قام الراصود من رقدته مثل هبوب راكدة إندفعت ، ثم غيرت إتجاهها ، دنا من جسد الشيخ المسفوح " **ها قد أتيت بأخرها** " ، وإذا بأسدين ضخمين يتملصان من جانبيه .. وثبا إلى جثمان الرجل وراحا يفترسانه ، وما كادت مريم ترى هذا المنظر البشع .. حتى تحجرت فى محطها مثل عمود ملح ، ثم سقطت مغشياً عليها ، وقتئذٍ ، إقترب الراصود بخيلاء ، ناظـراً إلـى عينىّ الشيخ المحملقة إلى لاشيئ ، ثم تمتم فـى أسى " **تأنيتك حتى لم يعد بى أناة ، واخسارتاه يا شيخ كاراكاو !** .. " .

للحظة ، وقف الراصود ممعناً فى الجسد الممزع بين براثن الأسدين .. قبل أن يتلفت حوله ، فيكتشف خلو الساحة إلا من مريم الراقدة خلفه ، فهرع كالمجنون نحو البئر والأسدين فى إثره ، دخلا فى جنبيه دراكاً مثل دفقتى هبوب إصطدما به فإندثرا ، لوى عنقه دائراً ببصره .. ينثر نظرات ذعر موتورة ، كأنما تأخر هو الأخر حين إستغرقته الأحداث ففاته الأهم ، إستفاق بعد أن ضاع القربان وتبدد الخاتم وأُقفل البئر بحجره التليد ، الخاتم الذى لو لم تدسه مريم فى صدرها لعثر عليه ، لم تجذبه روحانيته برغم

أن رصده معقود بالطلسم الموسوم على فصه ! .. ولكن أنَّ له أن يشم ريحه وقد غمرته مريم بمسحوق أبيها السحرى .
رفع رأسه إلى السماء مكموداً .. ثم صرخ صرخة مدوية تفوح ألماً وغيظاً ، ماذا يجدر به أن يفعل وقد فات أوان البدء من جديد ؟ ، إستدعى فرسته فى رعونة .. فجاءته محلقة تجر عربتها البائسة ، وما لبث حتى ظهر على متنها كشبح طائر ، ثم طاح فى طرقات الواحة راعداً فى سعار محموم ، مشهد لا يتكرر كثيراً ، طاف جميع دروبها فى لمح البصر ، وبالأخير راح يعوى كذئب مصطرع فقد جراءه .
حينها إنتفضت مريم من مرقدها ، صراخه المأزوم كأنه كابوس فى رأسها ظل يقلقلها حتى فاقت ، وما أسوأ ما أفاقت عليه ! ، جثمان أبيها مِزعاً متناثرة ، ليس إلا رأساً وعيناً محملقة ، جثت إليه تبحث عما بقى من الشيخ ياسين .. فلم تجد شيء سوى أثر وحشية غاشمة ، هى ذاتها غير منزهة عن أول ناب إنغرس فيها ، فضربتها صدمة عنيفة .. فزعت على إثرها راكضة إلى غير وجهة ، فى اللحظة ذاتها التى كان ذيل الكلب عند سفح الجبل متخفياً .. يرقبها فى حذر ، فلحق بها .

(١٧)

حين تسقط فى بئر سحيقة منسية .. ليس بمكان أن تسأل عن المعنى الحقيقى للخـوف ! ، لا لأن ثمة من يتربص بك .. ولكن لأن البئر ذاتها مجلبة للرهبة ، وذاك أن رؤية بعض الأشياء عن كثب .. قد تكون هى الخوف بعينه ! ، حين إرتطم جسدى بالأرض الموحلة ، منغرساً فيها على أسوأ ما يكون ، عرفت أن القاع التى لامستها من قبل لم تكن للبئر ، وللحق لا أعرف للساعة ماذا كانت بالضبط ! ، فما إن ساختا ساقىّ لأنصافها فى أوحال الطمى حتى إجتاحت أنفى رائحة عشبية .. قبل أن أنكفئ على وجهى سائحاً إلى ممر جانبى لم أره من قبل ، جندل حجرى كأنه ممهد فيما يشبه النفق ، حينها ، وفـى لحمـة الظلمة الراسخة كأنها بحر أسود ثقيل ، كان من الصعوبة بمكان أن أفكر لم زجت بى مريم إلى هذه القاع ، خاصة وقد إنقطعت كل سبل النجاة جملـة واحدة ، بعد أن سقط الحبل متكوماً إلى جوارى ، ولا سبيل لمناهزة أول حلقـة للأغلال الحديدية ، حتى وإن كان .. فإن البئر بالأساس أُغلقت .

الخواء المظلم كأنه غيمة كثيفة .. تسحق من تغشاه إلى قاع محيط معتم ، تنبش فى روحه لتتحرى عن كل ساعة عاشها ، وكل كلمة قالها ، وبرغم أن فكرة البحث عن سبيل نجاة عبر النفق قد تبدو مجنونة .. لكنها لحظة لا يُدرك فيها حقاً ما هو العقل وما هو الجنون ، فوسط هذا العبث والسبل المُتيهة .. لا يملك الفرد سوى الإصخاء لمرور الزمن ، بحثاً عن موضع قدم وإن كان محض شبر ! .. يمد به لحظة واحدة فى ساعته الآنية التى ربما تكون هى الأخيرة ، هنا لا تملك سوى أن تحبس أنفاسك مرغماً ، تصغى وتصغى .. برغم ألمك الثقيل حد الصمت ، لهذا كله كان النفق سبيلاً ناجزاً لفض حدة الوجع والكبت ، وربما فقط لقتل فكرة الموت وحيداً فى أحضان هذا التيه والضياع ! .

بمجرد أن دخلت إلى النفق بخطوات وئيدة شعرت بالغيوم تتلاشى ببطئ ، تنقشع شيئاً فشيئاً ، وما كاد الوقت يمر حتى سادت العتمة تارة أخرى .. كأنه ظلام منتصف الليل ، كان محض شعور يعابثة الخوف ، هذا اللعين

الذى يمص دمائك بمضى الوقت كما يمص الزمن شرايين العجائز ، مع كل خطوة كنت أخطوها .. يطرق أذنى حفيف شيء يزحف ، وكلما تلفت لا أرى سوى العتمة ، وفى لحظة شعرت بشيئ يتحرك ، حملقت ، فإذا ببقعتى نور فى حجم حبتى زيتون تقتربا بروية مريبة ، قادمتان من غور النفق البعيد ، وما إن إقتربتا أكثر ، فبديا كأنهما لحيوان أسود فى حجم كلب أو قط ، حتى سرت فى بدنى قشعريرة ، وبمرور نصف الدقيقة ، وحين إستحالتا البقعتين إلى واحدة مسيحة ، والأخرى تتوسطها نقطة مثل حدقة عين .. لم يكن من الصعوبة بمكان أن أوقن أنه (قط كاراكاو) ، ظل يتسحّب ببطئ مستخدماً حركات السنوريات الخليسة حين تعاين فريسة ، فشعرت بعظامى تتكسر عظمة عظمة ، ثم تشكلت أمامى دوائر ملونة تكبر وتتداخل سابحة فى الفراغ .. فلم أعد أعرف إن كان هذا الشيئ يقترب أم يبتعد ، لكن عينه البارقة التى تتضح رويداً تؤكد أنه يقترب ، حينها تصلبت بغتة ، وشعرت بركبتىّ تصطكا .. قبل أن ألمح فرسة جبرين الدقاق راكضة بإتجاهى من عمق أبعد ، إستطعت تميزها بفضل وبرها الناعم الذى تنتقل عليه الظلال كلما تحركت ، وهالة ضوء غريبة كانت تحيط بجرمها اللاهث .

ظل رقع حوافرها يتردد ويقترب ، والقلق فى صدرى يتفاقم .. حتى بدأت أترنح إلى جانبى النفق فى سعار ملحوظ ، فكرت فى الرجوع عدواً إلى البئر .. لكنى أحسست بشلل جعل ساقىّ تلتصقا بالأرض ، والقط على ديدنه يقترب بتؤدة غير عابئ برقعها خلفه ، حتى حانت اللحظة التى باتت فيها الفرسة على بعد خطوات ، فوثبت بغتة .. فتشرثر القط أسفلها فى الفراغ مثل تبر براق تبعثر فى الهواء ، فتجاوزته فى وثبتها ساقطة فوقى .. لتنذرى هى الأخرى مثل هبة غبار قبل أن تحط إلىّ ، ثم إنقطعت الأصوات فجأة وساد هدوء قاتم .. لأجد نفسى منطرحاً على الأرض ، وقد إنفلتت عنى صرخة صبيانية مثل صغير داهمه تيس ، فألقمت حلقى حجراً فى خذى وخجل ، قبل أن أنتفض بغتة .. حين لمع فى عينى شيئ أخر يبرق بأخر السرداب ! .

أمعنت النظر ، البريق ثابت لا يتحرك ، ربما كان حيواناً جالساً ، ولكن ماذا عساه ينتظرنى بعد قط أعور وفرسة رعونة .. كأن بينها وبينى ثأر ! ، برغم

ريبتى وخوفى الشديد لم أطق ، تحركت بخطوات هادئة كان البريق خلالها يكبر .. حتى إتضح أنه ليس بحيوان ، كأنه حجر مصقول ، دنوت نحوه بخطو حثيث .. لأجد قربة من الخزف مدهونة بمادة برَّاقة كالتبر ، مطمورة عند حائط سد بنهاية النفق ، كانت مغلقة بسدة مختومة بالجمجمة والثعبانين ، رفعت غطائها فإذا هى تحتوى على لفافة نحاسية مصقولة تتهشم إلى جذاذات كلما أفردتها .. تختلف كثيراً عن تلك التى عثرت عليها فى المرة الأولى ، ولا أعرف من أين أتيت بتلك الثقة وسط هذه الكومة من الوهم والضلالات ، قلت لنفسى " **حقاً .. هو بعينه دُرْج قمران** " ، بالأخير لم أذعن لهذه الهواجس ، وضعت اللفافة وأغلقت عليها ثم حملت القربة ، تلفت حولى ، كان النفق الذى تفرع إلى سردابين على جانبيه مضاء بضوء خافت يتسلل من مكان ما ، خيط أحال الظلمة الحالكة إلى غبشة مضببة .. سمحت لى برؤية الجدران المنقوشة برموز وطلاسم غريبة ، ترددت لبرهة محدقاً عبر السردابين يميناً ويساراً .. ثم رميت بنظرة عابرة إلى اليمين ، لكنى إستدرت ثم سرت إلى اليسار دون أن أفكر .

قطعت شوطاً ليس بالمديد عبر السرداب الأيسر إلى أن إنتهى إلى ظلمة وحائط سد ، فعدت أدراجى حتى ناهزت مفترق النفق ، ثم دخلت إلى السرداب الأيمن ، لم يكن بالعتمة ذاتها التى سادت السرداب الأيسر ، إلا أنه بعد برهة من التعرج تفرع بغتة إلى سلسلة من الأنفاق المتاهية .. إستحال معها الرجوع إلى نقطة مررت بها من قبل ، فكلما سرت فى أحدها وجدته مسدوداً ، فأكرّ راجعاً حتى أعثر على ثغرة أو عطفة أبدأ منها من جديد ، لم أكن أتخيل للحظة أن بئر كاراكاو يُفضى إلى كل هذه المسارات ، بالنهاية أفضى بى المسير إلى نفق ممتد ، كلما قطعت فيه شوطاً وجدت الطريق يطول ويتعرج دون فروع أو نقاط سد .. حتى واتتنى لحظة وقعت فيها عينى على بقعة مضيئة عند عطفة فيما بدت أنها أخر النفق ، فركضت نحوها كجرو مسعور .

كان الأمر من الغرابة أن أفضى بى النفق إلى ثغرة تؤدى إلى شارع قديم ، تلفت حولى فى شده .. فلم يستغرقنى الوقت كثيراً حتى تذكرت أنه الحى

الفقير الذى سكنته لفترة فى موناكو ، آنها كنت مقيماً فى فندق (**La Ronza Hotel**) ، أحد النُزل المنسية ، سيئة السمعة ، التى تنتشر فى مثل هذه الأحياء المنزوية عن صخب المدينة ، وبرغم الصدمة التى جمدتنى للحظات محدقاً فى إستنكار إلى الأبنية العتيقة .. لم أتوقف ، جسرت الشارع رأساً حتى ناهزت منتصفه ، فمهما كان ما يحدث لن يكون أسوأ من السير عبر سردايب ضيقة تحت الأرض كأنها حجور فئران ، رميت بناظرى ، الأجواء هادئة والخواء يخيم على كل شي ، بدى الحى كأنه مهجوراً ، والشارع الطويل ينزف صمتاً كأنه جرحاً غائراً فى جسد المدينة ، تضيئه أعمدة طاعنة فى العمر لا ترسل سوى أضوية مضببة ، لا سيارات ولا مارة ، والحوانيت مغلقة على الجانبين ، ليس إلا صمت يغلفه أصداء الليل المرعبة .. نعيب ونواح ومواء ، وهمس خافت يتردد بين الجدران ، آنها شعرت بوخذة جفول فرحت أتلفت فى فزع ، فى أجواء كهذه .. ليس من الصعب أن تتخيل أن ثمة أشباح عالقة خلف هذه النوافذ العمياء ، المحدقة إلى الفراغ ، أو تمر بجانبك دون أن تراها ! .

تمشيت لبرهة بخطو راجف ، وعين لا تكل من الإلتفات ، فى كل خطوة كنت أسمع رقع أقدام كأن أحداً يسير خلفى ، شيئاً ما ، فى مكان ما ، يراقبنى ، يُصغى إلىّ ، يحبس أنفاسه ويرصد من مكمنه جميع حركاتى ، كانت الأوهام من الضخامة والتجسد أن جعلتنى أشعر بصقيع يفتت عظامى رعباً ، فحررت ساقىّ ثم حلقت راكضاً ، أحسست أنهما يعدوان وحدهما ، آنها مزقنى شعوران متناقضان ، ما بين إستبشار برائحة المدينة التى شممت عبقها أخيراً بعد عام ونصف من التيه فى الصحراء ، وخوف من هذا الإنتقال الخرافى .. الذى إن دل فإنما يدل على السقوط فى بئر جديدة مركومة بالوهم والوهلاوس ، عدوت لاهثاً عبر الشارع الطويل حتى توقفت عند ناصية جانبية ، تلفت خلفى فلم أجد سوى قتامة مُقضّة ، فعرجت من الناصية إلى شارع أخر لم يبد أنه يختلف كثيراً .

هى المتاهة ذاتها ! ، ظلت الحارات تتقاذفنى على نحو مريب ، كلما خرجت من درب أفضى بى إلى درب أخر ، الشوارع كلها كأنها مسارات متداخلة يؤدى بعضها إلى بعض ، كادت رئتاى أن تنفجرا إعياءاً ، قبل أن أتوقف

بغتة حين تردد فى أذنى صوت غادة متسربلاً من بين الأبنية " **يوسف ..** " ، فتلفت ، فإذا بأصوات مختلطة تنبع من مكان قريب ، إقتفيت أثرها ، فإنتهيت إلى صندوق قمامة مرتكن إلى حافة الرصيف ، ليتضح أن الأصوات صادرة عن هاتف قديم الطراز ملقى إلى جوار الصندوق ، وفيما كانت الأصوات مشوشة ، أصغيت ...

غادة : " **كم مرة حدثتك بأنى لا أحب مثل هذه الأشياء** " ، أم غادة " **يا قرة عينى هذا ليس بحديثى إنما هى توصيات الطبيبة** " ، غادة " **لم أكن يوماً بجبانة ، فلا تنعتونى بها** " ، يوسف " **أنا بجوارك ، لن أخلى سبيلك مهما جرى ، لن أتركك** " ، غادة صارخة " **ليتكم مرة تفهمون ما أعانيه** "

ثم تحول الصوت إلى مجرد بغبغة فوضوية قبل أن ينقطع فجأة ، فإلتقط الهاتف وقلبت أزراره بكبسات عشوائية .. محاولاً أن أُنبض وشوشاته تارة أخرى ، لكنه لم ينطق ، فأضأت مصباحه ثم تلفت ، توقفت لبرهة حائراً قبل أن أقطع الشارع إلى غير وجهة ، تتناهبنى لعدة دقائق همسات الليل المريبة النابعة من اللاشيئ ، وفيما كنت قد إجتزت عدة حارات جانبية حتى عرجت من ناصية شارع رئيسى .. طرق أذنى صوت أنين أنثوى قادم من أحد الباحات الهابطة عن الطريق ، كأنها نهنهة فتاة ! ، ترجلت فى هدوء حتى عبرت الشارع إلى رصيفه الأخر .. وإذا بى أرى غادة أمام أحد المحلات الواطئة مغترقة بالدموع ، دموع خوف وغضب وعجز ، ما إن رأتنى حتى ركضت نحوى وإرتمت بين ذراعىّ ، صائحة " **أين ذهبت وتركتنى ، إنتظرتك كثيراً** " ، فحملقت مندهشاً " **تركتك ! ** " ، لكنها أخذت بيدى ثم تحركت فى لهاث " **هيا بنا من هذا المكان يا يوسف ، كفانا ما جرى** " ، إلا أنى تحجرت فى مكانى " **من أنتى ؟!** " ، فردت غير عابئة " **بربك هل هذا وقته ؟! ، ستظل تحدق فى وجهى كثيراً هكذا ؟ ، هيا أسرع** " ، ثم جذبتنى بقوة ، فلم أدر إلا وأنا أركض معها بحماس غريب .. حتى بت أنا الذى أسحبها إلى أن ناهزنا نهاية الشارع ، ثم عرجنا من ناصيته إلى شارع أخر .

توقفنا أمام باحة فندق (**La Ronza Hotel**) ، ثم دخلنا عبر الباب

الموارب إلـى الردهة الداخلية ، الظلمة والخواء يوحيان بأن الفندق مهجوراً ، حينها نظرت إلى غادة " **فلتبقى هنا ريثما أعود** " ، فأمسكت بيدى " **هل ستتركنى مرة أخرى ؟! ** " ، فنظرتها مرتبكاً كأن شخصاً أخر هو الذى يتكلم " **لن أتركك ، بل سأبحث عن مخرج من هذا المكان** " ، ثم تركتها راكضاً عبر الشارع ، وقتئذٍ تصفحت غادة البهو المظلم فإستشعرت بخوف عميق ، فخرجت ورائى صائحة " **لا تتأخر يا يوسف** " ، ظلت ترقبنى حتى إختفيت عند الناصية البعيدة ، ثم إرتكنت إلى الباب تحدق بأرجاء الطريق فى وجل وإرتياب .

.....

أثناء ذلك ، وفيما كانت مريم بعمق الصحراء تسوق خلفها ناس الواحة ، هاربين من الراصود الذى ظل فى إثرهم من درب إلى درب .. حتى تملصوا منه ، إذا برجل قد أنهكه السير يصيح بصوت مكروب " **ألم تتعبوا ! ، إلى أين سنترحل هـذه المـرة ؟! ** " ، فإبتدرتـه مريـم قبل أن يؤلب عليها الناس " **لابد أن تبتعدوا عن الواحة قدر إستطاعتكم ، هو فى إثركم** " ، فعرج الرجل إلى ناسه قبل أن يرتد إليها ، ينظرها فى عجب " **نبتعد ! .. ألن تأتين معنا ؟** " ، فلم تأبه مريم وإستدارت بسير دءوب جهة طريق العودة " **لابد أن أرجع ، لا ريب أنه قلقل حجارة الجبل بحثاً عن يوسف** " ، فإستصرخها الرجل متلفتاً حوله " **وأين سنذهب بصحراء كهذه متغولة .. تعج بالمردة والغيلان ؟! ** " ، فأجابت دون أن تتوقف " **الصحراء أهون بكثير مما عساه ينتظركم فى الواحة الأيام القادمة** " ، ثم خلت سبيلهم وقد أخذتهم فورة تره وحيرة ، فى اللحظة ذاتها التى ظهر فيها ذيل الكلب يرقبها ، فلحق بها .

.....

بعد قرابة ساعة زمن .. عدت لاهثاً إلـى حيث تركت غادة ، وفيما تجاوزت الباحـة الخارجـية ثم ولجت من الباب باحثاً عنـها .. لم أجد لها أثر ، ناديت عليـها فلم تُجب ، ولعدة مـرات لم أتلق إجابـة ، فأخـذتنى فزعـة لا توصف .. خرجت علـى إثرها إلـى الشارع مكـروباً ، تلفت يميناً ويساراً .. لا أثر لها كأنها تبخـرت ، فهرعت إلى وطأة الأبنية المجاورة ، تلصصت

خلف الأبواب وعبر الردهات ، فوجدت أن جميعها نسخة مطابقـة لمدخل الفندق وردهاتـه ، حتى الواجهات نفسها كانت تحمل ذات التفاصيل علـى نحو أصابنى بإرتباك شديد .. تاه على إثره باب اللوكاندا ، فطفقت أتحرى اللافتات أعلى المداخل ، فإذا جميعها تحمل العنوان (**La Ronza Hotel**) ، ما هذا العبث ؟! ، وفيـما راغت نفسى " **أضعتها مرة أخرى** ؟! " شعرت بصدمة تضخ حممها فى رأسى ، رفض حاد يأبى وجود الفكرة حتى ، فرحت فى سعار أجوب الأبنية من باب إلى باب ، هاتفاً بإسمها ، متسائلاً .. أين تاه المكان ؟ ، دون إجابة ، فلوذت بمنتصف الطريق ، أتلفت حولى فى فزع ، قبل أن إكتشفت حقيقة أنى بالفعل أضعت غادة ! .

حينها ، ودون إرادة ..

إرتعشت ذاكرتى فيما كانت رأسى قد غصت بأفكار سوداء أتت لتوها ، أرجفها إنفجار حاد .. جعل المشاهد تتصاعد من القاع واحداً تلو الأخر ، كأنها تعيد تصحيح كل حقيقة أنكرتها ، وكل ما عشت أرفضه ، وقتئذٍ تطلعت لأعلى ، فإلتمعت السماء عدة مرات قبل أن تصفع عينى لافتة بحجم كفىّ يد .. مذيلة بالعبارة (مصحة الأمل للتأهيل النفسى) ، وإلى الخلف منها تجلس الطبيبة إلى مكتبها ، تقول " **لقد توقفت ذاكرة يوسف عند اللحظة التى ذلت فيها قدمه فزلقت ، أربع وعشرين ساعة فى بركة التماسيح ليست بالوقت الهين .. ناهيك عن صدمة الغرق** " لتظهر هذه الجالسة أمامها تقول فى أسى " **أليس ثمة حد لمعاناته ؟!** " ، فردت الطبيبة " **Flooding العلاج بالفيضان ... مواجهات مستمرة لكل شيئ من شأنه أن يوقظ الخوف داخله** .. " ، أنها شعرت بتصدع يُشرخ جدران رأسى ، كل شيئ يؤكد أنى صاحب الأزمة ، المريض .. وليست غادة ، إلا أنا ، وفيما كابرت وعاندت ، وساقتنى ضلالاتى ، أسقط جملة هلاوسى وأزمتى النفسية على روح حبيبة غابت ، ذهبت ولم تعد تملك حق الرد .

زاد الصداع فى رأسى .. فتأرجحت أفكارى المضطربة ، تداعت الذكريات محلقة حول تفاصيل وأحداث .. تنتمى إلى ماضٍ بعيد جاهدت لنسيانه ، تذكرت هذا القارب الذى كان يوماً ما يتأرجح فى النيل ، وعلى متنه إثنين ،

شاب وفتاة ، حينها كانت غادة تهز القارب مازحة .. فبوغتت بى أصرخ مستنكراً ما تفعل " **كُفى يدكِ سوف نغرق ، كفاكِ جنوناً** " ، وحين عاينت هذا الفرق البادى فى عينىّ .. نظرتنى ساخرة " **ما أجبنك ! ** " ، ثم إنفجرت ضاحكة ، مؤكدة أن الجبن أيضاً كان دوماً خصيصتى ، وليس من سمتها ، آنها ناهز صوتها الماجن إثنين عند حافة الطريق على الشاطئ الأخر .

حينها كنت عند الرصيف متردداً أخشى عبور الطريق الغاص بالسيارات اللاهثة ، فيما كانت غادة فى منتصف الطريق تصرخ فى فزع " **أسرع يا يوسف ، السيارات ستدهسنى** " ، لكنى كنت كلما تقدمت خطوة فوجئت بسيارة قادمة فأتراجع فى ذعر ، فنظرتنى غادة ضاحكة ، ساخرة من حالى البائسة " **ما أجبنك ! ** " ثم خلت سبيلى عابرة إلى الرصيف المقابل .

أما على سطح العمارة ، وحين سقط الهاتف فوق سقيفة المنور ، كانت غادة هى التى فعلتها ، برغم علمها برهابى الشديد من الإرتفاعات العالية ، وحين عجزت عن تبرئة ساحتى وظللت أحدق فى فراغ المنور فى وجل ، فلم أستطع النزول وجلب الهاتف .. أخذتها فورة صبيانية فتركتنى مرددة " **لا شأن لى ، ما رأيت صبياً أجبن منك ... جبااان** " ، وبرغم أنى هممت إليها محاولاً إيقافها " **غادة .. لا تغضبى ، ها أنا سأجلبه** " ، لكنها تملصت منى دون أن تلتفت ، ظلت خطواتها ترقع الدرج .. فتُفتت صدرى فزعاً وخوفاً ، حتى أنى بكيت خزياً كما لم أبك من قبل .

بينما فى آن أخر ، وفى لحظة عصفت بنفسى عصفاً ، فمزقتها ، كانت غادة تسير فوق سور سطح العمارة ، ضاحكة بنشوة ، وأنا واقفاً أمامها على مبعدة .. أنظرها برمقات تفيض خوفاً وهلعاً " **كفى يا غادة .. ستسقطين** " ، لكنها نظرتنى ضاحكة " **تعال ، لا تخف ، الأجواء هنا منعشة** " ، فضربنى توتر شديد " **كفاكِ عبثاً .. الهذر سيقلب جداً** " ، فحدجتنى بلحاظها " **ما أجبنك .. متى ستقتل هذا الخوف الذى يسكنك** " ، وإذا بها تترنح عند حافة السور .. متظاهرة بأنها على وشك السقوط ، هاتفة " **أغثنى يا يوسف .. سأسقط** " ، فأخذنى إرتجاف حاد " **حرام عليكِ .. رقأ دمى** " ، لكنها ظلت على عنادها إذ صرخت بغضب مصطنع " **أغثنى .. سأسقط يا بنى أدم** " ، فلم أدر بحالى إلا وأنا أهب إليها ، فتعثرت قدمى ، فدفعتها دون

قصد ، لتسقط من سطح العمارة إلى الأرض مارة بخمسة طوابق ، حينها كدت أُصرع ، لم مصدق أنها إختفت من أمامى بغتة ، وفيما ظهرت أمها فى اللحظة ذاتها ، فرأت ما حدث ، قُتلت ألف مرة وهى تنظر إبنتها الوحيدة تسقط من أعلى .. لترتطم بسيارة عند سفح العمارة ! .

الأن أعترف ، الأن فقط ..أنا الجبان ، أنا الذى قتلنى الرهاب من كل شيء ، لكن ما ذنبى إن كان لا أحد بالأساس يملك أن يتحمل أربع وعشرين ساعة فى بركة تعج بالوحوش ، تلك الواقعة التى وصمتنى بفاقة نفسية .. جعلتنى أرتعب حتى من عثاث الأرض ، وفى اللحظة التى حاولت فيها غادة إنتشالى من أوحال المرض ، حسب توصيات الطبيبة ، دفعت بها من سطح العمارة ، قتلتها فى ظهيرة هذا اليوم ، كان علىّ دوماً أن أتذكر هذا التوقيت إلى لأبد ، وفى قرار أكثر جبناً .. هربت ، وضبت حقيبتى ثم إنتهبت درج العمارة ركضاً ، آنها كان صوت أمها يقرع ظهرى **" إين إبنتى يا جبااان ، قتلتها يا جبااان "** ، ظلت صرخاتها تطن فى أذنى حتى بعد أن حملتنى طائرة ، لا تقل إلا الجبناء ، إلى فرنسا ، ضائعاً بين أحياء موناكو .. كحبة رمل تذروها ريح عاصفة هنا وهناك ، أينما شاءت ، والليلة ، وللمرة الألف .. أضعتها ، بددتها ، كما يتبدد العمر حين يرحل عن صاحبة ، وفى كل ذكرى يهيم طيفها بخلدى .. كنت أفقدها ، تجمدت لبرهة كتمثال من الخشب ، أحدق فى البنايات التى أكلها الزمن حتى باتت كلها تشبه بعضها ، جميعها تحمل لافتة (**La Ronza Hotel**) .. وكأن المدينة برمتها باتت نُزلاً للغرباء ، وفى لحظة وهنت عظامى ، تهدلت ، فجثوت إلى ركبتىّ مهزوماً ، صارخاً بإسمها ، أُسمع فيها الضمير الميت ، لكنها مارست لعبتها الأثـيرة ، أصغت ثم أصغت .. لكنها بالنهاية لم ترد ! .

(١٨)

حين عادت مريم إلى الواحة متخفية ، تتوارى من كنف لكنف ، تحجرت عند سفح الجبل فى جفول ، فوجئت بناسها الذين خلت سبيلهم فى أغوار الصحراء .. منتشرين أمام دار أبيها وفى ساحة البئر ، فهرعت لتوها نحوهم **" ما الذى أتى بكم إلى هنا ؟ ، ألم أحذركم من دخول الواحة ؟! "** ، فأجابها رجل بنبرة إمتصها القنوط والأسى **" وهل تظنين أننا وإن فررنا لأخر الدنيا لن يعثر علينا ! ، طالما أن هناك موتة وهنا موتة .. فلنمُت فى أرضنا "** ، فشردت مريم لبرهة إذ لم تجد فى حلقها ما ترد به ، وبعد أن تصفحت الأرجاء بعدة رمقات متخبطة .. إقتربت منهم ، فتآزروا حولها **" إذن لابد أن نفعل شيئاً نستنقذ به واحتنا قبل أن تضيع "** ، فرمقها أحدهم مبهوتاَ **" قبل أن تضيع ! ، أرجفتى قلوبنا .. ما الأمر بالضبط ؟! "** ، فتكدس أهل الواحة ينظرونها فى وجل ، لكنها ردت فى ضيق **" بربكم .. القصة طويلة وليس لدينا وقت "** ، فداركها رجل **" إذن ماذا تُريدينا أن نفعل ؟ "** ، فمدت عنقها لأعلى كأنها تجاهد ليسمع الجميع ، ثم تطلعت إلى الرجل **" ليس مطلوب منكم سوى أن تطوقوا دار الشيخ ياسين "** ، فحدق الرجل فى وجوه ناسه برمقات عشوائية ، كأنما يُبرم إتفاقاً ، ثم إستدار إليها ناطقاً نيابة عنهم **" بسيطة "** ، فتآجل الرجال حول الدار مثل ثلل نمل تتداعى إلى حبة تمر ، مكونين شبه دثار حول مريم .. التى إندست إلى الداخل ثم أغلقت الباب .

ترجلت مريم عبر صحن الدار إلى القبر ، الماكن بجانب جداره الأيمن ، كرجل مهزوم يدوس أرضه التى إستعمرت ، لم يساورها مثل هذا الشعور من قبل ، لكنها حين تجاوزت عتبة الباب .. أحست بأنفاس ثقيلة لا تمت لأصحاب الدار بصلة ، فغمرها إغتمام شديد ، طافت صورة أبيها بتقاطيعه البدوية العميقة ، برغم غُربتها .. لازالت أصداءه تحوم بأرجاء البيت ، صوته الدافئ ، قماش عباءته المفعم برائحة الحِلبة والصندل ، وصدره اللين كجنة مضيافة لكل غريب وقريب ، برأسها له ألف صورة وألف كلمة .. بالكاد تنافح ما يجوس بين أضلاعها حتى لا تتذكر ، لكنها تتذكر ! .

وبغتة ، داهمها شعور بمرور الوقت إلى حد فواته ، هذا الذى لم تُقم له يوماً حساباً ، اليوم باتت الهنيهة فيه بحول كامل ، فإستفاقت ، دفقت وجهها بسطل ماء قبل أن تسحبها الذكريات لأسفل .. فتغوص حتى ترسو إلى القاع ، وفيما كانت قد أحست ببرودة قاسية تجتاحها .. هبت إلى القبر ، أزالت قوالب الرمل المدكوك التى تسد بابه ، وما كادت تفعل حتى جاءها صوت حفيف وأنفاس متقطعة نابضة من باطنه ، فإرتدت فى فزع ، وإذا بها ترى القوالب تنزاح واحداً تلو الأخر من الداخل .. حتى بوغتت بأبيها أمامها ، كان الرجل يجاهد للصعود من الهوة الواطئة .. جاراً خلفه كفناً أبيض ، ملفوف به ، فجحظت مصدومة " **أبى !! .. "** ، فنطق بصوت متحشرج خافت " **ساعدينى يا بنيتى .. سوف أختنق "** ، فهبت إليه مريم ، ناسية جسده الذى رأتـه بأم عينها فيما سبق ممزعـاً ، سحبته بيـدٍ مرتعشة .. غير مصدقة " **ألازلت حياً ؟! "** ، فإرتمى إلى الردهـة أمام سدة القبر " **وماذا ترين بربك ؟! "** ، ثم أشار بإصبعه إلـى (قُلة) خزفية بطاقـة الجـدار ، هامساً " **إسقنى "** ، فنظـرت مريـم إلى القُلة فـى تره " **لكن هذه ليس بها ماء ! ... "** ، آنى له أن يشرب من وعاء غمره بنفسه بلبخة سامة تداوى حطم الإبل ! ، فحدجها الرجل برمقة مخيفة تفيض تخبطاً وإرتباكاً .

إبتعدت مريم مفتزعة ، تردد " **بسم الله الذى سخرك ، ولا حول ولا قوة إلا به ما شاء قدرك "** ، فإبيضت عين الرجل بغتة .. ثم إرتفع واقفاً كأن الهواء يحمله ، إلتصق بالجدار عنوة ناعراً بصوت مريع ، وما لبث حتى إستدار زاحفاً على الجدار .. كصغير يحبو بخطو دراك ، فسقط الكفن منحسراً عن جسد أسود بلون السخام ، ما كاد يظهر حتى تنسَّل إلى أربعة أحناش فاحمة منتفخة ، إنفرجت عن بعضها زاحفة إلى أرجاء الجدار ، وما لبثت حتى تشرذمت إلـى أسراب من الحشرات والجـرذان والسحالى ، كأنما قد نبعت من جوفها ، تسربت هاربة من الشقوق والصدوع ، حتى إختفت ! .

لبرهة ، تخشبت مريم تحاول أن تستوعب ما رأت ، ثم إستجمعت أنفاسها ناظرة جهة سدة القبر ، آنها لم تستغرب حين وجدته لازال مغلقاً ، إقتربت

ثم راحت تزيل القوالب بروية وحذر ، فهى لا تعرف ما عساه قد يُخبئه هذه المرة ، أغمضت عينها متمتمة بعبارات تعلمتها من الشيخ فيما سبق ، ثم أفرجتها بغتة ، وطفقت تردد " **أعوذ بوجه الله الكريم مما يراه ولا أراه ، أعوز بجاه الله العظيم من همزات الشياطين وأن يحضرون ، أعوذ بكلمات الله التامات ، التى لا يجاوِزُهن برٌّ ولا فاجر ، من شر ما خلق وبَرأ وذرأ ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، بسم الله الذى لا يضر مع إسمه شيئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم** " ، راحت تكررها .. حتى كشفت الباب عن أخره .

.....

آنئذٍ ، وفيما كنت لاأزال جاثياً إلى ركبتيّ بمنتصف الشارع ، أرسل للسماء صرخات متتالية ، هاتفاً بإسم حبيبتى التى تاهت ، وفى إحدى المرات التى أوطأت فيها رأسى سكت الصراخ فجأه ، تلفت حولى ، فإذا جدار يحدنى عن اليمن وأخر عن اليسار ، وفوقى يحط سقف خفيض ، ظلمة قاتمة ، أرسلت بصرى .. فوجدت أنى لاأزال فى النفق ! ، آنها شعرت بهذا الدوار الذى يطوح الرأس حين يُرخى الإنسان جفنيه فى مكان .. ثم يصحو ليجد نفسه فى مكان أخر ، هى الهلاوس اللعينة ! .

تساندت حتى وقفت على رجلي فأخذتنى سعلة مكروبة ، الصراخ لأكثر من ربع الساعة كأنما ذبح حنجرتى ، بالكاد إستردت أنفاسى ووعي بالمكان قبل أن أتحرك بخطو ثقيل ، حتى أنى لم أشعر بإرتطامى بحائط سد بأخر النفق ، تأخر الوقت للشعور بالقنوط .. فما أكثر هذا القنوط الذى قلبنى منذ أن ساحت قدمي إلى هذه المتاهة ، وقبل أن تهس لى نفسى بالرجوع .. علّى أجد مسلكاً أخر قد يفضى بى إلى ثغرة تؤدى إلى شارع بحى قديم ، وفيما كانت أصداء حى موناكو والأبنية المُتتوئمة لاتزال تطوف برأسى .. بوغت بكوة تنفتح بالحائط قرب السقف ، وإذا بمريم تطل منها .. وعلى وجهها مخايل جفول لا يقل أثراً عن هذا الشعور بالبهت الذى إعترانى حين رأيتها .

" **مريم !!** " نطقت بها ، أكاد أحـدث نفسى بأنها على الأرجح ضـلالة مثل

ضلالة غادة ، تلك التى ساحت بى لأكثر من ساعة ونصف ، فى حين كنت فى الحقيقة لاأزال منزرعاً فى مكانى لم أتحرك ، " **هيا يا يوسف .. أسرع** " لهثت بها مريم ، لكنى كنت للساعة غير مصدق ، وبرغم أنها ساعدتنى حتى خرجت عبر الكوة .. لم أستطع قتل هذا الشعور بأنى قيد السقوط فى ضلالة جديدة ، كانت القربة لا تزال بيدى ، دفعتها أمامى ثم وثبت إلى حافة السدة حتى رسوت أمامها ، أرخيت كفيّ كمظلتين إلى عينى مقاوماً أضوية المشعل فى يدها ، بعد أن إنقشع الظلام بغتة ، ثم تلفت حولى فى ذهول " **أين أنا ؟!** " ، فأجابتنى " **لا تخف .. بت فى أمان** " ، " **من أنتى ؟** " ، ثم أمعنت فى الأشياء حـولى " **أليست هـذه بدار الشيخ ؟!** " ، فإبتدرتنى " **قلت لك لا تخف .. لابد أن نتحرك من هنا سريعاً** " ، وفيما كنت لاأزال أحدق ، ناهضتنى " **هيا .. لا وقت لدينا** " ، فإستجبت ليدها وهى تُقيمنى " **ولكن أين سنذهب ؟** " ، فجذبت يدى " **هيا ، سأشرح لك فيما بعد** " ، ثم إلتقطت عنى القربة " **إعطنى هذه ، هى خطر علينا أكثر من أى شيئ** " ، حينها ترددت للحظة قبل أن ترتخى يدى بهدوء عن القربة ، قائلاً فى بلاهة " **إنها الكنز** " ، فإبتدرتنى " **أعرف .. لابد أن نتركها هنا** " ، ثم إلتقطت القربة وغابت لبرهة بغرفة الشيخ ياسين ثم عادت دونها ، لاهثة " **هيا** " ، ثم سارت أمامى بخطو حثيث ، توجهنا شطر باب خلفى ، لم أره من قبل ، وما كدنا نخرج حتى طرق أذنى هسيس ضاج ، فإستدرت لأرى .. فإذا بحشد من أهل الواحة مركوم أمام الدار ، فإستمهلتها " **وهؤلاء ؟** .. " ، فأجابتنى وهى تركض لاهثة .. حتى حدتنى دون إرادة أن ألزم غرزها " **لا تخف لن يمسهم بضرر ، هو يريدك أنت** " ، ثم غبنا خلف الجبل .

ما أقسى السير فى الصحراء ليلاً ! ، هو التيه بعينه ، لذا كانت القوافل تؤثر أن تُخيم إذا ما داهمها الليل ، لتعاود المسير فى وضح النهار ، إلا أن طريقنا لم أجد ما هو أيسر منه ، وكأن مريم تحفظ البادية شبراً شبراً ، لكن الأصعب فى الأمر هو ما صُدمنا به عند وادى البقاع ، وهو وادٍ يقع على بعد ساعة سيراً من الواحة ، فما إن عرجنا عن تبة صخرية ناتئة بالقرب من جرفه الشاهق .. حتى جمدتنا المفاجأة ! ، ناس الواحة بذويهم وبهائمهم شراذم

متناثرة بزوايا الوادى ، حينها حملقت مريم " **ما هذا ؟! ، متى أتى هؤلاء هنا ؟!** " ، فجذبتها من ساعدها حين شعرت بأن ثمة ما ينذر بالخطر " **هيا يا مريم ، ثمة شيئ غير طبيعى** " ، وفيما توقفت مريم للحظات تقلب الأمر فى رأسها .. إذا بصوت زأمة شديدة تدوى وراء الجرف المقابل ، الذى يحد الوادى من الجانب الأخر ، إلتفت إليها الجميع ، وما لبثوا أن يشرعوا رؤوسهم حتى برزت دماغ عملاقة فى شبه رأس سنور ، إنفرج عنها شدقين غليظين ، قبل أن يفجا بغتة بفحيح مخيف .. كأنه فرقعة قذيفة أقلعت عن فوهة مدفع ، ليظهر بالأخير هِرا عظيماً ، من نوع كاراكاو ، فى حجم طابقين .. طاوياً قائمتيه الأمامية ، تماماً كما يفعل القط فى وضع الإنقضاص ، راح يشمشم ويحرك أرنبة أنفه إلى النواحى والزوايا البعيدة ، ثم وثب فى خفة مريعة .. إلى أن حط ببطن الوادى ، متجاوزاً جروفه شديدة الإنحدار ، فإهتاج الناس وصاحوا صارخين ، كلما رزموا إلى جانب باغتهم الهر من الجانب الأخر ، ظل يعبث بهم ويناوشهم ، يدور حولهم ثم يقعى تارة ، ويقفز ثم يتواثب بينهم بحركات خليسة تارة ، ويزيحهم بقائمته ثم يردهم تارة أخرى ، تماماً كما تلعب هذه الفصائل بفرائسها .

" **هيا ، ماذا تنتظرين بعد .. أن يعثر علينا ؟!** " قلتها فى فزع ، لكن مريم تأنتنى " **على رسلك ، لو لمح لنا ظلاً لكشف أمرنا** " ، فلم نجد بداً من التخفى خلف التبة نراقب ما يحدث ، وقتئذٍ شردت فى هذا اللاهى بلا هدف ، لو فكَّر فى الإنقضاض عليهم لجعلهم مزعاً فى محض دقائق ، كنت أعرف أن هذه السنوريات تداهمها رغبة غريبة فى الإفتراس ، الإفتراس فقط ، نزعة القتل دون شعور بالجوع ، وفيما كنت غائباً فى خيالاتى هذه كان القط قد وثب إلى جرف الوادى دائراً حوله ، ظل يقترب بإتجاهنا على نحو مرعب .. جعل أقنعة الجسارة تسقط عن مريم جملة واحدة ، فإرتجفت " **أنا خائفة** " ، فوضعت يدى على فمها مشيراً لها بالصمت ، إلا أن هذا لم يمنعه من إقتفاء أثرنا ، راح يُحرك أرنبته ، ويتشمم الأثير حولنا مستوثقاً أننا لا ريب نختبئ بمكان ما بالقرب ، دنا أكثر من اللازم حتى كدنا نلفظ قلوبنا رعباً ، لكنه توقف بغتة عند الجانب الأخر من التبة ، وما لبث حتى وثب مبتعداً جهة الصحراء ، وفيما كنت أتأمل شبحه الغارب ، لا أدرى إن

كان ما رأيته حقيقة أم خيال ، خال لى أن الهِر قد وثب إلى كرة القمر المعلقة بقبة السماء ، رفع قائمته فلكزها .. فسقطت مثل كرة مطاطية ، إلتقطتها بين قائمته ثم دفعها أمامه ، وراح يلهو بها حتى غاب خلف تباب الرمل الشاردة ، حينها فقط تنهدت " **حمداً لله** ، كان بيننا وبين الهلاك خفقة " .

تلفت إلى مريم ، فوجدتها تنظر إلى خاتم الراصود الملفوف حول إخمصها متندمة " **جراءك كنا سنذهب سدى** " ، وقتها فقط أدركت لماذا إقترب الهِر منا إلى هذا الحد المرعب ، كاد يُجن حين فغمت رائحة الخاتم أنفه .. ولولا أن مريم كانت قد غمرت إصبعها فى جرابها المتخم بالمسحوق لظفر بنا ، وفيما كنت أراقب مريم وهى تزيح الخاتم عن إصبعها .. ألقيت بثقلى إلى حجر خلفى ، أتنفس الصعداء ، وإذا بنا حين إرتفعت رؤوسنا .. أمام الراصود مباشرة ، فردت مريم الخاتم إلى إصبعها سريعاً ، آنها كانت كرة القمر أسفل كاحله ، مررها بمشط قدمه إلى الهر العملاق الواقف خلفه ، فإلتقطها .. وركض بها بعيداً ، حتى إختفى ! ، فيما كان الراصود يرقبه بزهو بلحاظ عينه ! .. وهو يمرر الكرة من قدم إلى قدم .

عرج الراصـود بوجهه إلينا ، ثم دنا خطوة ، قائلاً بصوت فقد شغفه وهمته " **لقد مللت ، ركض إثر ركض إثر ركض ، ماذا .. ألم تتعبوا ؟! ، كفى إلى هذا الحد ، أعطنى هذا الخاتم يا حلوة** " محدثاً مريم ، فرمته برمقة شاردة ، كانت تفكر " **ماذا .. إنتهت اللعبة ؟!** " ، فلوى طرف شفته " **حمار هذا من يحدثك بأن ثمة حكاية تنتهى ، هى نهاية تُسلم الدفة إلى نهاية أخرى ، ولقد أزف آن رحيلكم** ... " ، فخلعت مريم الخاتم غير آبهة ثم ألقته أمامها إلى كثيب رمل خفيض ، فرماه الراصود بنظرة عابرة لا تعنى شيئ ، وما لبث يميل برأسه إلى كتفه الأيمن ، ممعناً إليها برمقة تعج بسخرة بادية ، حتى نزعت مريم وشاحها بحركة خاطفة ، ذاك المصنوع من فرو الذئب ، ثم رمته إلى وجهه ، فسقط صارخاً ، إذ كان معروفاً بين أقران البادية أن المسوخ من بنى جنسه لا قدرة لها على تحمل جلد الذئب ، يُثيرها ويُبطل قيام أودها ، خاصة وإن كان باطن هذا الجلد موسوم بطلاسم وتعازيم سحرية تقوض قدرتها ، لفوره تشدخ جسده ، وراح ينفث من جوفه دخان ونار ، ففزعت مريم لتوها نحوى " **إهرب يا يوسف** " .

راحت تردد " **أعوذ بآيات الله البينات ، التامات ، وبأسماء الله المحرقات ، الماحقات ، أعوذ بالحى القيوم ، بحق من خلقك من نار السموم ، وسخرك بين الكاف والنون ، وجـ** ... " وإذا بفرقعة عيار نارى إنطلق فى الهواء مدوياً .. فإنتفضت مريم قبل أن تتم عزيمتها ، وحين عرجت برأسها .. بوغتت بذيل الكلب أمامى ، وجهاً لوجه ، حاملاً بندقية من طراز قديم ، كنت آنها ، وفيما كانت تردد هى عزيمتها ، قد إنقضضت إليه حين رأيته يُصوب نحوها .. فقبضت على البندقية فإندفع عيارها لأعلى ، وما كدت حتى نزعتها منه .. ثم صـوبت ماسورتها إلى رأسه ، حينها صـرخت مريـم " **إهرب يا يوسف ، ليس لدينا وقت** " ، ثم تلفتت جهة الراصود فلم تجد له أثر ، كان خلفها مباشرة .. ليس بينه وبينها قيد شبر ، وقد تغيرت بعض هيئته بفعل عزيمة الحرق ، قبض على صدغيها ، قبل أن تلتفت ، ثم أدار رأسها بعنف فقصم عنقـها ، فسقطت ميته ، وإنهار إلى جوارها ينعر بضراوة ، متألماً .

إبان ذلك ، كنت لاأزال ناشباً بخناق ذيل الكلب ، الذى إنتهز فرصة إلتفاتى إلى مريم فلكز البندقية ، فتطوحت ، وإذا به بغتة يتحول بين يدىّ إلى شبه مومياء مهترئه ، ما إن راعنى منظرها .. حتى فجت فى وجهى بزمجرة موحشة ، فأرخيت يدىّ رعباً ، لكنى رغم ذلك إنحنيت فى حركة خاطفة ، وإلتقط البندقية ، ثم دفعته بعيار إستقر فى صدره .. إلا أنه تشظى إلى سبعة نُسخ منه ، بنفس شبهه ، نفرت إلى إتجاهات عدة ، عدا نسخة واحدة ، ألقمتها عيار أخر .. فتشرذمت إلى مخلوقات سوداء صغيرة بحجم كف اليد ، حلقت إلى السماء كالخفافيش .. ثم إختفت ! .

وفيما كنت أنظـر لمريـم ، بعـين غلبتها الدمـوع ، هامساً بصـوت مبحـوح " **غادة ! ** " ، كان الراصود قد رفع يده فى إعياء ، فإستدرت إليه ورشقته بعدة طلقات .. لكن الأعيرة كانت تمر فى جسده دون أن تصيبه ، آنها كان الوقت يداهمنى على نحو مفزع ، فبينما كنت أجثو إلى مريم محدقاً فى وجهها برمقات على الأرجح هى الأخيرة .. كان الراصود على وشك أن يسترد قدرته ، فنزعت الخاتم عن إصبعها ، وأخذت البندقية ، ثم هرعت هارباً ، حينها رفع الراصود يده نحوى ، ثم أطبق كفه وأفرجه بغتة ، مُومئاً ببنانه ،

فإنسلت من راحته دفقة دخن .. إندفعت متحولة إلى قط أسود ، ركض من فوره ورائى يقتفى أثرى ، وما كاد يغيب حتى تقلقلت مريم من مرقدها ، تساندت إلى عجيزتها بحركات تبدو واهنة ، قبل أن تقف منتصبة .. متشكلة فى صورة باهيا (عجوز الصحراء) ، أمعنت لبرهة نحو الجهة التى فررت إليها ، ثم لوت عنقها إلى الراصود ، نظرته طويلاً ، كأنما بلحاظها تقلب معه ما آلت إليه الأحداث ! .

بعد قرابة ساعة ، أو يزيد ، عدت إلى الواحة فى حال يُرثى ، أصابنى فرط القيام والتحدر بين التباب والكثبان برضوض وسحجات قاسية أسفل ظهرى وفى قدمىّ وذراعىّ ، فبت أتحرك بخطو متهدل ، وفيما كنت أدور خلسة حول مربط الجمال .. طرقت أذنى ضجة تدور فى مكان قريب ، إلتفت ، الضجة عند ساحة البئر ، وبعد برهة من التلصص وإسترقاق النظر .. فوجئت بناس الواحة لُمم أمام دار الشيخ ، كدت أجن ، كيف جاءوا بهذه السرعة .. وقد خليت سبيلهم شرازم بوادى البقاع ؟! ، كانت الفكرة من الإستحالة أنها بدت خارقة إلى حد لا يصدق ، مما حدانى أن أستطلع الأمر ، وفى اللحظة التى قررت فيها فعل ذلك .. داهمنى هسيس مركوم قادم من الخلف ، تلفت ، فإذا بأناس أخرين فى نفس شبههم متآزفين من جهة الصحراء ، فتطلعت إليهم مفغور الفاه " **ما هذا ؟!** " .
وفيما كادت الخدعة أن تنطلى على عقلى ، عرجت بناظرى جهة ساحة البئر تارة أخرى ، فإسترعنى أناس بين هذه الأشباه متدثرة بأردية السحرة والدجالين ، فطرقت جبهتى بكفى مصدوماً " **الغجر !** " ، تعجبت كيف مر الأمر على مريم .. دون أن تفطن أن هؤلاء الذين رأتهم فى الواحة ليسوا سوى حفنة من أنسال الجن ، الغجر ، هؤلاء الملاعين الذين ورثوا عن أجدادهم المسوخ قدرة التشكل فى صور شتى ، وإن كانت صور ذويهم من بنى البشر من أهل الواحة ! .
آنها ، تعاجلت بخطو حثيث لأستوقف هؤلاء القادمين من الصحراء ، والذين ما إن رأونى حتى تآزفوا نحوى راكضين ، فكففتهم " **حسبكم .. لقد خُدعت مريم ، الواحة ملآى بالمسوخ** " ، وفيما تناظروا برمقات يملؤها

العجب .. دنا منى رجل يقول فى تره " **مريم** ! .. **مريم منْ ؟!** " ، فنظرته فى حملقـة وقد أخذتنى الريبة " **مريم** .. **إبنة الشيخ** " ، فقال الرجل مدهـوشاً " **الشيخ لم ينجب إناث ، لم يكن لديه سوى إبن وحيد .. هو راضى** " ، فجحظت " **ماذا ؟!** " ، لولا أن الباقين رددوا القول ذاته لظننت أن الراصود سحرهم ، بدى الأمر كأنهم تعاضدوا ليُصححوا ما قلت ، فإلتجم لسانى ، وأخذتنى صدمة أفقدتنى النطق للحظات .. إلى أن إبتدرنى أحدهم " **ماذا دهاك ؟!** " ، وفيما لم أجد فى رأسى كلمة واحدة ، أو فسحة لتأويل ما أسمع .. تنبهت أن الخطر لازال يتربص بنا ، ويزيد حصاره كلما مر الوقت ، فأرجأت الأمر برمته لما بعد ، إن أنا أمهلت نفسى لأفهم ، فلن يمهلنى الوقت .. قبل أن أجد هؤلاء المسوخ مركومين فوق رأسى .

" **لا شيئ ، فقط إتبعونى فى صمت** " قلتها ، فيما طويت نيتى أن أدخل الواحة ، ولم أكد أتحرك خطوة حتى داركنى أحدهم " **توقف .. نتبعك إلى أين ؟! ، ما هذا الجنون !** " ، حينها لم أكن فى وضع يتحمل مزيد من تطارح الحجج والجدال ، الجنون حقاً هو ما يترهون به ، تسللت إلى أحشاء الواحة غير آبه بغمغمتهم ، فلم يجد الناس سبيلاً سوى أن يتسربلوا فى غرزى واحداً تلو الأخر ، كنت مثل سفينة تشدخت من كل جانب .. ولازالت تعافر لتصل ، حتى أنها لا تعـرف إلى أى شاطـئ سترسوا ، فقط تنافح موجاً عاتياً يطرق جدرانها بصدمات لا تصدق ، كيف أن مريم ليست إبنة الشيخ ؟! ، من هى إذن ؟! ، هم حتى لا يعرفون فتاة بالواحة بهذا الإسم ! ، أى خبل هذا ؟! ، كنت أتحرك كشبح لا كيان له ، مثل الريح حين تتشكل للحظة فى صورة عاصفة .. ثم تُصبح لا شيئ ، كنت أيضاً على وشك أن أتشرذم ، فأضحـى بفعل الضغط لا شيئ ، كتلة أثـيرية تسبح فـى الهـواء ، تترقب هبة ريح .. لتنذرى كأنها لم تكن ! .

وفيما كنا نخوض دروب الواحة ، إقتراباً من ساحة البئر ، مثل سيل يشق طريقه .. حدث شيئاً غريباً ، لم أجد له تفسيراً .. سوى أنه واحدة من أفانين هذه المسوخ ، فبينما كان كل رجل أو إمرأة من ناس الواحة يظهر عند تخوم الساحة .. كان شبيهه بالداخل يذوب فيسقط ، كما يذوب الملح فى الماء ،

حتى لم يبق سوى زمرة زائدة من سحرة ودجالىّ الغجر ، حتى هؤلاء ما إن رأونى أتقدم جاراً خلفى أهل الواحة ، ومُطوقاً بنصرى بخاتم العهد ، حتى تبخروا مثل دخن لا يُرى له لهب ! .

(١٩)

مضت زهاء ساعة زمن منذ أن وطئت قدمى أرض الواحة .. ولم يظهر الراصود ، حينها ، وبفقدانى الشيخ ومريم جملة واحدة ، فبت أنا المنوط بتدبير الأمر ، كانت أفكار سوداء قد وجدت طريقها إلى رأسى ، فتكاثرت ، شعرت أنى أنسحق تحت أثقال جبل كاراكاو ، حتى اللحظة التى إستشعر فيها أهل الواحة أن الأمور قد إستتبت .. لم يجل بخاطر أي منهم ما كنت أنتوى فعله ، فمهما غاب هذا المسخ لابد له من أوبة ، وما أشد من عودته هذه المرة ! .

حين طال بى الأمر ولم يقع جديد .. وثبت صارخاً فى لُممهم الناظرة فى وجل بأن تجمعوا ، فتكأكأوا حولى فى زهاء دقيقة أو أقل ، أشرت إليهم بأن تزاحموا حول دار الشيخ فيما سأدخل أنا وخمسة رجال ، إصطفيتهم بنفسى ، حينها توجهت شطر البئر مباشرة ثم رسمت النقش على الحجر .. فإنزاح عن موضعه ، ثم تحركت فى صمت ما ألغزه إلى باب الدار ، أفرجت مصراعيه فدخل الرجال الخمسة .. ثم خلفتهم دون أن ألتفت وأوصدت الباب ، بينما تلاحم الناس بالخارج فى تهافت غريب حول الصفوف الأولى ، دون أن يطرأ ببال أحدهم أن يسأل " لمَ كل هذا ؟! " ، وحدى كنت أعرف ، وآثرت عمداً أن أدفن وقائع ما سيجرى فى أعمق محط بصدرى ، وبرغم أن الرجال الخمسة كانوا على معرفة بنتف زهيدة .. إلا أنها ، إن حاولت نَظْمها ، لا تجتمع معك فى شيئ يُفهم .

بمرور ربع الساعة كان الرجال بصحن الدار منهمكين فى تعليق قراطيس صغيرة ، مصبوبة فى حجم حبات الفول من الرصاص الخالص ، بخيوط شبكة صيد كبيرة مصنوعة من الليف ، كانوا يقومون بالأمر دون أن يعى أحدهم داعى ما يفعلون ، يقومون به وفقط ، وبينما كنت أنقل عن مخطوط قديم ، كان ضمن مقتنيات الشيخ ، طلاسم ورموز خاصة إلى جدار القبر بماء الزعفران الأحمر .. دنا منى أحدهم " لقد **نفذت قطع الرصاص** " ، فأشرت له بأن يجلب غيرها من غرفة الشيخ ، ففعل ، فيما إقترب رجل أخر هامساً فى إستخفاف " **وهل تظن أن أشياء كهذه ستؤتى ثمارها ؟!** " ،

فلوحت برأسى جانباً أنى لا أعلم ، إذ لم أكن مستوثقاً من جدواها .. سوى أن الشيخ قد أشار لى يوماً ما بأنه ربما يكون سلاحى الأخير ، إذا نفذت كل الحيل ، فلا شيئ يكبح جماح الجن قدر سبيكة رصاص ، وشبكة صيد لم يمسسها ماء ! .

بالخارج ، وبينما كان الناس يطوقون دار الشيخ .. إذا برجل غريب السمت يظهر عند زاوية المسجد البعيدة ، بدى كأنه يسير سيراً عاجزاً ، قبل أن يرفع طرف إزاره .. فتظهر بساقه مقعة حرق كبيرة ، ما إن لمح هذه اللُمة المركومة حتى إفتعم غيظاً .. فإنحسرت أساريره عن تلك الأنف الجبلية والعين المسيحة ، لكنه ما لبث حتى نتئت فى وجهه ملامح أخرى .. لرجل ربما كان يوماً ما من رجال الواحة ، فقط رجل عادى لا يُرتاب فيه ، إندس خلسة فى طوايا هذا الحشد منزوع الوعى ، ثم تحرك بين الناس متلصصاً يوارى إبتسامة خبث تنم عمن وجد ضالته .. حتى إنسل فى غفلة الفزع والقلوب المقبوضة إلى عُقب أسفل الباب ، مثل حية دخانية لا شكل لها ، تسحبت وتمطت وإنبعجت .. حتى مرت دون أن يشعر بمرورها أحد ! .

إبان ذلك ، وفيما كنت واقفاً أمام باب القبر المفتوح قيد الإنتظار ، ضاماً قربة (دُرْج قمران) بساعدٍ واحد إلى جانبى الأيمن ، تقدمت خطوة ، ثم تسربلت بغتة عبر الفتحة المُفرجة .. راكضاً داخل النفق المظلم ، حينها كان الراصود قد برز عن عُقب البابِ ، مثل حزمة دخان متبعثرة ، وما كاد حتى تجسد بكامل صورته ، كان قد أُثير بروحانية الخاتم قبل أن تُفغمه رائحتى ، فوثب إلى الفوهة المفغرة .. راكضاً خلفى ، وبمجرد أن إختفى داخل النفق .. برز الرجال الخمسة بالخارج من أكناف الدار وزواياها ، مثل طوارق الليل حين تداهم ، فثبتوا شبكة الصيد المرشوقة بقراطيس الرصاص بأركان الفوهة .. حتى غشيتها تماماً ، وفيما كان الراصود قد لمح أشباحهم المتكالبة إلى باب القبر ، أخذته فورة شديدة ، فعاد أدراجه يُكدس سحائب العتمة فى طريقه تكديساً ، لكنه قبل أن يقترب لينسل من خصاص الشبكة .. صُعق ! ، رُد رداً عنيفاً حتى سقط ، حينها فقط أيقن أنه ما عاد من سبيل للمرور من هذه الجهة .. فنكص على عقبيه راكضاً خلفى ، وما إن فعل ..

حتى هب الرجال إلى قوالب الرمل المدكوك فأقاموها بباب القبر ، فأوصدوه عن أخره .

كان مثل لص مزقه الخوف يلاحق رجل عاين جريمته ، ليظفر به ، لبرهة كنت أشعر بلُهب أنفاسه تقرع ظهرى ، نفذت رائحة زنخه إلى قاع رأسى فأدارته ، ظللت أراوغه عبر سلسلة سراديب ملتوية .. حتى فوجئت بالسرداب الذى أركض فيه يدور فجأة ! ، لم يمهلنى الأمر هنيهة تفكر ، إنبرم الممر حول محوره بدورات كاملة .. كأنه حفار أنفاق ، أو أنبوب يتدحرج عبر جرف زلق ، حينها لم أدر أرض من سقف ! ، ظللت أتقلب مرتطماً بالجدران ، التى كانت تميل وتبدل أوضاعها على نحو مربك ، فيما كان الراصود يتواثب من جدار إلى جدار مقتفياً أثرى ، لم أغب عن عينه لحظة ، إلى أن إنفلتت القربة من يدى فتهشمت لافظة الدُرْج .. لأجد نفسى أتدحرج والدُرْج يتحدر أمامى ، بينما الراصود مثبتاً عينه عليه .

وفى اللحظة التى ضربنى فيها دوار حاد .. كان النفق قد إستقر بغتة متوقفاً عن الدوران ، فهب الراصود من فوره وإلتقط الدُرْج ، ليجده حين أمسك به وفض حنياته .. محض لفافة من ورق لا قيمة له ، فطوحها على طول ذراعه ، ثم رفع رأسه صارخاً فى سخط شديد ، وفيما تلفت حوله باحثاً عنى .. كنت قد تسربلت إلى سراديب النفق المتاهية حتى إختفيت ، قاصداً البئر ، فهب من فوره مستقصياً أثرى مثل ريح بالكاد يُرى مرورها ، كان صراخه الراعد ورائى يتردد مثل رجل فقأوا له عينه بمخرز بارد ! .

ظل الراصود ينتهب الأنفاق كالمجنون .. حتى واتته لحظة توقف فيها بغتة ، كأنما قد عزم على أمر لا يُدرك فى حينه ، ثنى ركبتيه ثم مال بجذعه للأمام ، مثل طائر يهم بالإقلاع ، ثم إنطلق واثباً فى الفراغ فى دفعة خاطفة ، ليظهر موطئ قدمه بالخلف كأنه شفا جرف شاهق ، إنهار لتوه ، فيما حلق هو فى الهواء ، إثر وثبته ، ثم سقط سريعاً ليحط بمقعد عربته الكارو الراكضة بالأسفل ، تماماً مثل فارس يسقط من حافة تبة عالية إلى ظهر جواده وهو يعدو ، وما كاد يفعل حتى رقع كفل الفرسة بسوط ظهر بيده .. فإرتفعت برأسها وقوائمها الأمامية فى فزع ، ثم حطت وواصلت المسير ، لبرهة كان

عدوها فى جهمة النفق كعدو جواد فى ساحة معركة حامية الوطيس .. إلى أن شد الراصود لجامها فتوقفت بغتة ، فصرخت عجلات العربة بصفير مرعب ، حينها مط الراصود رأسه للأمام ، راعداً بصوت مريع " **يووووسف** " ، ففزعت الفرسة لنعيره الهائل .. فيما كانت طواحن قلبى قد ناهزت بدبيبها المرعب قعور أذنىّ ، فتحجرت مكانى ، وفى اللحظة ذاتها التى نزعت فيها الفرسة العربة خارجة عن المشهد ، حين وثب عن حشيتها ، تلفت ورائى ، فإذا الراصود يدور حول نفسه فى زهو غريب ملوحاً إلى أرجاء المكان ، حينها كنا فى شبه قاعة كبيرة مظلمة .. بالكاد ترى فيها موضع قدم ، آنها تطلع نحوى فى خيلاء " **أهلاً بك فى عالمى ، مملكتى الصغيرة** " ، ثم راح يحدق إلى جوارى على نحو ساخر ، مومئاً ببنانه " **ولكن من هذه ؟! ** " ، فتلفت ، فإذا بغادة منتصبة ، مشدودة العود على مقعد بدون ظهر .. وحول رقبتها طوق مشنقة ! .

ما إن رأتنى حتى هتفت بعين منهمرة " **يوسف ! ** " ، فحملقت لا أصدق أنها هى ، وفيما كانت قدم الراصود مطوية إلى حرف الكرسى فى عزم ، بينها وبين زحزحته فقط دفعة ، عدوت نحوها دون إرادة ، لكن الراصود زج المقعد فتعلقت فى الهواء ، إنطبق الطوق حول عنقها فتشكل الإختناق فى عينها رمقة جوفاء جامدة سحقها الفزع ، حدجتنى بجحظة قاسية لن أنساها ما حييت ، وحين هرعت لألتقف جسدها المعلق فى حبل ينتهى إلى لاشيئ .. بوغت بهدير سيارة الواحة ، تلك التى كانت مرتدمة فى الرمال ، إخترقت عباب الظلام بسرعة مرعبة ، وفى محض لحظة ، فى إتجاه الجسد المعلق ، كادت أن تصدمها .. لولا أن أرض القاعة نهضت بغتة ، مثل جسر متحرك يرتفع ، منتصبة بزاوية قائمة .. فتدحرجت السيارة ، زلقت بعيداً بزاوية شديدة الإنحراف ، تماماً كما فعلت الفرسة حين خرجت عن المشهد ! ، ثم إختفت .

وقتئذٍ كان حبل المشنقة قد تفتل فإنتزع ، فهوت غادة ساقطة ، وفيما حاولت أن أحلق نحوها لأنتشلها .. كانت قدمىّ قد ساختا إلى أرض تشرخت أسفل منى بغتة ، فإنكفأت على وجهى ، حينها وجد الراصود فرصته مواتية .. ففزع إلىّ لينتزع الدُرْج ، ذاك الذى لم يفارق ذراعى لحظة ، فأقمت

الخاتم فى وجهه .. فإرتد بطريقة آلية ، كأنما أحداً سحبه من الخلف ، متحولاً بنفس هيئته إلى ربوت أصابه عطل مفاجئ ، ثم إستدار خارجاً عن المشهد بإنتقالات ألية عاجزة .. لتستقبله نسخة أخرى منه ، حيّة ، صفق يده فى يدها فى حركة ساخرة ، كما يفعل لاعبى كرة القدم حين يحدث تغيير أثناء مباراة ، ليظهر الروبوت فى الخلفية وهو يتفكك ثم يسقط ، فيما إندفعت نسخة الراصود جهتى .. فإستدرت فى تأهب للهروب ، لكنه تجاوزنى إلى جهتى الأخرى ، غير مكترث ، على نحو غريب لم أفهمه ! .

وبينما كنت أباشره وقد تحول خطوه اللاهث أمامى إلى سير وئيد ، مثل جرو يسير أمام صاحبه فى زهو ، إذا بى ألمح غادة على بعد خطوات منه واقفة فوق سور العمارة ، تكاد عينها تتميز من البكاء ، تلفت حولى مدهوشاً .. فإذا ثلاثتنا بسطح البناية التى هوت من فوقها ، حينها نظر الراصود جهة غادة ، ثم عرج نحوى بإبتسامته المستفزة مادا يده إلىّ ، كمن ملك نقطة ضعف لعدوه ، طالباً الدُرْج والخاتم **" لا مفر من الأمر "** ، لكنى تراجعت فى إشارة رفض جازمة .

نظر لى نظرة يملؤها غل لا يوصف .. ثم زج غادة بدفعة واحدة ، فسقطت ، إنساح صوتها لأسفل قبل يصلنى دوىّ إرتطامها ، ذاك المشهد الذى رُهن فقط لأراه مئات المرات كلما نسيته ، فى كل مرة كنت أتداعى معه كما تتداعى بناية قديمة ، فأسقط من حافة إرتفاع شاهق حتى أرتطم بالسيارة ذاتها بالأسفل ، وحين أفتح عينىّ بوعى مكدود أجدها أمامى ، محملقة ، عاتبة بكل لغة قاسية عرفتها الأرض ، لكنى هذه المرة لم أسقط ، لم أتأثر بالمرة ! ، كنت أعرف أن هذا كله هو حلقة فى دائرة هلاوس يحاول هذا المسخ إحكامها حولى ، وفيما كان الراصود قد عقد همته على إنهيارى لينتهب الدُرْج والخاتم ، فهمَّ من فوره نحوى راعداً ، كنت قد وثبت جهة عطفة جانبية ، فهربت ، يُغمغم داخلى صوت مكرور **" أين غابت قاع البئر ؟! "** ، كان من الإلحاح والتوتر أنه جعل يكرر نفسه بلا نهاية .

وكما إعتادت الغايات العصيّة أن تأتى دوماً دون وقتها ، لم أكن قد عدوت كثيراً حين طالعتنى حزمة الحبال والأصفاد المدلاة بنهاية سرداب عرجت

إليه ، آنها كان رجيع صوته يُقرقع بالمتاهة .. مثل جعير ضبع جائع منذ عدة ليال ، فإنتهبت الممر بوثبات لاهثة ، كأنها ركضات جمل ، مقترباً من قاع البئر .. حتى ناهزت الأساس الموحل ، فإستشرفنى برائحته العشبية أول ما فعل ، وللحظة حين نظرت لأعلى ، كانت السماء تطل من الفوهة وكأن البئر بناء عالٍ ذاهب إليها ، وهى مثل أفق عصيّ المنال أنظره من هذه القاع السحيقة .. فأخذتنى رجفة مباغتة ، أحسست بالأفكار تشتعل فى رأسى مثل أجمة تحترق ، وزيد الأمر حين صرعنى الوقت بمروقه اللاهث .. كأنما يجاهد ليسبقنى ، فتشبثت لتوى بالنتوءات الحجرية متنقلاً بقدميّ وذراعيّ خلالها كأنها درج ، زحفت لأعلى مثل جرذ يجاهد للخروج من بالوعة .. حتى شارفت السلاسل ، فتعلقت بها ، آنها تعاظم صوت الراصود على نحو مخيف .. حتى بت أشعر بأجيجه كأنها لفحات سوط تقرع ظهرى ، وبينما كان الرجال بالأعلى يستحثون همتى بنداءات مكرورة ، بدت مثل سراب بقيعة ، شردت للحظات حين مررت بالحجرين المثبتين بمنتصف البئر ، تذكرت تلك الرمقته الوغيرة التى حدجنى بها الراصود حين هويت لأول مرة ، وبرغم أن الأمر كان برمته حلماً .. إلا أن هذه الرمقة لازمتنى فى صحوى ونومى لأكثر من عام ونصف ! .

كان بينى وبين حافة البئر قيد ذراع حين صعدت من القاع رعدة مريعة .. فأيقنت أنه بات على بعد خطوات ، وقبل أن أستصرخ بالرجال .. كانت سواعدهم قد مُدت وسحبتنى ، حتى رزحت إلى الجانب الأخر ، آنها كان الوقت يمرق لاهثاً كأنه هو المتبوع ، وفيما ظهرت بقعة بقاع البئر كأنها بريق وشق فى ليلة دامسة .. كان قطاع من ناس الواحة يطوون شبكة الصيد المُنشبة بالرصاص فى طبقات متساوية ، فبادرتهم بلهاث وهلع **" أسرعوا إنه صاعد "** ، وما هى سوى لحظات حتى ظهر الراصود زاحفاً على جدار البئر بحبو متهدل ، فبرغم أنه كان مصطرعاً ، مثل غلمان المرعى حين يداهمهم ذئب ، كان بادياً من زأرته العاجزة كأنه يحتضر أنه إستنفذ قوته ، ربما بفعل عزائم الحرق ، إلا أنه مما عرفت أن البئر ذاته يصيبه بوهن عاتٍ كلما أسقط فيه ، تماماً كما كانت تفعل سجون سليمان بالجن ! .

وقتئذٍ ، وفيما كان الراصود قد تجاوز منتصف البئر .. أخرجت ورقة

الذهب فألقيتها إلى الفتحة ، فهوت رأساً حتى تعلقت برقبته ، فإنساح لأسفل حتى رسى إلى الحجرين المعلقين ، وإذا بالسلاسل تقعقع ثم تلتف حول جسده إلتفاف حية دءوبة ، فجرّها فى إثره ناشباً أظفاره بتجاويف الجدار ، لكن الأغلال ردته رداً عنيفاً حتى أعادته إلى وضعه القديم ، مُنكس الرأس ، ومكبل من خصره إلى رجليه ، ومجموع يديه أسفل ركبته إلى عنقه بسوارين وأصفاد من حديد ، وما كاد حتى إنداحت من السماء غرابيب سود موحشة ، مستجيبة لأنينه الصاعد ، حامت فى شبه دوائر متداخلة حول الحشد الراجف وفوق الرؤوس المشرعة ، كان نعيبها من البشاعة أن جعل أكثر الناس يفرون هلعاً ، وقتها ، كدت أن أفقد جسارتى لولا أن الباقين حدونى بإيماءات أبية أن أُتم الأمر .. فإقتربت .

" **مات الشيخ ، وماتت مريم ، وسيغيب الراصود ، وهاهم الناس يفرون واحداً تلو الأخر .. إذن كيف سأنجو ؟!** " سؤالاً وخذنى .. فيما كان الرجال يُلقون بشبكة الصيد إلى هوة البئر ، فسقطت فوق الراصود حتى قوضته مثل قضبان سجن ، وبينما علا أنينه كان السؤال قد إنتشر فى رأسى برجيع أعلى ، ما أسكته سوى نعيق الغربان الذى تفاقم ، كأنه عويل ، قبل أن تحترق بغتة ثم تهوى إلى فغرة البئر جملة واحدة ، كأنها غيمة ثقيلة ، حينها نظرت فإذا بالراصود يفرفص ، جاهد لتفادى وابل الغرابيب المتفحمة .. ثم إنهمك عبثاً فى محاولة التملص من أغلاله ، وبرغم أن السؤال ظل يتكرر تحركت سريعاً جهة الحجر الساقط إلى جانب البئر ثم رسمت النقش ، فإرتفع الغطاء ثم بدأ يتزحزح رويداً ، حينها خلعت الخاتم ثم ألقيته فوق الشبكة لأتم الأمر .. فإنفجر الراصود بصرخة موجعة ، تماهت مع رجيع سؤالى المكرور ، فإنداح رعيد إرتعابنا الموحش راكضاً إلى البرية البعيدة ، ثم إرتد بقوة إلى فغور جبل كاركاو .. فرجّه بعنف كما ترج العجائز مخضة اللبن ! .

أن أمر بكل هذا ، وأن يمر كل هذا ، دون الذى طوال الرحلة كنت أنشده ، كان ضرباً من العبث ! ، لطمة لم أدرك صدمتها ، ولم أشعر بوخذتها الوجيعة سوى اللحظة ، تلك الرحلة التى لم أجنى منها سوى أنى تعرفت

على الموت ، ورسوت على حافتة ، ثم تغلبت عليه ، ولا يزال كل شي يمر ، فبينما كانت رأسى تدور فى رحى هذه الهواجس ، وفيما تحرك الحجر لمنتصف مشواره .. فوجئت فيما لم أتوقع بالحيتين المنحوتتين على جدار البئر تتملصان من جمودهما ، ثم تدوران حول بعضهما إلى داخل الجمجمة وخارجها ، كأنهما فى حلبة رقص ، تجمعت رأسيهما نحوى فى أنين أقرب إلى أزيز فأرين تعتصر ضلوعهما ، ثم برزا عن حجارة البئر وأفرجا أشداقهما على إتساعها .. ليفحا فى وجهى بألسنة مشقوقة وصوت منكور ، وما لبثا حتى نفثا خيطين من سم أسود .. فإرتددت فى ذعر مبتعداً عن مرماهما ، آنها كان الحجر لا يزال يتحرك ببطئ عجيب كأن شيئاً يعرقل حركته ! ، وفيما كان بينه وبين الإغلاق بضع لحظات ، قيد ساعد أو أقل ، إذا برأسى ذيل الكلب والسمادونى تشرئب بغتة بارزة عن حافة البئر ! ، عيونهما جاحظة فى رعب وألم .. كأن وحشاً يقبض على أقدامهما من أسفل ، وما كادت أصواتهما تنبع بصرخة خوف رهيبة .. حتى برزت تباعاً رؤوس مريم والشيخ وعجوز الصحراء واليهود الأربعة ! ، وصعدت من القاع فى إثرهم أصوات صرخات تخلع القلب .. كأنها أصوات المعذبين فى الجحيم .

كانت الرؤوس مسودة من الفزع على نحو لا يوصف ، والأشداق مفرجة بصراخ لا صوت له ، تعلقت أياديهم بحافة البئر محاولة الخروج .. لكن كل واحد كان يتشبث صاعداً يزيح من قبله فيسقط ، وإذا برجل من أهل الواحة ينبرى خلسة من طوايا الحشد ، الذى تراكم مرة أخرى ، فيرمى بشعلة نار من فرجة البئر ، فإرتفع اللهب من القاع ثائراً بأزيز ونواحات مختلطة ، وفيما إنساحت الرؤوس لأسفل فى تتال صراخ مدوى .. صعدت جأرة مضغمة كان من شدتها أن أخذت الجبل بزلزلة حادة .. كأنما ضربته هزة أرضية ، فتصدع القصر ، آنها إنتفضت الحيتين المنحوتتين فجأة قبل أن ترتفع رأسيهما جهة غطاء البئر ناعقتين ، كأنما تستصرخان بهذا الذى يحترق بالأسفل ، ثم نتأ النقش بغتة ، متفجراً ، فتفتت إلى حجارة صغيرة بالكاد تقرأ فيها ملامح مائزة ، وإنغلق البئر إلى الأبد .

كاد الفزع أن يُجمد الناس حين إرتجت الأرض وتداعى القصر فى إنهيار

مريع ، تفسخت جدرانه تباعاً .. قبل أن يتهدل جرمه الضخم منساحاً إلى جرف الجبل ، فإنفرط الحشد المتكدس عند السفح كقطيع غنم فرقه دوىّ قنبلة ، حينها فقط شعرت برقوء الدم وإنقطاعه فى عروقى .. فشحب وجهى كالأموات ، وفيما تصلبت عضلاتى ، فلم أملك أن أتحرك قيد أنملة ، لمحت ذيل الكلب هابطاً فى ذعر عبر الإنحدار الصخرى .. فاراً من الأنقاض الساقطة ، إلا أن قبة البهو ، التى شهدت مذبح جبرين الدقاق ، سقطت بإتجاهه فأزاحته فى طريقها .. حتى رست فوقه على ظهير حجر عظيم معلق بصدر بكاراكاو ، وبينما كانت سحابة غبار كثيفة قد غشيت سماء الواحة .. أفلت من طيها فحيح هائل مثل الإعصار حين يقلب تهويمات الدخان ، قبل يضرمها ناراً ، فرفعت رأسى مفتزعاً ، فإذا بمروحية (طراز جازيل) ساقطة بإتجاه البئر ، جارة فى ذيلها ألسنة نيران غاضبة ، كأنها ألسنة الجان ، فلم أدر بحالى وأنا أحجل هلعاً قبل أن أنكفأ على وجهى حين إرتطمت الطائرة منفجرة ! .

مرت بضع لحظات توقف فيها الزمن برهات ، وفيما كان كل شيئ قد هدأ إلا أجيج النار .. إعتدلت بجذعى ناظراً جهة البئر ، باتت الطائرة محض ألواح تحترق ، لبرهة راعنى هذا الأرير الجامد ، الخالى من صوت واحد يُنبؤ بالحياة .. فتلفت حولى ، فلم أجد أثراً لناس الواحة كأنما تبخروا مع حزم الدخان الصاعد ، بدى الأمر منذراً بالنهاية .. قبل أن تحرف عينى جهة القصر ، ذاك الذى أصبح أثر بعد عين ، فأرى وجه الراصود يوارى قرص الشمس ، حملقت .. فإذا هو واقف أمامى مباشرة ، طوله البائن يرمى بظل مديد كأنه مارد ، ومن هؤلاء ؟! ، الشيخ ياسين وباهيا إلى جواره ، ومن خلفهم ناس الواحة بقضهم وقضيضهم ، وفيما إنفرج جفناى عنوة ، غير مُصدق أنهم واقفين حيالى ، إنسلت غادة من وراء الراصود متدثرة بأسمال بدوية لتقف إلى جواره رأساً ..
آنها ودون مناسبة ، وحين سقطت عينى بمنتصف عين الشيخ .. طن حديثه القديم فى قاع رأسى الفارغة " **مال اليهود .. لن يكون إلا لليهود** " ! ، ترددت بنبرة لها رجيع متصاعد ، فى اللحظة ذاتها الذى إنسل إلى أذنى همس

هادئ تمطى بروية وخبث ، كأنه وسوسة شيطان " **جبااااان** .. " ، فيما كانت غادة على جانب المشهد تحدجنى بنظرات مفعمة باللوم والإتهام ، فشعرت بدوار حاد يقلب رأسى ، يجذبها ككرة بندول .. ثم يحوم بها بعيداً كما يحوم الإعصار بذرى التراب وحطام الدور ، أحسست كأنها جبل ثقيل يدور حول عنقى الضامرة .. فإنكفأت على وجهى عنوة ، حينها لمحت تلك القدمين العجفاوين تقترب ، وفيما رفعت حدقتى إلى سقف عينى فى وهن .. إستطعت بالكاد أن أميز قسماته السوداء الغليظة ، حدجنى برمقته الوغيرة ، تلك التى سحر بها مريم من قبل ، ثم فتح أصابعه عن بنصر يطوقه خاتم العهد .. ودفعنى بدفقة من دخنه الأسود ، فغامت عينى وإنطبق جفناى ! .

....

إبريل ١٩٩٥ م بتوقيت الواحة / نوفمبر ١٩٩٤ م بتوقيت الواقع

يوم قائظ شديد الحرارة ..

شعرت بدفقة ماء تنسكب إلى وجهى ، فشهقت ثم أفرجت عينى مفتزعاً ، نظرت .. فإذا برجلين بأردية حضرية جالسين أمامى ، يُقلبانى ، " **لازال حياً** " قالها الرجل الأول ، فرد عليه الثانى " **حمداً لله** .. **كُتب له عمر جديد** " ..

آنها ركضت إلى أذنى مزيج من أصوات مختلطة بأبواق سيارات إسعاف وإطفاء .. فتلفت حولى فى توتر ، كنت منطرحاً إلى جوار طريق أسفلتى .. ولا أثر للبئر أو الجبل ، لا أثر لواحة كاراكاو برمتها ! ، وفيما إتضحت الأصوات بغتة .. عدت إلى الرجلين أمامى ، فلمحت خلفهما سيارات ولُمم منتثرة ، رجال ونساء عند حافة الطريق كأنهم يعاينون أثر حادث ، وإذاً بعيداً أرى شيئ هائل يحترق ، حدقت بعين زائغة .. مروحية جازيل !! ، طائرة الرحلة المشئومة ، وبينما كنت لا أزال أستجمع المشهد إستدار أحد الرجلين جهة سيارة إسعاف ، هاتفاً " **ثمة رجل حىّ هنا** " ، فدنا إثنين من أفراد الإسعاف ورجل بزىّ شرطىّ ، " **بماذا تشعر** ؟! " قالها أحد المسعفين ، فتلفت إليه ذاهلاً ، فيما كان الشرطى يتحدث إلى جهاز إرسال لا سلكى

" عمليات ، هليوكوبتر Gazelle / Sa-341 ، سقوط مجهول السبب ، منذ ساعة تقريباً " .

" ساعة !! " قلتها لنفسى قبل أن أقع بنصفى الأعلى إلى الأرض ، كانت الصدمة أقسى من هذا الذى لا يزال يطوح رأسى ، وفيما لمحت ببنصر يدى المفردة أمامى خاتم غليظ ، موسوم على فصه نقش لـ (جمجمة يخرج منها ثعبانين) ، مرق أمامى قط برىّ أسود (من نوع كاركاو) ، إحدى عينيه ممسوحة والأخرى زرقاء ، رمانى بنظرة عابرة قبل أن يثب إلى كثيب عال ، ثم بقفزات محسوبة إرتقى من سحابة إلى سحابة كأنها تحدر جبل .. حتى إختفى فى طى غيمة ثقيلة ، أخذته وغابت ببطن السماء ! .

آنها فقط عرفت أنى لن أعود كما كنت ، فحين تخرج من العاصفة .. لن تعود الشخص نفسه الذى دخلها ، وأيضاً لا تأمن أنها قد خبت ، وفيما تذكرت حياتى بمصر .. لم أتخيل شخصاً أخر أمضى طفولة أسعد من طفولتى ، وقت أن كانت صفحتى بيضاء ، ولازلت أسأل **" هلا أخبرنى أحدكم كيف تكون الذكريات "** ، حين كان الفراغ يتمدد داخلى ببطئ ، وبلا هوية ، إنتبهت اليوم أنى بت مفعماً بذكريات كثيرة .. تمزقت من الداخل إلى الخارج ، أشياء موجعة ، مخيفة .. تؤكد أنى خططت لموتى بعناية على عكس حياتى ! ، وهوية من فرط ما لاقت .. باتت تموت رويداً ، والقادم ينذر بالمزيد ...

كنت أعرف أن العام ٢٠٢٥ م .. سيغدو فهرساً لتعاسة لن تنتهى !! ..

* * *

تمت بحمد الله ...

رواية

فى نوفمبر ١٩٩٤م، وأثناء إستكشاف المخرج الألمانى " ألبرت دزرائيلى" لبعض المواقع الأثرية بصحراء مصر الغربية، مستقلاً مروحية خاصة .. تواترت الأنباء عن سقوط الطائرة عند إقترابها إلى حد بالغ من الأرض، تبين أنئذٍ أن المخرج كان ضمن ثلاثة أفراد قد شرعوا فى تصوير أحد الأفلام الوثائقية عن بحر الرمال الأعظم، كانوا قد إختفوا فى ظروف غامضة بعد ساعتين فقط من الإقلاع ! .

وفيما جرت التحريات وجد أن الطائرة قد سقطت فى موقع مجهول ، فقد فيه قبل ثلاثين عاماً أثر أربعة يهود ينتمون لنفس عائلة المخرج ، كانوا قد قدموا إلى مصر لأجل مهمة خاصة لم يُستدل عليها.. وإختفوا أيضاً فى ظروف غامضة !

حينها كانت السلطات قد عثرت فى متعلقاتهم على وثيقة غاية فى الخطورة كانت قد سُرقت من كهوف البحر الميت ، تشير إلى بئر مجهولة قبرت فيها دفائن اليهود المفقودة ، والتى تقدر بمئات الأطنان من الذهب والفضة ! .

إلا أن المثير فى الأمر ظهور نسخة من هذه الوثيقة فى كاميرات المراقبة بالفندق الذى أقام فيه المخرج وفريق العمل أثناء فترة الإعداد للرحلة ، وهو الأمر الذى حدى السلطات إلى إرسال فريق لمسح موقع الحادث، وقد أسفرت الجهود عن جثمانىّ إثنين منهم بينما فُقد أثر الثالث ،والذى تبين أنه من أصول مصرية ! .